منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل
17

أبحاث
في تاريخ المغرب وحضارته

عبد اللطيف الشادلي

منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل
17

أبحاث
في تاريخ المغرب وحضارته

عبد اللطيف الشادلي

تـقـديـــم

بدخـول عـام1997، نكـون قـد قضينـا خمسـا وعشـرين سـنة فـي رحـــاب الجامعــة، بـين التدريـس والمسـؤوليات الإداريـة. هـي ربـع قـرن وحوالي نصف عمر .يحـق لنا، بل يجب علينا، بعد انصرامها، إنجاز الحصيلة و تقويم المرحلة والوقوف على ما أنجز خلالها وما لم يتحقق إنجازه.

إن الحيـاة ليسـت مجـالا للبحـث العلمـي فقـط، بـل إن فيهـا مـن المسـؤوليات الأسـروية والعائليـة والمهنيـة، مـا يجعـل منهـا سلسلة متواصلة الحلقـات من المشاكل، الصغيرة والكبيرة، يتعين على المرء مواجهتها، فيصيب أحيانا في حلها ويخفق أحيانا .وبـين النجـاح والإخفـاق، تفضل فضلة من الوقـت يمـارس فيها الإنسان البحث العلمي، ليس كواجب يؤدى، بل كهواية تحقق. ينشـغل فيهـا عـن همـوم الوقـت ومتاعبـه، ويحس خلال مزاولتها أنه يمارس حياته بشكل اختياري، بعيد عن إلزامية الواجب وثقله أحيانا.

هكـذا، تولـدت فكـرة جمـع ما سبق أن أنجزناه من مقالات وأبحاث بعضهـا كـان مسـاهمة فـي لقاءات أو ندوات علمية، والبعض الآخر مما نشر في مجلات مختصة .ونكـاد نجـزم أن هـذا الذي نقدم اليوم لا يستقصي كل

الأبحاث .فالبعض نسيناه، والبعض الآخر نتذكره ونجهل أين نشر، والثالث أنجز وضاع.

لكل بحث من هذه الأبحاث قصته وأسباب نزوله وظروف إنجازه . وإذا كانت أهمية هاته المعطيات لا تخصنا إلا شخصيا، فإنها من جهة ثانية تعطي مثالا للظروف العامة التي مر بها، وما يزال، الباحث المغربي.

يرجع تاريخ أول مقال إلى سنة 1976، وكان مقالا موجها للنشر في العدد الأول من مجلة كلية الآداب بالرباط .وكان الإلحاح على إعداده يساير الإلحاح على إصدار العدد الأول من المجلة المذكورة، حيث كان هذا الإصدار تحديا رفعه الأساتذة الباحثون في الكلية المذكورة، بإصدار أول مجلة للكلية باللغة العربية. ونتذكر بكل انفعال المجهود الذي قامت به إدارة الكلية آنذاك، وجهد الأخ المرحوم الأستاذ محمد زنيبر، ثم نتذكر العدد الكبير من مجلات كليات الآداب بالمغرب، التي تتجاوزالعشر عدا، فنحس بكثير من الارتياح لما عرفته الجامعة المغربية من تطور.أما آخر مقال، فقد صدر سنة 1996 وبذلك تكون هاته المقالات ممتدة على عشرين سنة، تعكس اهتماماتنا العلمية، فتتنقل بين تاريخ المدن والتعريف بشخصيات، منها من اهتم بالعلم والتصوف، ومنها من اهتم بالسياسة، كما تتنقل بين أحداث وطنية ونظرات في الدين والسياسة وأوصاف ببليوغرافية .فهي بذلك مواضيع لا يربط بينها أحيانا إلا صدورها عن نفس المؤلف، تقدم اليوم لجمهور الباحثين والمهتمين بتاريخ المغرب وحضارته، و كلنا أمل في أن تتحقق بها فائدة.

عبد اللطيف الشادلي

مكناس في 10 يناير 1997

مرسى الوليدية*

تتميز المنطقة الساحلية الممتدة من الجرف الأصفر (الرأس الأبيض) جنوب الجديدة إلى رأس كانتان شمال آسفي، بميزة طبوغرافية فريدة ؛ حيث تبدو للناظر وكأنها تشرف على مجرى مائي ضيق يفصل بينها وبين تلال رملية تطل مباشرة على المحيط الأطلسي. ويمكن أن نميز في هذا المنظر العام ثلاث وحدات هي :

– منطقة السهل الدكالي،تشرف على المحيط من ارتفاع متوسط (حوالى 100م) قوام السطح فيها تلال رملية متصلبة، في شكل موجات متباعدة. تتخذ هذه المنطقة في الغالب للسكن، لعدم أو قلة صلاحيتها للزراعة. في حين تتخذ المنخفضات الفاصلة بين التلال للزارعة. أما من الناحية الهيدروغرافية، فهي متأثرة بطبيعة صخورها المنفذة (رملية من البليوسين)، وهذا ما يفسر انعدام مجاري مائية دائمة من جهة وتوفر المنطقة على فرشة مائية باطنية مهمة من جهة ثانية.

* صدر هذا المقال في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية –جامعة محمدالخامس الرباط - العدد 1– 1976

– أمـا القسـم الثـاني فيظهـر على شكل منطقة مقعرة تعرف باسم الولجـة، وتسـتفيد المنطقـة مـن ميـاه الفرشـة الباطنيـة كمـا تستفيد من الرطوبـة التي يوفرها المحيط لممارسة نشاط زراعي حدائقي يعطي المنطقة شـهرتها الزراعية.

– ويظهـر القسـم الثـالث في شكل مجموعة من التلال الرملية التي تشـبه فـي تكوينهـا الجيولوجي المنطقة السابقة وتخالفها في أنها مغطاة بطبقة من الرمال المتصلبة الرباعية، ولا يتجاوز ارتفاع هذه التلال 20مترا.

يرتبـط وجـود هذه الأشكال التضارسية الفريدة بحركة المحيط الذي كان في وقت ما يغطي القسم الأول من المنطقة.

وقـد يحصـل أن يضعـف حـزام التـلال الموالـية مباشـرة للمحيـط فيتهشـم تاركـا فتحـة تتسـرب مـن خلالهـا ميـاه المحيط، لتندفع – تبعا لانخفـاض مسـتوى القسم الثاني بالنسبة للمحيط – مشكلة مجرى مائيا أشـبه مـا يكـون بنهر، يجرى بموازاة المحيط ليصب فيه في حالة الجزر، أو ليتلقى مياهه في حالة المد[1].

واعتبـارا لهـذه الظـاهرة، فإن القسم الثاني المشار إليه آنفا، ينقسم بـدوره إلـى قسـمين، أحدهمـا لا تصـل إليـه مياه المحيط، وهو المعروف بالولجـة وهوصـالح للزراعـة، وثانيهمـا – ويعرف باسم المرجة– مغمور بميـاه المحيـط غمـرا تزيـد أهميتـه أو تقـل اعتبارا لظاهرة المد أو الجزر. وهكـذا تتوالى المرجات والولجات تبعا لارتفاع المنطقة المقعرة النسبي. وفي الحـالات التـي يمكـن فيهـا انفتاح الحاجز الموالي للمحيط من توغل أذرع

---

(1) يرى تيسو -خطأ-أن ميـاه هـذه المرجـات مترتبة عن مياه الأمطار حيث يقول :" وتتجمع مياه الأمطـار في هذا المنخفض مشكلة عدة ضايات أهمها في سيدي ابراهيم والوليدية المتصلة بالمحيط " أنظر :

Ch. Tissot, Note sur l'ancien port d'El Gaït (Oualidia),In Bulletin dc la Société de Géographie ,Juin,6,1875

بحريـة داخـل الأرض الموازيـة للمحيط، تنشأ ظروف جديدة، تضيف إلى إمكانيـات المنطقـة الاقتصاديـة الاعتياديـة إمكانيـات جديـدة تتمثـل فـي اسـتعمال الفتحـات المذكـورة ممـرا إلـى المحيـط لاسـتغلاله. حيث تتخذ المرجات مرسى آمنا من الرياح وحركات البحر.

نصـل إذن إلـى أن المنطقة التي يدور حولها الحديث، توفر إمكانيات ملاحيـة يرتبـط اسـتغلالها بعـدة معطيـات تخرج عن اختصاص المؤرخ. ولعـل التـاريخ يكـون مفيـدا فـي هذا المجال بما يوفر لنا من شهادات أو روايات تؤكد أن المنطقة استعملت فعلا كملجأ للسفن، أي كمرسى.

نسـتبعد أن تكـون المنطقـة قـد عرفـت حضارة من الحضارات التي اتصلـت بالمغرب في العصر القديم، ذلك أن هذه الحضارات دخلت المغرب انطلاقـا مـن البحـر، وكـان اتصالها بالمغرب يتم عبر نقط ساحلية تظهر للنـاظر إليهـا من البحر نقطا صالحة للإرساء. وهذا ما لا يتحقق بالنسبة لمنطقـة الوليديـة، حيـث تظهـر للنـاظر إليها من البحر صخورا ترتطم بها الأمواج دون أن تترك أية إمكانية للاقتراب من الساحل أو الإرساء به.

فقـد حـاول مثـلا وفـد سلطاني مكون من بعض الهولنديين ومعهم مرشـد عـارف بالمنطقـة (هو كبير بحارة آسفي) أن ينزل بمنطقة الوليدية بحـرا بعـد أن خـرج مـن آسـفي، وعبثـا حاول الدليل المرشد العثور على موقع الوليدية[2].

وأول إشـارة إلـى وجـود مرسى بالمنطقة، هي التي ورد ذكرها عند الإدريسـي إذ يقول :"ومرسى الغيط مرسى حسن مكن من بعض الرياح، والمراكـب تصـل إليـه فتخرج منه الحنطة والشعير، ويتصل به من قبائل

(2) أنظر تقرير ألبير رويل في وثائق دي كاسترى -الأراضي المنخفضة -3/575

البـــربر دكالة "[3] ويصفهـا القسـمطيني قـائلا :" لما دخلت المغرب في رحلتـي له، توجهت لقضاء دكالة، ولما قطعت وادي أم الربيع لأزمور وبتنا بـه، ومنـه نزلنـا مدينـة تيـط القديمـة ثـم عين الفطر، ثم مدينة الوليدية القديمة (كذا) ثم مدينة أيير "[4]

يظهـر منـذ البدايـة أن الموضوع يطرح مشكلة طبونيمية تظهر لأول وهلـة معقـدة. ذلـك أن منطقـة واحدة سميت – على الأقل إلى هذا الحد، وسـتظهر أسـماء أخـرى – بثلاثـة أسـماء مازال إثنان منها متداولين إلى اليوم هما أيير والوليدية.

وأول مـا يجـب الانتبـاه إليه أن تسمية الوليدية (ولو بشكلها الوارد خطـأ فـي الترجمانـة) الـواردة عنـد الزياني تسمية زائدة بالنسبة للوقت الذي نتحدث عنه، أي قبل القرن 17. ذلـك أن المتـداول أن :" أن القصبة المعروفـة بالوليديـة علـى سـاحل البحر المحيط فيما بين آسفي وتيط هي منسـوبة إليـه (الوليـد بـن زيـدان)، وأظنهـا من بنائه.. وقد جزم المؤرخ الفرنسوي دوكاسترى بأنها من بنائه وأن بناءها كان في سنة 1634 "[5]

فلعـل الزيـاني فـي نقلـه عـن القسـمطيني استشكل عليه إسم قيط وغيـط فاسـتعمل لفظـة الوليديـة.وبذلك يبقى أمامنا إسمان هما غيط (أو قيظ) وأيير.

والمشـكل فـي البدايـة هـو : هل تنطبق قيظ الإدريسي على الوليدية الحاليـة أم أن قيـظ هـي أيـير الحالية أو أن أيير هو إسم منطقة الوليدية الحالية في حين أن ما يعرف بأيير اليوم كان معروفا بغيره من قبل ؟.

---

(3) صفـة المغـرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق – الشريف الادريسي – ص 74.

(4) القسمطيني، أنس الفقير، ذكره الزياني، ترجمانة، ص : 78

(5) الاستقصا – الناصري – 6/ 82

ونلاحظ بعد ذلك أننا نصادف ابتداء من القرن 16م ذكر المنطقة في إطار الحديث عن العمليات التوسعية البرتغالية، حيث يتردد ذكر المنطقة حاملة اسمين : أيير أو الغيط. ففي نهاية القرن المذكور، ورد في وصف المغرب لمؤلف مجهول الاسم ذكر إسم «غاط RATE»[6] وهو ولا شك تحريف لكلمة غيط أو قيظ. كما يتردد في نفس الفترة ذكر RIO DAYER الذي لا شك أنه تحريف لـ «أيير»[7] مع التمييز بينهما. فإذا أخذنا بهذا التمييز واعتبرنا تسمية قيظ أو غيظ هي التسمية القديمة للوليدية الحالية لاستقامت كثير من المعلومات. فقد أورد الكانوني في وصفه لعبدة ما يظهر أنه يفرق بين الوليدية وأيير حيث يجعل الثانية جنوبي الأولى[8] أما تيسو فقد جعل – دون عناء– غيط الإدريسي محل الوليدية الحالية[9].

أما ماسينيون فيظهر وكأنه غير واقف عند اختيار معين[10]، فبينما يضع غيط في خريطة مستخرجة من رحلة الإدريسي محل الوليدية، يعود فيضع علامة استفهام أمام كلمة غيط عندما يضعها إزاء ريو داير Rio d'Aer [11].

نخلص من هذاالعرض إلى أن الذين تحدثوا عن المنطقة أعطوا اسم الغيط وأيير لغير المكان الذي كان يحمله، وربما تسرعوا في مطابقة الغيط على الوليدية. وسنحاول فيما يلي الخروج من هذا الإضطراب، منطلقين من استعراض ما تجود به الوثائق.

---

(6) وثائق دى كاسترى – فرنسا – 2/244

(7) نفسه – فرنسا – 2: 252

(8) الكانوني، أسفي وما إليه – ص 40-41

(9) Ch. Tissot, Note.

(10) ماسنيون، ص 54

(11) نفسه، ص 203

1 – تروي وثيقة برتغالية ما يلي : على بعد 3أميال برتغالية من الرأس الأبيض و 4أميال من تيط، و 5من مزغان بمحاداة البحر يوجد Casa do Caballero [12]

2 – وتروى نفس الوثيقة : "على بعد 7 أميال برتغالية من كاسادي كابليرو و 10 من الرأس الأبيض، و 11من تيط و 12من مزغان يوجد ريوداييرRio dayer[13]. وانطلاقا من هذه المقاييس يمكن تحديد موقع أيير بالضبط، اعتبارا لكون التحديد معتمد على نقط ثابتة ولا تزال موجودة (الرأس الأبيض – الجديدة) واعتبارا لكون الميل البرتغالي يعادل 5555مترا[14].

فكلمة أيير كانت إذن مستعملة للدلالة على المكان الذي تشغله الوليدية حاليا. فاستعمال كلمة أيير مرفقة باستمرار بكلمة « ريو » يقتضي أن تكون المنطقة المشار إليها واقعة على مجرى مائي أو شيء شبيه به، وهذا لا يتوفر في أيير الحالية وأكثر من ذلك، يذكر سيسبيديس أن أيير ذراع بحري وليس نهرا كما يظن، يجري من الشمال إلى الجنوب[15]. كما ورد الإسمان – أيير وقيظ – معا في بعض الوثائق الأوروبية في القرن 17، كما سنرى .فلاشيء يمنع إذن من أن يكون الإسمان قد استعملا، أحدهما (قيط) زمن الإدريسي وظل مستعملا إلى وقت ما، حيث ظهرثم طغى إسم أيير .وإن كان هناك احتمال آخر هو أن المنطقتين حملتا – باختلاط – نفس الإسم لاتصال بينهما، كأن تكون المنطقة البحرية أيير للصيد، بينما تشكل أيير القصبة

(12) وصف المغرب لمؤلف مجهول الإسم – وثائق دي كاسترى – فرنسا – 252/2
(13) نفسه، نفس الصفحة
(14) وثائق دي كاسترى – فرنسا – 2/ 239
(15) وثائق دي كاسترى فرنسا – 252/2

مقر السلطة، ويساير هذا الافتراض ما ذكره الكانوني من أن بناء الوليدية قديم ومن وجود "سور قديم بأحد جهات القصبة من خارج"[16].

والذي يظهر أن المنطقة بعد فترة ازدهار ما هجرت فخمل ذكرها بحيث لا نجد لأخبارها ذكرا في المصادر العربية اللهم إلا ما ذكره الكانوني من أن محمد الشيخ السعدي توجه إليها في سنة 922/1517 "فشق البلاد وحاصرها ودخلها"[17]

فما هي الأشياء التي جدت بالنسبة لهذه المنطقة في النصف الأول من القرن 17. عرف المغرب على العموم ابتداء من تاريخ وفاة أحمد المنصور السعدي 1603/1012 اضطرابات سياسية كثيرة قوامها تنازع أبنائه على السلطة من بعده، وظهور أدعياء طامحين في الحكم من جهة ثانية.

وقد ساعد هذا الجو دولة إسبانيا على توسيع نفوذها بإضافة مستعمرات جديدة إلى مستعمراتها القديمة ؛ وهكذا احتلت مدينة العرائش بعد تنازل أحد أبناء المنصور لها عنها سنة 1610، ثم احتلت عنوة مدينة المعمورة سنة 1614.

في هاته الأحيان، كان سلطان مراكش، زيدان بن أحمد المنصور، يواجه صعوبات بما يسببه له أحد منافسيه من المضايقة، وهو أبو زكرياء يحيى الحاحي. فقد نجح الثائر في طرد السلطان من مراكش كما تمكن من التضييق عليه في مقر إقامته الجديد في آسفي، حيث انعزل زيدان في المدينة المذكورة محاصرا بماله وعياله في صيف 1618[18]. ولم

(16) الكانوني – أسفي وما إليه – ص 33
(17) نفسه
(18) وثائق دي كاسترى – فرنسا 3/ 21

يقف سوء حظ هذا السلطان عند ما يحس به من الضيق وهو محاصر، فقد كانت لديه أيضا متاعب أخرى ملخصها أنه سلم خزائنه وماله ومكتبته لملاح فرنسي ليوصلها إلى أحد موانىء سوس، فما كان إلا أن " ضاعت " تلك الممتلكات في قصة يطول بنا تتبعها[19]

لم يجد زيدان حلا لما هو فيه إلا بالاتصال بالحاكم البرتغالي في البريجة الدون جورج ماسكاريناس في رسالة مؤرخة ب 22 محرم 1028 9 يناير 1619)[20]. يوضح السلطان في رسالته علاقته المتوترة بالحاحي، وحاجته إلى البارود والسلاح. فيجد الحاكم البرتغالي في ما يعانيه زيدان من مشاكل الفرصة المنتظرة للحصول على المزيد من المستعمرات. فيكاتب ملكه فيليب الثالث منتظرا تعليماته، ومسارعا إلى توجيه ابنه إلى آسفي لإظهار مساندته « لصديقه » زيدان[21]

وكان من شأن هذه الاتصالات بين سلطان مغربي – لم ينس الناس بعد أن أخاه المامون تنازل للإسبان عن مدينة العرائش مقابل بعض المساندة – وبين دولة أجنبية مسيحية، أن تقلل مما تبقى من الشعبية التي يتمتع به هذا السلطان، فلا يجد مخرجا إلا الخروج بما تبقى من ماله وعياله مغادرا آسفي متوجها إلى آزمور. ولا نعلم هل وصل زيدان إلى آزمور، كل ما نعلم أنه اقترب منها حيث حيت مروره قرب البريجة طلقات من مدفعية حاميتها[22]. ولا نستبعد أن يكون المجاهد العياشي – الذي كان في هذا الإبان قائدا للمنطقة– قد امتنع عن استقباله بآزمور أو منعه من دخولها .فما كان بإمكان زيدان مواصلة المسير شمالا وبهذا

(19) تعرف القضية بـ : قضية كاستيلان

(20) وثائق دي كاسترى – فرنسا 3/ 20وما بعدها

(21) نفسه

(22) مؤلف مجهول، تاريخ الدولة السعدية،ص 103، الناصري، استقصا 6/70،69

الشمال منطقة نفوذ أخيه ومنافسه، وهو لا يجسر على الاقتراب منها بعد « أن ركله مولاي إدريس ركلة صيرته وراء أم الربيع » على حد تعبير اليفرني. فما كان منه إلا أن ثنى العنان نحو الجنوب دون أن يجسر على الاقتراب من آسفي وقد ترك بها من سيء الأثر ما ترك. كان مقصده منطقة سوس وهذا ما يؤكده توجيهه لماله بحرا إليها. لكن بين سوس وبينه مناطق نفوذ أعدائه وليس له من الأنصارما يمكنه من مواجهتهم، فأصبح - والحالة هذه - مطوقا بالأعداء من جميع الجهات وليس أمامه إلا البحر المحيط، ولركوب البحر وجب اتخاذ المرسى، ومن هنا جاء تفكيره في فتح مرسى.

كان السلطان قد تعود على الإقامة في هذه الآونة في مكان بين البريجة وآسفي يعرف بأم كرس[23]، وكان قد كلف أحد قواده المتشبثين بخدمته بالعمل على جمع ما يمكن جمعه من مجبى. فانتبه القائد -ولعله الفتى عجيب الذي اشتهر بخدمة السلطان[24]- إلى أهمية المجرى المائي الذي سبق أن وصفناه من قبل. فما كان أسرع منه في حمل النبأ إلى سلطانه الذي سارع إلى التفكير في استغلال ما يوفره من الإمكانيات. وكان في ضيافته حينئذ فرنسي عارف بشؤون البحر هو سان مندريى(Le Capitaine de Saint Mandrier). يوجه السلطان سان مندريى إلى أيير للتأكد من إمكانية فتح مرسى بها، ويعود الفرنسي من مأموريته ليؤكد أن ذلك ممكن شرط تحطيم بعض الصخور. وفي نفس الوقت يرد على المغرب مبعوث فرنسي في مهمة عتق الأسرى المسيحيين هو الوكيل كلود دي ما Claude du Mas فيتصل به سان مندريى ويتفق الرجلان على استغلال الفرصة للانتفاع الشخصي في

---

(23) أومغرس. أنظر في شأنها دى كاسترى 2/ 246وكذا 3/54. والمنطقة لا تزال تحمل نفس الإسم إلى اليوم على الطريق بين أسفي والجديدة وتعرف بأربعاء مغرس

(24) عرف به دي كاسترى في تقديمه لنظرة عن سلا في القرن 17 - فرنسا - 3

إطار خدمة المصالح الفرنسية. أما زيدان فيأمل استغلال الفرصة لغرضين أولهما وآكدهما فتح المرسى المرتجاة، وثانيهما توسيط فرنسا في قضية كاستيان التي تهم عدة دول من بينها فرنسا. فيكلف كلود دي ما بالدخول في مفاوضات باسمه مع فرنسا في القضية المزدوجة، مؤكدا شرعية ورسمية البعثة بإرفاق سيدي فارس – أحد أفراد البيت السلطاني – بها. وتصل البعثة إلى فرنسا بتاريخ 20 فبراير 1619.

يتصل دي ما بمجموعة من رجال الأعمال الفرنسيين، ليؤكد لهم – بكثير من المبالغة – سهولة العملية ووفرة ما ينتظر أن يجنى منها من أرباح، مركزا على ما تتوفر عليه من ملح. وقد نجح في إقناع هؤلاء،فأسرعوا إلى تأسيس لجنة عرضت مشروع تأسيس شركة للقيام بتنفيذ المشروع على لويس 13. فكلف هذا الأخير أحد رجاله De la Malle بدراسة ملف القضية من كل جوانبه بحضور المبعوث المغربي. أما قضية كاستيان فلم تثر.

عاد دي ما إلى المغرب محاولا الاتصال بزيدان ليعرض عليه ماانتهت إليه مهمته. وكان ذلك نهاية المشروع من الأساس. إذ لم يجرؤ الفرنسي على المثول بين يدي السلطان وهو يحمل أخبارا غير سارة في قضية التحف التي فقد زيدان. ومن جهة ثانية تسربت أنباء المشروع لتصل إلى أسماع كل من إسبانيا وهولندة اللتين أخذتا في توجيه حملات للتعرف على إمكانيات المنطقة وأهميتها. وهذا ما جعل سكان الناحية يتخوفون من أن يحل بمنطقة أيير ما حل بالعرائش قبلها بوقت قليل[25]. وساد ما تبقى خاضعا للسلطة الزيدانية اضطراب جعل السلطان يهمل المشروع إلى حين[26].

(25) وثائق دي كاسترى – الأراضي المنخفضة 3/248

(26) اعتمدنا في هذا الفصل على وثائق دي كاسترى – فرنسا : 3 – ص 54 وما بعدها

غير أن حيوية المشروع جعلت زيدان يعيد التفكير فيه بعد مرور حوالي السنتين على الأحداث السابقة الذكر، محاولا هذه المرة تلافي الخطأ الذي وقع فيه قبل، بتنفيذ المشروع اعتمادا على نفسه ودون اللجوء إلى الأجانب، أو على الأقل دون تشغيلهم بكيفية مباشرة في إنجازه.

وهكذا يوجه إلى الحكومة الهولندية رسالة مؤرخة ب 1621/7/2 وتوافق 12شعبان عام 1030، يقول فيها : "ثم مما تعرفونه أننا نحتاج إلى سفينة من سفنكم، تحمل اتجاه حضرتكم بعض خدامنا مع اليهودي موسى بلياش. والمراد أن توجهوا لنا بها قريبا مع بعض المعلمين الحجارين الذين لهم خبرة ومعرفة بقطع الأحجار، أردناهم لإصلاح بعض مراسى سواحلنا العائدة بالمنفعة عليكم وعلينا "[27].

وفي نفس الوقت يوجه زيدان بعثة مكونة من الهولندي أوتكركلايز Outger Claez وبمعيته خادم السلطان يوسف بلياش مكلفا بمهمة عرض مشروع اتفاق في شأن المرسى المزمع فتحه على هولندة، على أن تتكلف هذه الأخيرة بتزويد المشروع بالصناع، مقابل حق استخراج ملح البارود من كل الأقاليم الخاضعة للسلطان ويحمل الوفد كدليل على صحة ما يتقدم به صورة للمنطقة.

تصل البعثة إلى لاهاي في أوائل شتنبر 1621، وتقدم عرض زيدان، مع ملاحظة مبالغة بلياش في وصف الفوائد التي يمكن أن تجنيها هولندة من المنطقة وبالأخص في باب الملح.

ترى هولندة في الاقتراح فرصة تستغل،فتبادر إلى التأكد مما يعرض عليها موجهة بدورها بعثة دراسية إلى المغرب، وتراسل زيدان في الموضوع لتعلمه بوصول البعثة التي عرفت ببعثة رويل Ruyel[28].

---

(27) دي كاسترى – الأراضي المنخفضة – 3: 216

(28) نفسه 3 – 227

يصل ألبير رويل إلى ميناء آسفي ويقيم به في انتظارمقابلة السلطان ابتداء من صيف سنة 1623. وسرعان ما يبلغه المسؤول عن التشريفات آنئذ - بلياش - أن السلطان يعفيه من مشقة السفر إلى مراكش ويأمره بانتظاره بآسفي، حيث سيأذن له السلطان في مقابلته بعد التحاقه بها قريبا. لكن انتظار المبعوث الهولندي طال ليتعدى السنة[29]، فيقرر إنهاء المهمة ومغادرة المغرب، مستعدا لذلك بتحرير تقرير مطول يبدأ من 1623/5/25[30]. ويبرر رويل فشله بالصعوبات التي تعترض تحقيق المشروع بل تجعل منه أمرا مستحيلا، فيؤكد أولا على موقف المغاربة المعارض لكل عملية تنازل عن جزء من البلاد للأجانب، مضيفا أن وضعية زيدان المزعزعة تجعله لايفكر مطلقا في عمل من هذا القبيل خصوصا وهو - حسب قوله - ليس الحاكم الفعلي في المنطقة بل الحاكم هو القائد حميدة (؟) الذي يقود 15ألف رجل. وإن كانت هناك إمكانيات تعامل، فهي مع هذا القائد .ثم يشير إلى أن المشروع خرج عما رسم له من السرية وأنه وصل إلى علم فرنسا وإسبانيا.

وفي نفس الوقت يصل إلى الحكومة الهولندية تقرير من أحد أفراد البعثة Jacob Gool[31] وهو تقرير تطرق فيه صاحبه إلى كل العناصر التي لعبت أو يمكن أن تلعب دورا في قضية أيير[32]. ويظهر من هذا التقرير بدوره أن السلطان زيدان متخوف من نتائج تعامله مع الأجانب، إذ تتعارض وعداء المغاربة لكل تصرف من هذا النوع، وفي نفس الوقت يعتبرهذا التعامل مع الأجانب المسيحيين أمرا حيويا بالنسبة للسلطان.

---

(29) كان زيدان في حرب مع يحيى الحاحي، انظر : هولندة،243:3

(30) نفسه 3 - 248

(31) أنظر ترجمته في وثائق دي كاسترى - الأراضي المنخفضة - 3: 268

(32) تقرير جاكوب كوول،:في الأراضي المنخفضة 3: 571

وكـان هـذان التقريران أساس بعث الحكومة الهولندية بقطع حربية إلـى السواحل المغربية. وحين مرور هذه القطع في عرض الوليدية حسبها السـكان قطعـا إسـبانية أتـت لتحتل، فساد المنطقة التأهب والتحفز الذي حـاكى الثـورة. فمـا كان من زيدان إلا أن التحق بعين المكان ملقيا القبض على بعض العملاء الأجانب لإظهار عدم اشتراكه في المسألة.

وبعـد مـدة وصلـت القطـع إلـى آسفي فإذا هـي قطع هولندية، أعاد التعرف على هويتها بعض الاطمئنان إلى قلب السلطان.

لـم تطـل إقامة تلك القطع، وساءت العلاقة بين زيدان وهولندة التي بعثـت إلـى مبعوثيهـا أمـر الالتحـاق بـالبلاد، وبذلـك ينتهـي التفكير في المشروع مرة ثانية[33].

لـم يعمـر زيـدان بعـد الأحـداث الأخـيرة طويـلا، فقـد توفـي سنة 1037/1627. وتعـاقـب علـى عـرش مملكـة مـراكـش مـن بعـده أبنـاؤه الثـلاثـة : عبـد المـلـك (1627-1631) ثـم الوليـد (1631-1636) ثـم محمد الشيخ الأصغر (1636-1652).

أمـا عبد الملك فما نظن أنه فكر في المشروع الذي بدأه والده وتخلى عنـه، فبعد انشغاله مدة بإخماد عصيان أخويه، انزوى في مراكش ملازما فسـقا وفجـورا إلـى أن توفـي بعد فترة حكم قصيرة كان خلالها «فاسد السريرة مطموس البصيرة»[34] وبويع بعده أخوه الوليد.

بـدأ الوليـد، بمجـرد اسـتقراره علـى سـرير الملـك، سلسـلة مـن الإصلاحـات، محاولا التقرب من الرعية بالتقرب من العلماء وإظهار الرغبة في الجهاد .كمـا ربطتـه بالمجـاهد العياشـي علاقـة طيبة في بداية الأمر،

---

(33) نفسه – 3: 217

(34) حسب تعبير اليفرني في النزهة. 234

وتمت بين الرجلين مراسلات في شأن الجهاد بالأخص. وفي هذا الإطار بدأت أنظار الوليد تتجه صوب «أيير» .فقد وجه في نفس سنة بيعته إلى هولندة – مع يوسف بلياش – رسالة مؤرخة بـ 1631/9/16تقول "وقد وجهنا قبلكم بكتابنا الكريم هذاحامله ذمي دارنا الكريمة يوسف بلياش، لقضاء بعض أغراضنا،منها انتخاب معلمين على أيديكم، يقدمون على مقامنا العلي"[35].

تجد هذه الرسالة صدى طيبا في هولندة، فتوجه أحد ممثليها إلى المغرب للبحث عن معلومات توضح – مرة أخرى – مدى أهمية المنطقة. وقد اهتم هذا الخبير بالجانب العملي للمشروع، واتصل بالحجارين مستفسرا إياهم عن الإمكانيات العملية لتوسيع المجرى، وانتهى بذلك إلى القول في تقريره بأن المشروع ممكن تحقيقه، وأن المنطقة صالحة لإيواء السفن بعد بضع عمليات[36]. عندئذ، توجه الحكومة الهولندية المعلمين الذين طلبهم السلطان، ويستقبلهم هذا الأخير بالحفاوة معدا لهم بمجرد وصولهم المواد اللازمة للبناء[37]. ويظهر أن رئيس البعثة الهولندية أساء فهم تصرف السلطان فالوليد كان ينوي بجانب فتح المرسى اتخاذ مكان حصين – قصرا أو حصنا – للإقامة وكانت مهمة الهولنديين في نظره مزدوجة، وإن كان قد قدم العملة من الأسرى للمساهمة في بناء الحصن. وسيتم بالفعل بناء الحصن 1640[38].

ماذا تبقى في المنطقة بعد أن قام فيهاالسلطان بما قام ؟

---

(35) الأراضي المنخفضة – 4: 289

(36) نفسه

(37) نفسه

(38) وثائق دي كاسترى – المجموعة الهولندية – 3: 362 الحاشية 3 وكذا فرنسا 3: 55

لا يمكن الجزم بأن المرسى فتح واستعمل رغم مانتوفر عليه من شهادات تاريخية تؤكد ذلك. وهذه الشهادات على نوعين :

النوع الأول : تمثله إشارات عابرة في وثائق إنجليزية بشكل خاص تؤكد واحدة منها في سياق الحديث عن إطلاق سراح بعض الأسرى الإنجليز – أنهم بعد تسريحهم – أبحروا من مرسى أيير (Aer) في أبريل 1636[39]. كما تؤكد شهادة أخرى أن سفينة أبحرت من الوليدية Gowandia بتاريخ 28 أبريل 1638 موسوقة سلعا مختلفة منها القمح والزيت والسمن[40] ولا نستطيع أن نعطي لهذه الشهادات إلا قيمة محدودة، أولا لخلطها بين الوليدية وأيير، وثانيا لاحتمال إخطائها في إسم المكان الذي أبحرت منه السفن المشار إليها، زد على ذلك أن شهادة إنجليزية أخرى تتحدث عن المنطقة مكتفية بالإشارة إلى الحصن الذي يطل على المنطقة دون الحديث عن وجود مرسى[41].

أما النوع الثاني من تلك الشهادات فقوامه إشارة وردت في رسالة من داوود بلياش إلى هولندة يخبرها فيها بأن السلطان أنشأ مرسى جيدا في أيير مشيرا إلى أنها (هولندة) تتوفر على رسم للمنطقة[42].

سنرى في مناسبة أخرى الدور الذي لعبته عائلة بلياش في تاريخ النصف الأول من القرن السابع عشر المغربي، ونكتفي هنا بأن نذكر أن هذه العائلة لم تكن تتورع عن المبالغة في تجسيم الفوائد التي يمكن أن تجنيها هولندة من المغرب بشكل يجعلنا نتحفظ إلى حد نفي كل صدق عن كل ما يشهد به أحد أفرادها.

---

(39) نفسه – المجموعة الانجليزية – 3: 246

(40) نفسه، نفس المجموعة – 3: 459

(41) نفسه – نفس المجموعة – 3: 454

(42) نفسه – المجموعة الهولندية – 4: 362.

وفوق كل هذه الشهادات هناك التطابق التام بين رسم المنطقة حوالي 1636 وبين ما هي عليه اليوم بشكل لا يبقى معه أي شك في أن أي عمل لم يتم فيها من الوجهة البحرية.

ولا نجد بعد ذلك ذكرا لمشروع ما لفتح مرسى قي الوليدية، إلا أن أحد الفرنسيين[43] كان يرى أن هناك إمكانيات واسعة لاستغلال المرسى كميناء لتصدير خيرات عبدة ودكالة. لكن أحدا لم يهتم بالأمر.

بقي أن نشير إلى إشارة ترى أن الوليدية سقطت في يد البرتغال سنة 1640[44] لكننا نستبعد صحة ذلك.

الخلاصة إذن أن المغرب عرف، وفي مناسبتين، محاولة إقامة تجهيز ما يصله بالمحيط الأطلسي، وأنه عرف الفشل في المحاولتين معا.

كان العمل في المناسبتين معا أيضا، عملا حيويا، تفرضه المعطيات السياسية بوجه خاص ووحيد. ذلك أن المغرب في النصف الأول من القرن السابع عشر امتاز بشيء غير قليل من الاضطراب ومن الانقسام السياسي : ففي نفس الوقت تعايشت في البلاد مجموعة من القوى السياسية التي احتفظت كل واحدة منها بمنطقة نفوذ وتمسكت بها التمسك الشديد الذي يضطرها إلى الاصطدام بجارتها في كثير من الأحيان. وكانت أهم المشاكل التي واجهت كل هاته القوى العثور على مورد للسلاح والمال. ولم يكن هناك مناص – والمغرب على ماهو عليه – من الاتصال بالخارج، وبالضبط بأروبا.

حدث كل هذا ومعظم المراسي المغربية خاضع للنفوذ الإسباني البرتغالي، والباقي القليل منها متقاسم بالاحتكاربين القوى السياسية

---

43) سبقت الإشارة إليه. Ch. Tissot

(44) بيراغو –تاريخ البرتغال– ذكره دي كاسترى في وثائقه – فرنسا 3/ 55الإشارة 3

المشار إليها بشكل يمنح لكل منها متنفسا بحريا. حقا لم يكن البحر وما وراءه في هذه الفترة أمرا حيويا ولكنه مع ذلك كان مهما .ولنذكر، على سبيل المثال، الصراع الطويل الذي طبع العلاقات بين العياشي وأهل الرباط حول مصب أبي رقراق، والعلاقات المتوترة بين نفس الرجل وبين أهل الدلاء حول نفس النقطة.

وتغدو المسألة أكثر حيوية بالنسبة لسلطان مراكش الذي أصبحت منطقة نفوذه تقتصر على ما يقع جنوب أم الربيع، مع جزء من حوز مراكش وجزء من عبدة. وكان مرفأ هذه المنطقة الوحيد هو آسفي، وهو محط أطماع الحاحي بشكل واضح[45]، زد على ذلك أن المسافة الطويلة الفاصلة بين آسفي والبريجة - المستعمرة البرتغالية -وهي مسافة خمس مراحل (حوالي 140كلم) لا تتوفر على أي مرسى. لهذا كان فتح مرسى في أيير أو في الوليدية أمرا تفرضه ضرورات الوقت على حكام القسم الغربي الأوسط من مغرب النصف الأول من القرن 17.

وفي الطرف الآخر، كانت أوربا - قل بعض دولها - تلعب دورا في تأكيد ضرورة فتح المرسى. فأروبا الغربية، وبالأخص هولندة، كانت تعرف في نفس الوقت بالذات نزاعات وحروبا، وكانت تعرف - ولو بصورة جنينية - تحركا تدريجيا بطيئا من ميركنتيلية إلى رأسمالية تجارية : وكان معنى هذا التطور، بالنسبة للمغرب بداية تطاول أوربا الغربية - ودائما هولندة بشكل خاص - بكثير من الإلحاح للاستفادة من المغرب، أولا كمصدر لبعض المواد، وثانيا لتصريف بعض المنتجات الأوروبية، وعلى رأسها السلاح .ولنلاحظ بالأخص إلحاح هولندة في البحث عن إمكانيات إنتاج ملح البارود، ولنقرن ذلك بحالة الحرب التي

(45)-وثائق دي كاسترى -فرنسا- 3: 21

كانت فيها في نفس الوقت (1618-1648) واعتبارا لما سبق، يمكن إبراز ملاحظتين : أولا أن الظروف السياسية مهماكانت قوتها، لا تكفي لتفسير حدث مثل فتح مرسى. وثانيا أن الوضعية في أوربا هي إما وقتية (حالة الحرب) أو لم تتخذ شكلها النهائي بعد (التطور الاقتصادي المشار إليه) وفي الحالتين معا لم تكن الظروف من القوة والاستمرار والوضوح بحيث تضغط ضغطا قويا ومستمرا وواضحا على الحدث.

ومع ذلك فقد كانت للطرفين المغربي والأوروبي مصالح في فتح المرسى. لكن المشروع فشل.فلماذا هذا الفشل ؟

هناك أولا أسباب عملية تقنية بحتة، مرتبطة بالمعطيات الطبيعية المحلية وبالتقنيات المتوفرة. فلننظر إلى الرسم الذي وضع للمنطقة، والذي لا يخالف – كما قلنا عدة مرات – الوضعية الحالية للمنطقة، فنلاحظ أنه يتكون من الوحدات التالية :

أولا : مدخل المجرى : وطوله حوالي 70 مترا، هو – نظريا كاف لدخول وخروج المراكب. غير أنه شبه مقفل بسبب وجود مجموعة من الصخور.

ثانيا : تتكون هذه المجموعة من 3وحدات : الوحدة الأولى (حرف أ) قوامها 3 صخرات تظهر بارزة إبان الجزر، بحيث لا يغطيها سوى حوالي القدم ماء. والوحدة الثانية (ب) قوامها صخرة واحدة كبيرة تظل دائما بارزة فوق الماء حتى في حالة المد. ثم الوحدة الثالثة (ج) يغطيها الماء إبان الجزر بحوالي القدمين ماء، ثم الوحدة الرابعة (د) وهي عبارة عن عرف صخرى ممتد على طول فتحة المجرى، وهو يظل ملامسا لسطح الماء حتى إبان المد.

ثالثا : المجرى المائي الممتد باتجاه شمالي على طول يختلف باختلاف قوة الحركة البحرية. إلا أن حركة المياه المتدفقة إليه – في حالة

المد – أو منه – في حالة الجزر – لا تسمح بترسب الرمال أو غيرها مما يجعل المجرى نقيا باستمرار. لكن قعره مكون من صخور صلبة تغطيها طبقة رقيقة من الرمل أو الطين، مما يشكل خطرا على المراكب التي يمكن أن تستعمله خصوصا وأن عمق الماء لا يتعدى المترين في حالة الجزر وينتظر أن يقل مستوى الماء فيه إذا أزيحت الصخور التي تسد مدخله.

كل هاته العناصر كانت تجعل من الصعب جدا التمكن من فتح مرسى في أيير. وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تحليل تقرير جاكوب كوول Jacob Gool[46] الذي يرى أنه ليس من المستحيل فتح المرسى، لكن بعد القيام بأشغال هي : إزاحة صخرتين على الأقل من مجموعة (أ) والصخرة الوسطى من مجموعة (ب)، كما يرى لزوم تهديم العرف الذي تمثله الوحدة (د). لكنه، مع ذلك، لا يخفي تخوفه من أن صعوبات كثيرة تعترض سبيل تحقيق هذه العمليات بسبب حركة المياه القوية التي لا تمكن من تثبيت العوامات التي ينتظر أن يقوم العمال بالعمل فوقها. كما لا يخفى تخوفه من أن المرسى – حتى في حالة فتحها – لن تتمكن من استقبال المراكب الكبيرة ذات الغاطس الكبير نظرا لقلة عمق المجرى من جهة ولضيقه إلى الحد الذي يستحيل معه الدوران داخله من جهة أخرى.

أما عن ظروف العمل فإن من الضروري اتخاذ فؤوس من نوع خاص ترفع فوق عوامات يحركها دفعا أو جرا من 70 إلى 80 رجلا، ليشتغل فوقها 6 أو 7 رجال، ولا يمكن العمل بالطبع إلا أيام الجزر[47].

وبالإضافة إلى هذه الصعوبات التقنية البحتة هناك صعوبات متصلة بها وترجع إلى صعوبة التآلف بين العمال الأجانب والمغاربة[48].

(46) دي كاسترى – المجموعة الهولندية – 3/ 571وما بعدها.
(47) دي كاسترى – هولندة – 3: 22 وما بعدها.
(48) نفسه 3: 575

وعلى العموم نسجل أن العمليات وإن كانت صعبة فهي لم تكن مستحيلة التحقيق، كما نسجل أن المغرب في المناسبتين معا كان ملزما بالاستعانة بعدد من الخبراء الأجانب.

أما النوع الثاني من الصعوبات فهو بشرى : يتمثل في الظروف السياسية التي كان المغرب يعرفها آنذاك. منها ظروف تهم كل البلاد مثل التنازع بين الحكام الذي كان يؤدى إلى انعدام الاستقرار الذي من شأنه أن يوفر للسلطان التفرغ والإمكانيات اللازمين للوصول بالمشروع إلى غايته .كما أن هذا الوضع كان يؤدي إلى فقدان الأجانب ثقتهم في السلاطين، حتى أن بعض الهولنديين ذهب إلى أن المشروع من أساسه لعبة كبيرة هدف السلطان من ورائها الحصول على الدعم[49].

ومن هذه الظروف أيضا التذمر العام الذي نتج عن حادثتي العرائش والمعمورة، ولا زال المغاربة يرون في حكامهم -حتى وقت التفكير في المشروع الذي نحن بصدد البحث عن أسباب فشله – أناسا مستعدين للتنازل عن جزء من البلاد للأجانب مقابل مساعدتهم لهم، ويفسرون كل علاقة بين السلطان وبين دولة أجنبية بأنها استعداد لتسليمهم جزءا من البلاد[50].

وكان هذا الموقف الشعبي يعرقل المشروع بصفة مباشرة أحيانا. ويكفي أن نتذكر الاضطراب الذي عرفته المنطقة عند اقتراب قطع هولندية من الساحل. كما كان هذا الموقف يعرقل المشروع أيضا بسبب تأكد الهولنديين بالأخص من عداوة المغاربة لهم وترقبهم لهاجمتهم، فهم يصرون في تقاريرهم على ضرورة اتخاذ التحصينات اللازمة ضد "هجمات ولصوصية العرب" وكان الهولنديون يدركون أن هذه العداوة

(49) نفسه – في نفس الصفحة، وكذا 3: 397

(50) نفسه 3: 248

لهـا مـا يبررهـا، ويرون أن "موقف المغاربة معروف إزاء كل من يتخلى عـن ميناء للمسيحيين"[51]. بـل إن صـاحب هـذا التقريـر يزيـد - بعـد التعـرض لإمكانيـة الحصـول على المنطقة بالشراء أو الاستئجار - قائلا : " ذلـك أن هـذا سـيكون مخالفا لعادات وقوانين بلاد المسلمين [..] حيث أن كثـيرا مـن ملـوك هـذه البـلاد، أدوا ثمنـا لمثـل هـذا العمـل حيـاتهم أو عروشـهم"[52]. ونسـجل هنـا هـذا الموقـف الشـعبي الـذي كـان مـن الوضوح بحيث أحس به الأجانب أنفسهم.

و كانت المواقف الأوروبية نفسها من بين عوامل فشل المشروع .

فقـد شـكل المشـروع مناسـبة ظهرت خلالها مجموعة من الدسائس والاتصـالات التـي كـانت تخـدم مصـالح فرديـة بـالأخص. وكانت هذه العمليـات تدوربشـكل خـاص حـول شـخصيات معينـة مثـل أفراد عائلة بليـاش التـي كـانت لهـا مصالح اقتصادية واتصالات كثيرة بالأخص مع رجـال أعمـال هولنديـين، أو مثـل مغـامرين أوروبيـين منهـم الوكـلاء والمبعوثون الرسميون وممثلو مصالح بعض الدول الأوروبية.

وكـان منطلـق هـذه الدسائس وحجتها في نفس الوقت، الرسم الذي اتخـذ للمنطقة والذي طاف كثيرا من الدول الأوروبية الغربية. فقد عرض المشـروع علـى فرنسـا، فتسارع جماعة من رجال الأعمال فيها - بتوجيه مـن الملـك - إلى تكوين شركة لاستغلال المرسى المزمع فتحه عن طريق الحصول على امتياز استغلاله.

وتفشل الاتصالات الأولية وينتهي التفكير في المشروع في فرنسا . وفـي نفس الوقت كان كلود دي ما Claude du Mas يبيـع سـر المشـروع

(51) وثائق دي كاسترى - هولندة 3: 577 و 248
(52) نفسه - ص 578

لاسبانيا التي توقفت رسميا عن الاهتمام بالأمر، وإن كانت قد بعثت سفينة من المعمورة للتأكد من جلية الأمر .وجاء في تقرير البعثة أن من المستحيل استعمال المنطقة للإرساء[53] فتخرج اسبانيا بدورها من حلبة المنافسات تاركة المجال لهولندة .لكن هذه الدسائس المليئة أحيانا بالأكاذيب، جعلت القضية تأخذ من الأهمية أكثر مما تستحق، حيث بولغ في وصف المنافع التي يمكن أن تجنى من المنطقة، وغدت القضية تذكر بمغامرات البحث عن الكنوز في مجاهل عالم غريب. وما كان هذا إلا ليجعل المسألة تأخذ من بدايتها منطلقا غير طبيعي رغم أنها بسيطة. فكل ما في الأمر أن سلطانا مغربيا - زيدان أو ابنه الوليد - كان يرى ضرورة فتح مرسى في إيالته، ويرى أن لا غنى له عن الاستعانة بالأجانب، فيتصل بهم قائلا :".. ثم مما تعرفونه أننا نحتاج إلى سفينة من سفنكم تحمل اتجاه حضرتنا بعض خدامنا من اليهود موسى بلياش.. والمراد أن توجهوا لنا قريبا.. مع بعض المعلمين الحجارين الذين لهم خبرة ومعرفة بقطع الأحجار أردناهم لإصلاح بعض مراسي سواحلنا العائدة بالمنفعة علينا وعليكم، وبادروا إن شاء الله بإرسالها لان هذه المسألة من أوكد مسائلنا وأغراضنا فلا يصيبكم في ذلك تراخي"[54].

هذا بعض ما جاء في رسالة زيدان .وقريب منه ما جاء في رسالة الوليد المؤرخة في 1631/9/16[55].

يريد زيدان إظهار استعداده للتعاون المتبادل، فيقول في رسالته : "وأما ما ذكرتم من أنكم في غاية الاحتياج لملح البارود، وأخبرتم أن بحضرتنا العلية منه كثير، فرغبتم من علي مقامنا في اصطناعه بها، فقد

(53) نفسه ص 248

(54) هولندة - 3: 170وهي مؤرخة بـ 2-7-1620

(55) نفسه - 4: 298

أذنـا لكـم في ذلك إذنا تاما. فوجهوا من خدامكم من يأخذ في عمله حتى تستكملوا منه مرادكم إن شاء الله"

لكن الدسائس تتدخل لتجعل من القضية قضية أرباح سريعة.

فهـذا داوود بليـاش يكـاتب هولنـدة قـائلا :" صاحب الجلالة فتح مرسـى جديـدا [..]الممالح التي به يمكن أن تعطى كل سنة أكثر من وسق 40 سفينة ملحا"[56].

فتتـأكد أطمـاع هولنـدة وترسل إلى ممثلها بالاستخبار عن موضوع ملـح البـارود وإمكانيـات تصنيعه بالمغرب، وأن يستعلم عن إنتاج منطقة الوليديـة مـن القمـح والصمغ العربي، وعن صلاحية المنطقة للتجارة، وأن يطلـب مـن السـلطان إذنـا مكتوبـا يعطي الحق لهولندة في استعمال كل المراسـي والموانىء والأنهار كمرافيء لسفنها التجارية والحربية بكل حرية وتحت رعاية السلطان[57].

وفـي نفـس الوقـت يعلـم فـرد آخـر مـن أفـراد عائلة بلياش الممثل الهولنـدي، بـأن فرنسـا حصلت على حق استعمال المرسى المزعوم لمدة سنوات مقابل ثمن ما، وأن هناك 32 سفينة إسبانية عند مشارف أيير[58].

هـي إذن مـن جهـة مطامع توسعية احتكارية من الجانب الهولندي، وهـي مـن جهـة أخـرى تضخيـم لإمكانيـات المنطقة. فما هي النتيجة في الآخير ؟

(56) نفسه – 4: 362
(57) نفسه – 4: 280
(58) نفسه – 4: 315

أظهرت التقارير أن الممالح التي يمكن أن تقام غير كافية[59] وأن ما ينتج من ملح لا يكفي إلا حاجيات السكان[60]. فيتأكد لهولندة أن لا فوائد - بالشكل الذي تنتظر - تجنى من المنطقة، خصوصا وأن خبيرها يقول :" لو كان لهذه المنطقة أدنى أهمية، ولو كان بالإمكان إعدادها للملاحة بكيفية أو بأخرى، لما امتنع البرتغاليون عن ذلك ولما اقتصدوا في استعمال إمكانياتهم ومهاراتهم ما داموا قد سكنوا ضواحي المنطقة، خصوصا وأنهم لم يتركوا أي ميناء دون أن يحتلوه أو يحصنوه [..]ولن تجد (هولندة) فيه أية فائدة ما دامت تستعمل موانىء مغربية أخرى وتتاجر انطلاقا منها بالقدر الكافي الذي تسمح به الإمكانيات الإنتاجية للمغرب [..] ويخشى أن تغدو هذه المنطقة - باعتبارها الميناء الوحيد في دكالة - اذا فتحت منبع الكوارث بالنسبة للمسيحيين، وأن تغدو مع الزمان والظروف، وباعتبار التغير المستمر الذي تعرفه هذه البلاد مصدرا لخراب ملاحتنا. ذلك أن هذا الشعب لا يعرف سوى استعمال البحر من أجل القرصنة والقضاء على المسيحيين "[61].

بذلك تنتهي الأطماع الهولندية وينتهي التفكير في المشروع.

وبذلك بقيت المنطقة الممتدة من الجديدة إلى آسفي منطقة لا تتوفر على أي منفذ نحوالمحيط. فهل نكتفي بالعوامل السابقة الذكر كتفسير لفشل المحاولتين الزيدانية والوليدية في فتح مرسى أيير ؟ أي كتفسير لخلو منطقة شاسعة من ميناء بحري، والعوامل المذكورة كلها عوامل غريبة عن المنطقة وأهلها ؟

---

(59) نفسه - 3: 216

(60) نفسه - 3: 560

(61) وثائق دي كاسترى -هولندة - 3: 577و 578 . وهذا ما حصل بالفعل حيث تؤكد إشارة إنجليزية (المجموعة الإنجليزية - 3: 485) أن مراد رايس، القرصان المشهور، كان مقيما بالوليدية

حقا هناك العوامل الطبيعية المرتبطة بطبيعة الولجة عموما، والتي كانت سببا في عرقلة القيام بالمشروع، ولكن في المغرب مناطق أخرى، وفي غير المغرب أيضا لم تكن تتوفر على الظروف الطبيعية الملائمة، ولكنها عرفت تجهيزات وإصلاحات، جعلت منها موانيء نشيطة .ولنذكر على سبيل المثال ميناء الدار البيضاء[62] وميناء مرسيليا. ومعنى ذلك أن رغبة الإنسان – سلطة أو مجموعة بشرية – في اتخاذ مرسى أو بناء مدينة عندما تتخذ شكلا تلقائيا تفرضه ضرورات اقتصادية واضحة، فإن تلك الرغبة تتغلب على المعطيات الطبيعية مهما كانت صعوبتها. ومعنى هذا أن فشل اتخاذ مرسى في أبير هو فشل منتظر، ما دامت المسألة أتت من خارج المعطيات المحلية وأرادت أن تفرض فرضا، ظاهرة اجتماعية اقتصادية، في شكل زرع اصطناعي لتجهيز معقد لا تتطلبه المنطقة بل ربما لا تحتمل وجوده.

لا نعرف الشيء الكثير عن المعطيات الاقتصادية الاجتماعية لمنطقة عبدة الشمالية في النصف الأول من القرن السابع عشر، بل لا نكاد نعرف عنها شيئا البتةفالمنطقة كانت في الفترة المذكورة – ولا تزال إلى اليوم -غير ذات أهمية كبيرة في ميدان الإنتاج الفلاحي. فهي منطقة قليلة الرطوبة، لا تعرف مجرى مائيا دائم الجريان من أم الربيع إلى تانسيفت، كما أن كمية ما تستقبله من المطر (حوالي 400ملم سنويا) تقارب الحد الأدنى الذي بدونه يصعب القيام بزراعة بورية. والتربة المنفذة – وهذا ما يفسر غياب الجريان السطحي الدائم – لا تعطى إمكانيات فلاحية مهمة، خصوصا وأن عروقا كلسية تتخللها، متكسرة إلى قطع تكون حقولا حجرية يطغى منظرها على معظم جهات المنطقة.

(62) جغرافية المدن المغربية – الأستاذ حسان عوض – ص 111

حقا تعتبر المنطقة من أغنى جهات المغرب بالماء لتوفرها على فرشة مائية باطنية مهمة، لكن استغلالها للرى كان يتطلب تقنيات معقدة إلى حد ما .وهذا ما لم يكن في متناول كل السكان، حيث أن معظمهم من العرب نصف المستقرين، الذين لازالوا يعيشون إلى ذلك الحين في الخيام، ويتعاطون تربية مواشي متواضعة تواضع الإمكانيات العشبية للمنطقة[63]. أما العناصرالبربرية فهي التي كانت تستغل – وفي شكل محدود -الإمكانيات التي توفرها الفرشة المائية الباطنية لري حدائق تعطى أحسن غلات دكالة[64] وهؤلاء البربر أصلا من صنهاجة سوس الأقصى "لعل سلفهم نزلوا مع الدولة السعدية النابعة من سوس، فكان أنصارهم من سوس دخلوا معهم متجندين ومتطوعين"[65].

ولا نعرف شيئا عن أهمية إنتاج هذه الحدائق، ولا نوعية النشاط الذي كانت تساهم فيه. هل هو اقتصاد مغلق شبيه بما يمكن ملاحظته في الحقول الحدائقية الجبلية ؟ لكننا نرجح أن يكون من الأهمية بحيث يغذي تجارة تتجه بالخصوص نحو الداخل لا نحو المحيط، في إطار تيار تقليدي بدأ مع بداية استقرار السكان في المنطقة. والطريقتان المذكورتان في الإنتاج، الرعوية أو الحدائقية، لا تتطلبان استقرارا حضريا مهما، فهناك تناف بين عيشة النصف استقرار الرعوية وبين الحياة الحضرية من جهة، كما أن هناك تنافيا بين الزراعة الحدائقية التي تتطلب تبعثرا في السكن وبين نفس الحياة من جهة ثانية.

والمهم أن طبيعة النشاط الاقتصادي في المنطقة لم تكن تتطلب وجود مدينة، اللهم إلا ما كان ضرورة حيوية كمركز لسوق. وهذا ما

(63) تقرير جاكوب كوول – المجموعة الهولندية – 3: 571
(64) نفسه
(65) أسفي وما إليه – الكانوني – ص 41

كانت توفره مدينة الغربية، التي كانت تقع على بعد نحو 20كلم شرق الوليدية.ويظهر أن تأسيس هذه المدينة كان في بداية الإسلام[66]، واستطاعت أن تستمر في الوجود، رغم التخريب الذي حل بها سنة 1278/667، فأعيد بناؤها، ثم خربت سنة 1552/921ثم عمرت بعد ذلك إلى أن خربت في القرن الماضي لعوامل سياسية بحتة. ومع ذلك فهي لا تزال إلى اليوم سوقا أسبوعيا (اثنين الغربية) تلتقي فيها غلات المنطقة.

على العموم إذن، كان المشروع الرامي إلى إقامة مرسى في الوليدية، مشروعا سياسيا محضا، لذلك لم يكن ينتظر أن ينجح. وأساس الفشل لا يكمن في أن المشروع سياسي بحت، إذ هناك مدن أقيمت لأغراض سياسية، ودامت وعمرت، لكنه يكمن في أن المشروع، بتحريك من دوافع سياسية، يريد إقامة مؤسسة اقتصادية. وقد كان بالإمكان أن تعمر الوليدية وتزدهر – إلى حد – لو اتخذت عاصمة أو مركزا إداريا. أما أن تعمر بفعل نشاط اقتصادي فهذا ما لم يكن ليحصل.

إن المدن التلقائية مدن نادرة في المغرب، وهذا مرتبط بالنمط الاقتصادي للبلاد وبطبيعة النشاط الاقتصادي في مغرب ما قبل الحماية، ذلك النشاط المتركز في البوادي والذي لم تكن المدينة بالنسبة له لتزيد عن أن تكون منطلقا لتحملات والتزامات.

(66) نفسه، ص 42

مفهوم الحدود في الدولة الإسلامية*

يحدد الحقوقيون مكونات الدولة في ثلاثة عناصر هي الأرض والحكومة والشعب .وسوف نعرض في هذا المضمار لمعالجة بعض شؤون عنصر الأرض في إطار الحضارة الإسلامية من جهة، وعبر تطور الأمور في الغرب الإسلامي من جهة ثانية. ونبدأ ذلك بالتساؤل عن نظرة الإسلام إلى الإطار الجغرافي للدولة الإسلامية.

أول ما تجب الإشارة إليه أن الدولة الإسلامية التي أقر أسسها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالمدينة، لم تهتم بمسألة تحديد الإطار الجغرافي الذي تمارس فيه اختصاصاتها. وهذا الموقف موقف معقول منطقي، ما دامت الدعوة الإسلامية موجهة للناس كافة. فكان حد تلك الدولة يتغير متقدما تبعا لانتشار الدعوة ووصولها إلى أطراف الجزيرة أولا، ثم إلى ما شاء الله لحركة الفتوح من الامتداد.

---

* درس ديني ألقي في حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله، يوم 8 رمضان 1406 (17 مايه 1986) في إطار الدروس الحسنية الرمضانية تحت عنوان : الدولة والحدود من خلال الحديث الشريف : «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا».

واعتبارا لما سبق، لم تعرف لفظة الحد أو الحدود بالمعنى المتداول نظرا لاستحالة انطباق الدلالة التي يحملها اللفظ على النظرة الكونية الشاملة للإسلام. فالحد لغة هو الحاجز بين شيئين أو منتهى الشيء، أو تميز الشيء عن الشيء، وهو أيضا الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر.

ولم ينظر المسلمون إلى العالم باعتباره قسمين أحدهما مسلم والآخر غير مسلم في حالة استقرار واستمرار، مما يستلزم الحد والتمييز بينهما، اعتبارا لكونهما أضدادا .بل اعتبروا مالم يصل الإسلام إليه بعد، مرمى للنظر ومطمحا للفتح وبلادا مسلمة بعد حين. واستنكفوا بذلك عن التسليم بالتحديد استنكافهم بقاء دار الكفر دار كفر. غير أنهم ميزوا في بلاد الإسلام بين بلاد الإسلام وبين الثغور، وهي المواضع الذي تلتقي فيه بلاد الاسلام ببلاد الكفر، أو هي ما يلي دار الحرب من دار الإسلام، وزيد فيها أيضا كونها موضع المخافة من أطراف البلاد. وسموا المناطق الفاصلة بين الثغور وبلاد الإسلام بالعواصم. وكانت أول الأمر تعني منطقة الفصل بين بلاد الإسلام في الشام وبين الممتلكات البيزنطية.

أما داخل بلاد الإسلام فالأرض عند المسلمين على ثلاثة مراتب :

* الحرم : وهو مكة وما طاف بها. ولمكة المكرمة مكانة خاصة لما تعلق بها من أركان الإسلام ؛ فهي قبلة ومحج، وفاقت بحرمتها سائر البلدان. ويشمل حرمها ما طاف بها 3 أميال نحو المدينة و 7 أميال جهة العراق و 7 جهة الطائف و 10 جهة جدة.

* الحجاز : وما سوى الحرم منه مخصوص بأربعة أحكام، فلا يستوطنه المشركون ولا تدفن فيه أمواتهم .ولمدينة الرسول حرم خاص.

* ماعدا ذلك من البلاد، وحكمه :

- قسم أسلم عليه أهله فهو عشر
- قسم أحياه المسلمون، فيكون بما أحيوه معشرا
- قسم أحرزه الغانمون عنوة فيكون معشرا
- قسم صولح عليه أهله فيكون فيئا يوضع عليه الخراج.

وكانت أوكد واجبات الدولة الإسلامية الدفاع عن أرض الإسلام. وهذا الدفاع يشكل ركنا من أركان الإسلام هو الجهاد، تعينت في النصوص شروطه وتقننت كيفياته، ووضع بين باقي الأركان في مرتبة خاصة لايسمو عليه بينها سوى ركن الصلاة. وقد جاء من الأحاديث في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد" وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلني على عمل يعدل الجهاد. قال : لا أجده. قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم فلا تفطر. قال فمن يستطيع ذلك"

ومفهوم الجهاد لم يخص به نشر الإسلام والدعوة إليه وخروج الناس لذلك، بل شمل في معناه الذود عن الدين والبلاد والمجتمع. واقترن الجهاد بالعمل في سبيل الله في كثير من النصوص :

- "الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها"
- "أفضل الناس مومن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله"

كما لم تقتصر فيه على مفهوم الغزو والمشاركة الفعلية في الحرب.

ففي الحديث، قوله صلى الله عليه وسلم : "من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا"

وقوله من جهز غازيا أي هيأ له أسباب سفره أو خلفه، أي قام بحال من يتركه، وقوله فقد غزا معناه أنه مثله في الأجر وإن لم يغز

حقيقة. وأخرج الحديث من وجه آخر بلفظ "كتب له مثل أجره "وأخرج مسلم من حديث أبي سعيد" ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا : ليخرج من كل رجلين رجل، والأجر بينهما .وفي رواية له : ثم قال للقاعد : وأيكم خلف الخارج في أهله وماله بخير كان له مثل نصف أجر الخارج. وقال القرطبي لفظة نصف يشبه أن يكون مقحمة أي مزيدة من بعض الرواة.

فيكون الجهاد إذن الركن المختص بعلاقة الانسان بالأرض الإسلامية، يعني ذلك إلزام الشرع المسلمين بنشر تعاليم الإسلام، وبالدفاع عن الأمة الإسلامية كلما تهددها مهدد في أحد مكوناتها أو مسها في دينها أو ترابها أو معتقداتها. ولا يسع المؤرخ المنتبه إلى طبائع الأمور إلا أن يربط بين العناية الفائقة التي خص بها ركن الجهاد، وبين السرعة المذهلة التي انتشر بها ليغطي رقعة البلاد الاسلامية. فقد نجح المسلمون في مدة تقل عن القرن، وما القرن في تاريخ البشرية إلا كاللحظ يسترق، في بسط نفوذ الدولة الإسلامية على قسم مهم من العالم المعروف آنئذ. وهذا الامتداد الجغرافي الكبير، وإن كان يسجل كدليل على حيوية الإسلام وديناميكية الدولة الإسلامية، فإنه من جهة أخرى كان يخضعها لسر الله في كونه من استحالة الاحتفاظ بسلطة موحدة في رقعة شاسعة .ذلك أن الدولة والقائمين بها، لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور، لحمايتها وإمضاء أحكام الدولة فيها. فإذا توزعوا على الثغور والممالك، فلا بد من نفاذ عددهم بما يكون فيه من التجاسر وخرق الهيبة. وبعد ذلك اتسع نطاق الدولة الإسلامية بالفتوحات والتغلب على الأمم إلى أن انقرض أمر بني أمية وغلب بنو العباس، فضاق النطاق عن الأطراف ووقع الخلاف وظهر الدعاة في كل صقع وتمهدت لهم الدول.

فماهي انعكاسات هذه المعطيات على الغرب الاسلامي.

عـرف الغـرب الرسـلامي تطـورات عـدة يمكن حصرها في المراحل التالية :

I - المغرب ولاية إسلامية من الفتح إلى القرن 2 هـ.

يطلـق لفـظ المغـرب فـي عـرف أهله على ناحية من الأرض معروفة بعينهـا، حدهـا مـن مغـرب الشمس البحر المحيط، ومن جهة الشرق بلاد برقـة ومـا خلفها إلى الإسكندرية ومصر، وبلاد طرابلس داخلة فيه. ومن جهة الشمال البحر الرومي ومن جهة الجنوب بلاد السودان .و كـان أمر الخلافـة فـي صـدر الإسـلام متحـدا وحكمهـا مجتمعا وكلمتها نافذة في جميـع ممـالك الإسلام شرقا وغربا، بحيث لا يخرج قطر من الأقطار فيما بعـد أو دنـا مـن الأرض عـن نظـر الخليفـة، ولا تصح إمارة أو ولاية في المغـرب إلا بالاسـتناد إليـه. فكـان المغرب بهذا الاعتبار ولاية من الولايات التابعـة للخلافـة الإسـلامية، ويشكل ذلك المرحلة الأولى إذن من تاريخه، تمتـد إلـى زمـن المولى إدريس ابن عبد الله المستبد بملك المغرب الأقصى والمقتطع مما عداه من الممالك الاسلامية.

وتميز تاريخ البلاد في هذه المرحلة بالخصائص التالية :

أولا : ترسـيخ الديـن الإسـلامي واللغـة العربية في مجموع المناطق التي شملها الفتح الاسلامي.

ثانيا : محاربة البدع والتيارات المناوئة للإسلام حيثما ظهرت.

ثالثـا : حمـل راية الإسلام فيما لم تصل إليه أيدى الفاتحين العرب، وخصوصا في الأندلس .

نشـير إلـى مـا تـردد في كتب الفتوح والسير من ارتداد البربر عن الإسـلام اثنتـى عشـرة مـرة، إلـى أن كمل إسلامهم على يد اسماعيل بن

عبيد الله ابن أبي المهاجر. ومرد ذلك إلى بعد المنطقة عن مركز الخلافة واصطباغ الفتح بصبغة عمليات وقتية لم يسمح عدد القائمين بها وتنوع مهامهم، بالإلحاح على الدور التعليمي والتكويني. فكان مفهوم الجهاد في مغرب الفتوح مفهوما واسعا، يهتم بالتعليم والتلقين والإرشاد والهداية إلى جانب نشر الإسلام في ما قصى من البلاد في الأندلس.

II - المرحلة الثانية من الدولة الإدريسية إلى الدولة السعدية في القرن 10 هـ.

وتتجلى أهم خصائص هذه المرحلة في ما يلي :

- قيام دولة مركزية، خارجة عن نطاق الخلافة الإسلامية بالمشرق، والعبيدية بإفريقيا والأموية بالأندلس، ونعتقد أن هذه الفترة تشهد ميلاد أول كيان سياسي بالمغرب .

- انبساط سلطة المركز على إقليم جغرافي واضح المعالم، تحده المياه من جهتين وتقف حدوده الشرقية عند وهران، ويمتد إلى مشارف بلاد السودان .

- اصطباغ حكومته المركزية بالصبغة الإسلامية والعربية. فقد وفدت على المولى ادريس بن ادريس وفود العرب من إفريقيا والأندلس، والتفت حوله. فاجتمع لديه منهم نحو خمسمائة فارس، فأجزل صلاتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة واستوزر مصعب الأزدي واستقضى عامر بن محمد القيسي، سمع من مالك وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا. ثم تعاقبت على حكم البلاد أسر المرابطين والموحدين والمرينيين. وأضافت كل دولة من الدول المذكورة إلى أصل البناء الإدريسي من اللبنات ما كون بالتتابع والتدريج خصائص الدولة المغربية المتميزة بحضارتها وثقافتها العربية الإسلامية.

ونلاحظ في هذا المجال مايلي :

1 – أن المغاربة احتفظوا بتعلق واضح بمركز الخلافة الاسلامية. فقد خاطب يوسف بن تاشفين الخليفة العباسي أحمد المستظهر بأن يعقد له على المغرب فعقد له. وظلت كل الدول المتعاقبة على حكم المغرب تضع في اعتبارها أنها جزء من الأمة الإسلامية.

2 – أن كل الدول حاولت إقامة وحدة سياسية تشمل كل أجزاء الغرب الإسلامي الواسع الممتد من الأندلس إلى برقة. وكل هذه المحاولات التي كتب لها النجاح في كثير من الأحيان مكنت المنطقة من الخضوع لسلطة سياسية واحدة، تدخل في منظور قريب يستوجب اعتبار ولاية الغرب الإسلامي كلا واحدا شبيها بالولاية التي كانت الخلافة الإسلامية تسند أمرها إلى وال واحد .كما تدخل في منظور أشمل نعتبره الأهم والأجدر بالتنويه. وهو سعي المغاربة بالخصوص إلى جمع الصف وتوحيد الكلمة في منطقة الغرب الإسلامي كمرحلة نحو جمع صف الأمة الإسلامية كلها.

والأمر عندنا يدخل في إطار التحديد العام الذي أضفيناه قبل على مفهوم الجهاد.

3 – أن شغل المغرب الشاغل كان هو المحافظة بكل الوسائل على استمرار الحكم الإسلامي في الأندلس. ونعتقد أنه لولا دعم المغاربة الدائم للأندلسيين لما عاش الإسلام في الأندلس القرون التي عاشها.ويكفي تصفح أي مصدر تاريخي للغرب الإسلامي للوقوف على مدى الجهد الذي بذله المغرب في الأندلس، وعلى تعدد عمليات العبور التي وفقت أحيانا، وفشلت أحيانا أخرى، في وقف الزحف المسيحي.

4 – أن دور المغرب في الجنوب لم يكن يقل أهمية عن دوره في الشرق والشمال. فبفضل جنوده وتجاره وفقهائه وعلمائه انتشر الإسلام في الأصقاع الإفريقية، وارتبطت بلاد السودان الغربي بالحضارة الإسلامية

III - المرحلة الثالثة من القرن 10 هـ.

وتعرف بداية هذه المرحلة ثلاثة أحداث كبيرة :

- سقوط آخر مركز للاسلام في الاندلس، غرناطة سنة 1492، ونزوح آخر الأندلسيين إلى المغرب.

- استقرار الإمبراطورية العثمانية عند الحدود الشرقية للبلاد، وتدخلها في شؤون المغرب بشكل واضح ملموس.

- تأكد الهجمات البرتغالية على الشواطئ المغربية ونجاح هذه الهجمات في اقتطاع أجزاء من المغرب متمثلة في معظم مراسيه.

ونعتقد أن هذه العناصر شكلت من التأثير والتوجيه للعقلية والنفسية المغربية ما كان كافيا لاعتبار هذه المرحلة نقطة تحول أساسية في تاريخ البلاد، ولا نجازف إذا اعتبرنا أنها تشكل منعطفا حاسما في تاريخها، وذلك لما يلي :

1- انقطع نظر المغرب عن الأندلس، ولم يعد من الممكن التفكير في ما وراء البحر بعد أن أصبح جزء من ما قبل البحر محتلا. وصار من الأقرب والأوكد استخلاص الثغور والمراسي قبل التفكير في عبور البحر لاسترداد الأندلس.

2- انقطع نظر المغرب عن المغرب الأوسط، ودخل المغرب والعثمانيون في مفاوضات في شأن عقد المهادنة وتحديد البلاد. ورغم أن السفارة لم تنجح والمسعى لم تظهر ثمرته فإننا نسجل من الناحية القانونية والتاريخية رغبة الطرفين في تحديد الحدود سنة 959.

ويشكل هذان العنصران عاملا أساسيا في نشوء إحساس بالانتماء إلى كيان واضح المعالم محدد الجهات، وهذا الإحساس بالانتماء هو ما

يمكن التعبير عنه بالاستعمال العصري بالشعور القومي. وقد زاد من ترسيخ هذا الشعور عنصر ثالث.

3- وهو أن هذا الكيان المحدد من الخارج، وجزء مهم من كل الثغور محتل من طرف الأجنبي المسيحي، بل أن ذلك الأجنبي يترصد الفرصة للانقضاض على المغرب وتهديده في وجوده السياسي ومقوماته الدينية والفكرية. ذلك أن الاستعمار البرتغالي لم يكن قطعا -كما شاء البعض أن يسميه -استعمارا محدودا في بعض المراسي بغية تسهيل التجارة البرتغالية مع العالم الجديد، بل كان استعمارا يخطط للاستحواذ على المغرب بأكمله، ولم يكن هذا الذي نقول سرا ولا كان منا استنباطا، بل هذا أمر واضح تشهد به الوثائق الرسمية للبرتغال. وهذه العناصر الثلاثة متظافرة هي التي تحدد خصائص التاريخ المغربي من القرن الخامس عشر إلى يومنا هذا. فقد تحددت للبلاد حدود، وكان فيها للأجانب مطمع لما خولها الله من موقع وثروة وأهمية.

فكانت المطامع والتهديد سببا في إرهاف مواطنة المغربي الذي نسي قبل كثير من الأمم الانتماءات القبلية أو الطرقية أو الحزبية أو كل ما من شأنه التفريق بين أبناء الوطن الواحد عادة ليغلب عليه إحساسه بانتمائه إلى وطنه. واستمر ذلك استمرارا تكونت به مع مرور الأيام نظرة مرهفة إلى الواقع وإدراك عميق للتاريخ. فقد ورد في مراسلة لأحد الفقهاء من القرن 11" ها هي جزيرة الأندلس، كان ابتداء قتاله (يعني العدو) إياها ومشاغبة أهلها في المائة الرابعة، وكانت عليه فيها هزائم مشهورة وفي الدفاتر مسطورة، حتى ابتدأها بموقعة العقاب التي كانت على المسلمين، وتم لهم الأمر في المئة التاسعة فملكها كلها على قوة أهلها، وها هو الآن يطمح في هذه.."

ثم إن هذا الوعي التاريخي قد أنتج بكيفية طبيعية الربط بين مسألة الدولة والحدود بواسطة أعمال الجهاد. وأصبح للجهاد في الوسط المغربي مكانة خاصة، ألف فيه الكثير، ونظمت القصائد وصنفت

التصانيف في الحث عليه وتبيين طرقه ووسائل تحقيقه. وأنتج ذلك تلاحما دائما واضحا بين أفراد الأمة وبين من هيأه الله لتسيير أمورها وكانت عمليات التحرير مناسبات دائمة لظهور ذلك التلاحم. وقد سجل التاريخ لسلفكم الطاهر ملوك الدولة العلوية الشريفة صفحات مشرقة كسجل لأعمالهم الجهادية. يقول صاحب النزهة : " ومن محاسن الدولة الإسماعيلية تنقية المغرب من نجاسة الكفر ورد كيد العدو عنه. وقد فتح السلطان مولاي اسماعيل عدة مدن، من ذلك المعمورة، فإنه قد افتتحها عنوة بعد أن حاصرها مدة وكان فتحها يوم الخميس 16ربيع الثاني 1092 "

وبعد ذلك بعث المولى اسماعيل جيش المجاهدين، فدخلوا مدينة طنجة بعد طرد الإنجليز منها سنة 1095. وفي 1100فتح مدينة العرائش وأخرج الإسبان منها بعد محاصرتها 3أشهر ومنها تم فتح أصيلا. ونظمت في ذلك القصائد واحتفل بالنصر أكبر احتفال.

ومن ذلك أيضا فتح السلطان سيدي محمد بن عبد الله البريجة 1182. وبذلك استرجع المغرب كل أجزائه ولم تنفك جيوش الملوك العلويين عن محاصرة سبتة ومليلية.

وقد كان من قضاء الله أن تعرضت بلادنا مرة أخرى للتهديد الأجنبي، فجزئت وحدتها وقسم ترابها بين المغتصبين. ولم يكن وليد الصدفة اضطرار المستعمر في أقل من نصف قرن أن يعترف لجزء من المغرب باستقلاله. فالمواطنة والجهاد والالتحام الدائم في المغرب بين الشعب والعرش أمور تسري في المغاربة مسرى الدم في العروق من أجيال. ورسالة الأسرة العلوية الماجدة في الدفاع عن الإسلام والذود عن حدوده استمرت في جلالة الملك محمد بن يوسف. ومهمة استكمال الاستقلال ولم شتات ما جزأه الاستعمار قامت بها جلالتكم يا مولاي خير قيام.

يوم من أيام كفاح محمد الخامس*

عرفت العلاقات المغربية الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تطورات جديدة، كانت أهم خاصياتها تأكد رغبة المغرب في الحصول على استقلاله السياسي. وقد واجهت الحكومة الفرنسية عند انتصاف سنة 1947هذه التطورات التي يعرفها المغرب بموقف جديد. انطلق من تعيين الجنرال Alphonse Juin مقيما عاما في المغرب.

ألقى Georges Bidault، وزير الشؤون الخارجية الفرنسي عرضا أمام الحكومة تحدث فيه عن الوضعية الدولية. وعرض خلال نفس الاجتماع اقتراح تعيين الجنرال جوان. رئيس أركان الحرب في وزارة الدفاع مقيما عاما لفرنسا في المغرب. خلفا للسيد Erik Labonne.

وقد وافق المجلس على الاقتراح المذكور. وفي يوم 24 مايو 1947 غادر جوان مدينة باريس ليصل إلى Toulouse يوم الأحد 25 من نفس الشهر. وقد صرح عند إبحاره نحو المغرب قائلا :" سوف أعمل كل

* ألقي هذا العرض في الندوة الدولية حول محمد الخامس (16 إلى 20 نونبر 1987) منشورات جمعية رباط الفتح للتنمية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

ما في الوسع، بتنسيق مع السلطان، وفي إطار روح الاتفاقية التي تربط بين الأمتين، لتحقيق الإصلاحات اللازمة لتطور الشعب المغربي. وسيتحقق هذا العمل في إطار النظام. وفي نهج الليبرالية والتقدم الاجتماعي الذي سطره الذين سبقوني"

وفي يوم 27 مايو وصل الجنرال جوان إلى الدار البيضاء وخصص له استقبال رسمي. ثم التحق بمقر الإقامة العامة. ومنها إلى القصر الملكي بالدار البيضاء، حيث استقبله صاحب الجلالة محمد الخامس للترحيب به في المغرب. وفي يوم الأربعاء 28مايو 1947. التحق الجنرال جوان بالرباط، ودخل إلى القصر الملكي بها في الساعة 10 و 25 دقيقة صباحا. وبعد تحية العلم رافق وفد رسمي المقيم العام الفرنسي إلى قاعة العرش حيث استقبله جلالة الملك. وتبادلا خطبا بالمناسبة.

وقد جاء في كلمة الجنرال جوان أن الحكومة الفرنسية شرفته بتعيينه مقيما عاما في المغرب. كما شرفه جلالة الملك بصداقته له. مؤكدا أنه يحتفظ بذكريات طيبة عن المغرب. الذي أدى فيه مهام كثيرة مدة 35 سنة تحت قيادة المارشال ليوتي. وأشاد بدور الجنود المغاربة الذين حاربوا دول المحور في صفوف القوات الحليفة. وبعد ذلك أضاف :

"اعتبارا لكل ذلك، وتحت شعار الصداقة، وفي إطار روح الاتفاقية التي تربط بين الأمتين، وبتنسيق تام مع جلالتكم. سوف تنجز الإصلاحات اللازمة لمواصلة تطور الشعب المغربي وللمساهمة في ازدهار المملكة. وسوف تسير هذه المهمة في طريق الحرية والتقدم الاجتماعي وهي الطريق التي رسم من سبقوني. وفي جو النظام والسلم"

وبعد ذلك. رد جلالة الملك قائلا :

"يسعدنا أن نرحب بكم. بعد أن قررت حكومة الجمهورية تكليفكم بتمثيلها لدى جلالتنا. وأملنا وطيد في أن تتطور علاقة الصداقة التي

تربط بيننا شخصيا منذ وقت بعيد كرمز للعلاقات الودية التي تربط بين شعبينا".

وبعد تبادل الخطب، اختلى جلالة الملك بالمقيم العام ودار بينهما الحوار التالي :

- جلالة الملك : يبدو عليكم التعب ؟

- الجنرال جوان : إنني أتجلد، أنا مزكوم قليلا. قبل مغادرتي باريس. زرت السيد Vincent Auriol وقد حملني رسالة صداقة شفوية إلى جلالتكم.

- جلالة الملك : كانت لنا متعة استقبال السيد V. Auriol قبيل انتخابه لرئاسة الجمهورية. وتحادثنا طويلا عن مستقبل المغرب. وأحطنا بالوضعية العامة للبلاد. وقد فهم السيد V. Auriol حاجاتنا وكذلك مشاعرنا العميقة. مثل التزامنا في الوضعية الراهنة بالسعي قدما إلى الأمام.

- المقيم العام : لقد حمل السيد V. Auriol ذكريات جميلة عن مقامه في المغرب وإن له فكرا ساميا. وبوسع جلالتكم الاعتماد عليه. ذلك أنه يعرف مطامح الجميع.

- جلالة الملك : لقد حددنا لنفسنا هدفين. من جهة العمل على تطوير المغرب على المستوى الاقتصادي لتمكين الشعب المغربي من تحسين ظروف عيشه والاستفادة من استغلال ثروات البلاد .ومن جهة أخرى. يطمح الشعب المغربي من الناحية السياسية إلى التطور. إن الشعوب ترغب اليوم في التقدم. علينا أن نؤمن للشعب المغربي سبل تحقيق مطامحه المشروعة.

- المقيم العام : في نيتي فحص مطامح الشعب المغربي المشروعة. بروح تفهم واسع. لكن هناك مطامح غير مشروعة.

– جلالة الملك : إن الإنسان العاقل لا يطمح إلا إلى الأمورالمشروعة.

– المقيم العام : إنني أثق في جلالتكم وفي الأمة المغربية كذلك. فهي أمة راشدة وتميز بين الخير والشر.

– جلالة الملك : إننا على يقين تام بأن الحكومة الفرنسية ستساعدنا – بفضلكم – للوصول إلى ما نطمح إليه. وأنكم لن تساعدونا إلا فيما هومشروع.

– المقيم العام : بوسع جلالتكم الاعتماد علي. أنا أتفهم مطامح الشعب المغربي. لكن يجب ألا ننسى أن الصبر هو من أكبر الطاقات البشرية.

– جلالة الملك : لقد تعرفتم على كثير من الدول. قبل الحرب وبعدها واكتسبتم بفضل ذلك تجربة كبيرة في ميدان السياسة الدولية. وفي هذاالمستوى نضع فيكم ثقتنا. وهذا هو أملنا. واعتمادنا عليكم لمساعدتنا.

– المقيم العام : سيكون لي شرف كبير بوضع التجربة التي اكتسبتها في ميدان الأمور الدولية بين يدي جلالتكم خلال المقابلات الموالية التي ستتفضل جلالتكم بتخصيصها لي.

– جلالة الملك : تعلمون أنكم هنا في بيتكم. وسوف تعودون دائما كصديق للإشارة علينا بما هو في مصلحتنا.

– المقيم العام : إن الثقة التي تضع جلالتكم في شخصي ستكون لي تشجيعا ثمينا في أداء المهمة الكبيرة التي تقلدتها .

لا شك أن هذا الحديث المتبادل بين جلالة الملك والمقيم العام لم يكن حديثا عابرا للمجاملة. بل إن كلا من الرجلين اعتبر في أقواله موقفه المبدئي وبرنامجه السياسي.

يجب التذكير هنا بأن تعيين الجنرال جوان في منصب مقيم عام لفرنسا بالمغرب قرار لم يلق أي قبول في بداية الأمر من جلالة الملك. وقد أخبر بذلك السلطات الفرنسية قبل وصول المقيم العام إلى المغرب. ذلك أن جلالته كان على وعي بمايعنيه تعيين هذا الرجل وهذه الشخصية في منصب الإقامة العامة.

فالرجل هو الفونس جوان. وقد عرف المغرب وعرفه منذ سنة 1912. حيث شارك ضابطا في الجيش الفرنسي المحتل للمغرب من سنة 1912 إلى سنة 1914. كما عرف المغرب وعرفه من سنة 1922 إلى سنة 1925 حيث قاد عمليات القضاء على المقاومة المغربية المسلحة في الأطلس الكبير والمتوسط والريف. ثم من سنة 1929 إلى سنة 1939حيث عين رئيسا للديوان العسكري للمقيم العام. والرجل بطل من أبطال الحرب العالمية الثانية. أسره الألمانيون. ثم أفرج عنه وعين قائدا عاما لجيوش إفريقيا الشمالية سنة 1941. وانضم إلى جيش الحلفاء النازل في شمال إفريقيا ورقي إلى رتبة جنرال سنة 1942. وكان على رأس القوات الحليفة الداخلة إلى تونس ثم إلى إيطاليا. وقد عين سنة 1944 قائدا لأركان الحرب في وزارة الدفاع الفرنسي.

فهو بهذه الصفات رمز للعسكري الفرنسي الذي «هدأ» المغرب. وللعسكري الفرنسي المنتصر في الحرب العالمية الثانية. هو رمز إذن للوجود الفرنسي في المغرب. ووقوع اختيار الحكومة الفرنسية عليه كان لكل هذه الاعتبارات. وأكد بنفسه هذا الحكم عندما صرح بعد تعيينه قائلا : "لم أكن مرشحا لهذا المنصب. إلا أن البعض احتج بكوني من أصل إفريقي. فلم يعد بوسعي حينئذ التملص من المهمة التي أوكلتها بي حكومة الجمهورية "

وقد عبر جلالة الملك عند استقباله للجنرال جوان في قصره بالدار البيضاء يوم 1947.5.27 عن موقفه من تعيين الجنرال بأسلوب رمزي حينما قال له :

"لن أرحب بكم !فلا يرحب بالمرء في بيته. وأنتم هنا في بيتكم. فقد ولدتم بالمغرب. وتعرفونه لما قمتم به فيه من مهمات". فجملة المجاملة والملاطفة المتمثلة في أن المرء لا يرحب به في بيته لا تكاد تطمس عدم الرغبة عند جلالته في وجود الجنرال جوان في المغرب. التي تعبر عنها بداية كلام جلالته. والجملة الأخيرة تفسر الموقف الأول. فالمغرب يعرف الجنرال جوان. ويعرف أن تعيينه إنما كان بنية وقف مسار التطور الذي بدأه المغرب بقيادة ملكه منذ سنة 1944بتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في يناير من العام المذكور. وأكده خطاب جلالته في طنجة يوم 9 أبريل 1947.

وقد عنونت مجلة Le Figaro في عدد 13-1947.4.18 بالخط الكبير: "سلطان المغرب يلقي في طنجة خطابا وطنيا" وأوردت فقرات من خطاب جلالته لتختم قائلة :"فهو خطاب تطبعه روح وطنية. وهو بذلك يشكل حدثا مهما جدا في الظروف الراهنة".

هذه هي الظروف التي اختير فيها الجنرال جوان ليمثل فرنسا في المغرب. وليطبق سياستها فيه. فما هي هذه السياسة ؟

– أولا : اعتبار عقد الحماية عقدا مشروعا ملزما للمغرب. ومحاولة استغلال كل ما يقدم من إصلاحات فرضت على المغرب بالقوة سنة 1912 لتتبيث الوجود الفرنسي.

– ثانيا : توجيه المغرب وجهةغربية بإبعاده عن تطلعاته العربية وإلحاقه بالركب الفرنسي إعدادا لإدماجه في ما كان يسمى بالاتحاد الفرنسي.

- ثالثا : تأكيد الوجود الفرنسي الدائم في المغرب عن طريق إقرار نظام احترام السلطة الفرنسية والتقرب إلى بعض الفئات المتعاملة لنسف الحركة الوطنية المطالبة بالاستقلال.

- رابعا : التلويح بإجراء إصلاحات شكلية في المغرب لإغراء الرأي العام المحلي والدولي. دون أن تؤثر تلك الإصلاحات على الوجود الفرنسي في المغرب ولا على الفوائد المادية التي تجنيها فرنسا من ذلك الوجود.

في هذا الإطار إذن كانت المواجهة بين المغرب ممثلا في ملكه محمد الخامس وبين فرنسا ممثلة في شخص مقيمها العام الجنرال جوان. وإن تفاصيل الكلمات التي دارت بين الرجلين لكافية لتوضح هذه المواجهة. فمن حيث أسلوب المقاربة. يظهر من كلام جلالة الملك أنه لا ينوي قطع الصلات مع فرنسا. بل ينوي الحصول على اعتراف فرنسا باستقلال المغرب. مع الاعتماد على صداقة نزيهة وشريفة مع فرنسا لتمكين الشعب المغربي من الحصول على الوسائل التي تضمنها التكنولوجية العصرية التي تتوفر عليها فرنسا لتسهيل عملية نهضته وتقدمه. ويظهر هذا الاقتراب من خلال تركيز جلالته على كلمة الصداقة في خطابه للجنرال جوان. فيؤكد أن علاقة الصداقة التي تربطه بالجنرال جوان هي رمز لما يمكن أن تكون عليه علاقة فرنسا بالمغرب. ويشير إلى العلاقة الطيبة التي تربطه برئيس الجمهورية الفرنسية V.Auriol وكلمة الصداقة وردت في عدة مقاطع من الكلمات المتبادلة بين محمد الخامس والجنرال جوان ويتجاوز جلالة الملك العلاقات الشخصية، للتذكير بالدور الذي لعبه المغاربة في الحرب العالمية الثانية بجانب فرنسا وحلفائها. فقد جاء في كلمة الشكر التي خاطب بها الجنرال جوان جلالة الملك في الدار البيضاء بأنه فخور بكونه قاد الجنود المغاربة في عمليات تحرير أوربا من الوجود النازي .وجاء في جواب جلالة الملك في

نفس المقابلة أن الجنود المغاربة كانوا. وهم يحاربون في صف لدول الحليفة. واعين بواجبهم وبسمو المهمة التي كلفوا بها. وبأنهم حازوا الفخر والشرف في ميادين القتال وختم جلالته قائلا : "لقد أدوا واجبهم. وهذا ما يغمر قلوبنا بأحاسيس الفخر والامتنان"

إن الإلحاح على دور الجنود المغاربة في الحرب العالمية الثانية. سواء في مقابلة يوم 27-5-1947 بالدار البيضاء. أو مقابلة يوم 2-5-1947 بالرباط. إلحاح يجعلنا على يقين من التوجيه الذي أراده جلالة الملك لهذه المسألة. فموقف المغاربة من مشاكل الحرب العالمية الثانية كان واضحا قائما على عدة مبادىء. أولها. عدم التنكر لفرنسا في وقت شدتها ومساعدتها على التخلص من الغزاة النازيين. وثانيها اعتبار العمل النازي منافيا للمبادىء والمثل الإنسانية، والوقوف في وجه هذا الاتجاه إذن منطلق من الإحساس بالواجب الإنساني للوقوف في وجه أي عمل دكتاتوري عنصري. وثالثها اعتبار ضرورة الانسجام في المواقف الدولية. فإذا كانت الدول الحليفة تحمل في حربها ضد الألمان شعار الحرية والديموقراطية. فإن هذا الشعار ملزم لها في كل بقاع العالم. والعمل وفق هذا المبدأ يعني ضرورة تخليص المغرب. وسائر المستعمرات. من وجود قوى أجنبية فوق ترابه. ومنحه حق التصرف بالحرية التي تدعو إليها كل الدول الحليفة.

وقد التزم جلالة الملك بهذه المبادىء في حديثه مع الرئيس روزفلت في يناير 1943 في مؤتمر الدار البيضاء. واعتبر هذا الالتزام من طرفه موقفا من رئيس دولة له حرية اتخاذ المواقف في المحافل الدولية دون استشارة سلطات الحماية. وكل هذه التلميحات للجنرال جوان من قبل جلالة الملك تأكيد لموقف مبدئي لدى جلالته.

وفي مستوى ثالث، ألح جلالة الملك على أن من حق المغاربة تحقيق هدفين : التطور الاقتصادي والاجتماعي المؤدي إلى استغلال المغاربة

لخيراتهم والاستفادة منها، والتطور السياسي المؤدي إلى تحقيق مطامح الشعب المغربي. وهذه الأفكار تعبر عن حتمية تاريخية تضمن لكل الشعوب الحق في الوصول إلى العيش الحر الآمن. ولقد بين جلالته للجنرال جوان هذه الحتمية عندما ذكره بأنه تعرف على كثير من الدول. وأنه «اكتسب بفضل ذلك تجربة كبيرة في ميدان السياسة الدولية».

ولا نفهم من هذا إلا أن جلالة الملك يشير إلى التيار التحرري العام الذي شهده العالم عقب الحرب العالمية الثانية. ويكفي أن نشير هنا على سبيل المثال إلى ما كانت تعرفه دول الصين والهند وكثير من دول آسيا القصوى من تطورات. وما كانت تعرفه الجزائر وتونس في نفس الإبان من تطورات. إن موقف المغرب إذن. وهو الموقف الذي يلمح له جلالة الملك موقف طبيعي في مسار تاريخي حتمي يؤدي لا محالة إلى تحرير الشعوب المستعمرة.

أما موقف الجنرال جوان فهو ينبني على منطلق واحد أساسي. هو المحافظة على ارتباط المغرب بفرنسا. ويكون هذا الارتباط قائما على ما يسميه بـ « النظام – L'ordre» فقد جاء في تصريحه للصحافة قبيل مغادرته لفرنسا يوم 1947/5/25 أن الإصلاحات التي يعتزم القيام بها في المغرب ستتحقق " في إطار النظام" وكرر نفس اللفظة في كلمته الرسمية أمام جلالة الملك في المقابلة التي جرت في القصر الملكي بالرباط يوم 1947/5/28 حينما أشار إلى أن مهمته في المغرب ستتم "في جو النظام والسلم".

ومفهوم "النظام" عند جوان مرتبط بمفهوم "المشروعية" ويوصلان معا إلى القول بإبقاء ما كان على ما كان. وهذا الذي كان هو اتفاقية الحماية. وقد بين الجنرال جوان هذا الموقف في خطاب ألقاه يوم 30 يونيه 1948 جاء فيه :"إن هناك معاهدة قد أمضيت هنا بين البلدين. وهذه المعاهدة يجب أن تحترم. لأنها لا تزال قائمة. وهي تلزمنا بالقيام

بمهمة الإصلاحات والسير بالمغرب نحو التقدم الاجتماعي والمادي [..] والحماية – كما قلت وكررت ولا أخاف أن أرددها -شكل قانوني يجب أن يتطور في هدوء وحذر وحكمة. وأن ينجز في إطار النظام [..] إن الحماية ليست إلا شكلا قانونيا طبق على المغرب في وقت كان فيه مليئا بالفوضى. لكن يلزم أن تتحول شيئا فشيئا إلى عمل اجتماعي وإنساني [..] وللوصول إلى هذه الغاية يجب تحقيق الإصلاح الذي نختص نحن باقتراحه".

في هذا الإطار يجب وضع موقف جلالة الملك في كلمته إلى المقيم العام. فهو واضح مؤمن بضرورة تطور الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للمغرب، تطورا يؤدي في النهاية إلى تحقيق مطامح المغاربة المشروعة. ولا يمكن أن تكون تلك المطالب سوى الحصول على الاستقلال. وإن اتخاذ هذا الموقف في هذا الظرف، وإزاء رجل هذه صفاته ومخططاته، يدل بما لا مزيد عليه، على إيمان الرجل القوي بشرعية قضيته وقضية كل المغاربة. ولا يسعنا في الأخير إلا أن نسجل هذا الموقف الشجاع في وقت كانت فيه وضعية المغرب لا تسمح باتخاذ هذه المواقف.

مرسى أسفي في العصر الحديث*

1 - المدينة :

أ – السور :

يرجع جلاء البرتغاليين عن أسفي، بعد حصار الشرفاء السعديين وتضييقهم عليهم بها، إلى صيف 1541 (1541/10/31-20). وقد عمل المحتل على تخريب جزء مهم من مرافق المدينة . وقد احتفظت أسفي بالسور الذي بناه البرتغاليون بعيد احتلالهم لها حوالي سنة 1507. وقد بني هذا السور على مسافة 1327 باعا (طول الباع حوالي 2,20مترا) أي حوالي 3 كلمترات .كما اتخذ عليه عدد من الأبراج بلغ عددها 87 برجا[1].

ب – السكان :

زار الحسن الوزان أسفي سنة 1550. وذكر أن عدد سكانها حوالي 4000 كانون (أي ما يقارب 20 ألف نسمة)، وذكر أنها

*-بحث قدم في الملتقى الفكري الأول لمدينة أسفي أيام8-10 ذي القعدة 1408(23-25 يونيه 1988)

(1)-Valentim Fernandes : Description de la côte d'Afrique de Ceuta - au Sénégal , Traduit par: P. de Cenival et Th . Monod. Paris, 1938,p:35

كثيرة السكان[2]. وقبيل الاحتلال البرتغالي لم يكن عدد السكان يزيد عن 3 آلاف نسمة[3] بعد أن عرفت حوالي 1507 اضطرابات كثيرة، وهجرها كثير من التجار والصناع[4] وبلغ تعسف أول قائد برتغالي بها حدا جعل منها مدينة خالية مدة سنة ونصف (1508-1509). وبعد تحريرها، ظلت المدينة خالية مهجورة مدة اثنى عشرة سنة إلى أن بدأت في استعادة بعض سكانها، بعد أن أمر السلطان محمد الشيخ السعدي بتعميرها[5].

ج - المرسى :

لا تتوفر المدينة على ميناء، وكانت السفن تستعمل المرسى المشرف على المدينة.وكان عليها أن تحتاط، لأن "الساحل غير مضياف، ويجب على المراكب أن تحتاط من الريح الغربية"[6] وقد سجلت بعض الحوادث الناتجة عن تخريب سفن راسية بسبب قوة الرياح . ومع ذلك فقد استعمل المرسى باستمرار.

2- الحركة التجارية :

ترتبط أهمية تجارة المدينة بموقعها في مركز دائرة تربط الصويرة ومراكش والجديدة، حيث لا يوجد داخل إطار هذه الدائرة أي مركز يمكن أن ينافسها . وبالنظرلأهمية مراكش كعاصمة وكمركز تجاري دولي، فإن أسفي لعبت طوال هذه المرحلة دورا حيويا في التجارة الخارجية المغربية .تظهر المدينة في مطلع القرن 16م كمركز تجاري

(2) الحسن الوزان ، وصف افريقيا ، ترجمة م . حجي وم الأخضر ص 147.
(3) V. Fernandes : Description . p : 35
(4) Lettre de lopes à Emmanuel 1er . Safi . le 25/ 12/1507, In: SIHM.Portugal . T:I, p : 147

(5) أحمد بوشرب ، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور . الدارالبيضاء، 1984

(6) R. Ricard : la côte atlantique du Maroc au début du XVe siècle, d'après les instructions nautiques portugaises . In: Hesp 1927. Vol VII . 2° trimestre . p : 247

نشيط، يتحكم اقتصاديا في القرى والبوادي المجاورة له . تزوده بالحبوب والشمع والزبد والمنتوجات والجلود[7] واعتبرت منطقة أسفي من أغنى المناطق حبوبا "يتوفر سكانها على كثير من القمح يخزنونه في مطامير ويحتفظون به طويلا دون أن يصيبه السوس"[8] كما كان بالمدينة عدد من التجار اليهود بلغ عددهم حوالي 400 أسرة، اختص بعضهم في تجارة الذهب والفضة[9]. وقد توصلت الوكالة التجارية البرتغالية بكميات كبيرة من الذهب، بلغت بين 1498/2/15 و 1500/9/30 ما مقداره 79,886 دوبرا (أودبلون)[10]. واشتهرت المدينة بالأخص بنسج الصوف أكسية وحياكا وحنابل . وقد توصل الوسيط البرتغالي في أسفي بين يوليوز 1495 وفبراير 1498ب 587 حنبلا و 15 حنبلا مطرزا.وابتداء من سنة 1507 بدأ البرتغاليون في إنشاء دور لصنع الحنابل في أسفي، وأسندت إدارتها إلى اليهوديين ماييرليفي ويهودا بن زميرو الذين باعا سنة 1514، 2000 حايك[11]. وكانت هذه الصناعة تغذي حركة تجارية مع البلاد الإفريقية، وكان بعض المغاربة يساهمون فيها، حيث سجلت الوثائق حصول القائد عبد الرحمن سنة 1500 على ترخيص لوسق سفينة بالمنسوجات إلى أركين كل سنة . وهكذا أصبحت أسفي المزود الأساسي لتجارة البرتغال مع إفريقيا السوداء، تصدر منها الحبوب والخيول والشمع والجلود والمنتوجات والنيلة والصمغ، وتسوق منها المنسوجات والصمغ[12] كما كانت المدينة تتوصل ببضائع من مختلف الأصول والدول، نذكر منها على سبيل المثال المنسوجات الإيرلندية والهولندية والبردات المصرية التي كانت أسفي تتوصل منها بما متوسطه

(7) Damiao de Goïs . les portugais au Maroc de 1495 à 1521, Traduit par R. Ricard,Rabat 1937, p: 28
(8) V. Fernandes, Description. p. 37.
(9) D; Coïs, p. 28.
(10) Godinho (M.V), l'économie de l'empire portugais . Paris, 1965. p:130
(11) R. Ricard . Etudes sur l'histoire des portugais Au Maroc . p: 86

(12) بوشرب ، دكالة ، 49.

2000 لفة كل سنة . وتفسر هذه الأهمية التجارية إلحاح البرتغاليين في احتلال أسفي، حيث استغلوا ما أشعلوه من نار الفتنة بين سكان المدينة سنة 1507، "فلم ينتبه السكان إلى الأشغال الجارية [..] حيث تم فتح ثغرة في السور وتم تحصين المركز التجاري وبدأ بناء الحصن [..] وأصبحت المدينة تعرف ببلاد النصارى»[13] ويمكن القول أن النشاط التجاري خلال فترة الاحتلال البرتغالي لأسفي تميز بامتصاص خيرات المنطقة في 3 اتجاهات : الأول تصدير الحبوب والمواد الغذائية نحو البرتغال والمستعمرات البرتغالية في المغرب وخارجه، والثاني في اتجاه افريقيا السوداء، بتصدير المواد الضرورية للتعامل مع القبائل الزنجية التي تعودت المنتوجات المغربية في تعاملها، للتمكن من جلب السلع الافريقية، وبالأخص منها الذهب .بينما يهتم الاتجاه الثالث بإغراق الأسواق المغربية بالمنتوجات الأوربية بالأخص، لجلب الذهب والفضة نحو المركز المحتل . وسوف تدخل أنشطة مرسى أسفي بعد تحريرها في إطار جديد . فابتداء من سنة 1542 بدأت المدينة تتوصل بكميات من الأسلحة لتجهيز الجيش السعدي.وفي هذه السنة زود التاجر اليهودي يعقوب روت السعديين بألف من عصي الرماح.وفي سنة 1552، وصلت سفن إنجليزية إلى أسفي محملة بكميات من الرماح والحديد وألفين من عصى الرماح وسيوفا، ونقلت هذه الأسلحة إلى مراكش علي ظهر 36 جملا و5 بغال .

وهكذا بدأت هذه التجارة تجتذب عددا من التجار الأروبيين، وغدت أسفي المزود الرئيسي لمراكش، في باب الأسلحة والسلع الأوربية عامة . ولاحظت السلطات البرتغالية في البريجة أن تجارة تهريب الأسلحة مزدهرة بكثرة في أسفي[14] وتغير نوع البضائع المتعامل بها مع استقرار

(13) Lettre de di Azambuja à Emmanuel 1er . le 13/12/1507 . In SIHM, Port .T:I, p : 139.
(14) Lettre de V. Riscado à Jean III. le 28/4/1553, Idem. T:V p : 11.

الأمـور واستتباب سلطة السعديين .وأخـذ هـذا النشـاط مـن الحـدة مـا اقتضـى التعـامل بسـندات القـرض، يقدم مثالها السند الذي سلمه تاجر يهودي للمبعوث الإنجليزي A.SHERLEY سنة 1605 يتمكـن بمقتضاه من الحصول على مبلغ من المال في مراكش مقابل عمولة نسبتها 60%.

ووصف الرحالة الفرنسي J.Moquet أسـفي بأنها «مدينة صغيرة [..] لهـا مرسـى [..] يسـكنها جميـع أصناف الناس، من مسلمين ومسيحيين، وبها ديوانه»[15].

ومـن أمثلـة هـذا النشـاط، معاملات تاجر إنجليزي، راسل السلطان المنصـور الملكـة إلـيزابيت في شأنه، وأعلمها في مراسلته بأنه أذن له في اقتناء مايحلو له من سلع في أسفي[16].

وكـان السـكرمن بـين السلع المهمة في تجارة أسفي.و كانت السفن الأوربية تعيد بيعه في أسفي.فقد باع تاجر هولندي سنة 1606 حوالي 23 ألـف أوقيـة (أونـس ويسـاوي حوالـي 33 غـرام - فتكـون حمولـة السلعة حوالي 759 كيلوغراما) .كما باع مركب إنجليزي 150 صندوقـا من السكـر (متوسـط وزن الصنـدوق 136 كلـغ)، وبـاع ثالـث كميـات من القمح[17].

وهـذه العمليـات تدخـل في إطار عمليات القرصنة التي بدأ نشاطها يزدهـر فـي هذه الفترة.وتبدو أهمية التجارة الأوربية في أسفي من وجود وسيط تجاري هولندي بها هو David de Weert. وتشـهد السـنة المذكـورة بالأضافة إلى ماذكر وصول بضائع مختلفة من فرنسا وهولندا وإنجلترا .

---

(15) Voyage de J.Moquet (1601-1607) Idem, France, T: II p : 415.

(16) رسالة من أحمد المنصور إلى الملكة إليزابيث بتاريخ 13 محرم 1011 (1602:7:3).

(17) Lettre de P.M Coy aux Etats Généraux, le 21.6. 1606 In: SHIM . PB,T:I, p :152.

وبعد وفاة أحمد المنصور، حاول أبناؤه الاتصال بأوربا للتزود بالأسلحة أو الحصول على المساعدة.وهكذا نسجل وصول سفينتين هولنديتين إلى أسفي محملتين ببضائع مختلفة سبق للسلطان مولاي بو فارس اقتناؤها منها[18].

كما رست في أسفي سنة 1613سفينتان من ألمانيا و 6سفن إنجليزية .كما وصلت إلى هذا المرسى سفينة فرنسية محملة بالبراميل وأخرى محملة بالسكر، اتجهت منها إلى أكادير[19] وبلغ من تعدد التجار المسيحيين في أسفي أن اتخذوا لهم دارا خاصة للسكنى والتعامل[20].

وقد زادت أهمية المرسى عندما التجأ إليها السلطان مولاي زيدان، واستقبل فيها سنة 1616 مركبا هولندايا استعمله لنقل سفيره إلى القسطنطينة في نفس السنة[21] و شهدت هذه المنطقة مشكلة خطيرة هي المعروفة بقضية كاستيلانو. وقد نتج عن هذه القضية توتر العلاقة بين فرنسا والمغرب، فالتجأ التجار الأوربيون عامة إلى أسفي فارين من مراكش حوالي سنة 1618. وكان بالمدينة في هذا التاريخ دار تجارية فرنسية هي دار Le Gendre. لكن هذه الأزمة لم تطل، وأخبر مولاي زيدان حلفاءه الهولنديين بأن أسفي "كما لايخفاكم مثوى لورود السفن عليه من كل ناحية "[22] ومن أمثلة ذلك، وصول سفينة باعت حمولة من الورق والكتب بقيمة 1500 دوقة، وأخرى باعت 500 صندوق من السكر. كما اهتم التجار الهولنديون بأسفي، وطلبوا من السلطان الإذن في شراء حاجاتهم من الماء والمؤن مقابل نقود. كما أنزلوا بها قدرين لتصفية البارود[23].

(18) رسالة من السلطان مولاي بو فارس إلى الولايات العامة ، أواسط ربيع II 1018 (أواسط يوليوز 1607)

(19) Lettre de Quast aux Etats Généraux , le 30/9/1613, In SIHM, PB,T : II, p : 197
(20) Requête de F. Laurensz aux Etats Généraux le 26/11/1615,In SIHM, PB, T:II p : 613.
(21) Lettre de Moulay Zidan aux Etats Généraux le 20/11/1616, In:SIHM,PB,T:III, p : 474
(22) Lettre de Moulay Zidan aux E.G, le 4/6/1623, In: SIHM, PB, T: III, p : 250.
(23) Lettre de A. Ruyl à Moulay Zidan Le 12 /11/ 1623 . Ibidem, p: 436.

وبلـغ مـن اهتمام السلطان زيدان بأسفي أن بعث إليها سنة 1624 حاميـة مكونـة مـن مائـة رجل تحت قيادة القائد الزعروري، وكانت مهمة هذا القائد توطيد الأمن في المنطقة وتثبيت سلطة زيدان في المدينة .

وقـد تبين للأوربيين عامة مدى أهمية المرسى بالنسبة للمنطقة كلها، فحصلـت هولنـدا علـى حـق تصديـر ملـح البارود سنة 1627[24] وبعثـت فرنسا مبعوثا اسمه Razilly، فوصـل إلى أسفي، واستقبله قائدها ورافقه إلى مراكش[25].

وغـدت أسـفي بذلـك عاصمـة أقـاليم الجنـوب، والمحتكـرة للتجارة الأوربيـة في جنوب المغرب[26] وقـد أثـارت هـذه الأهميـة اهتمـام فرنسـا وأطماعهـا فحـاولت احتـلال أسـفي وموقع الصويرة والوليدية.كما أثارت اهتمـام انجلـترا، فعملـت علـى الحصـول علـى إذن مـن السلطان للتجار الإنجلـيز باسـتعمال مرسـى أسـفي، وورد هـذا الإذن فـي نص الاتفاقية المغربية الإنجليزية لسنة 1631[27] ولا نـرى كيـف يمكـن أن تكون أسفي، مـع هـذا النشـاط، «مدينـة شـبه ميتة، [..] يعيش فيها حوالي 800 مائـة سـاكن ربعهم من اليهود، رغم [..] إرساء التجار الهولنديين والإنجليز بها وقيامهم بعمليات تجارية مهمة»[28].

نجـح الإنجلـيز فـي احتكار التجارة في أسفي، حيث أجر السلطان محمـد الشـيخ الأصغـر مداخيل أسفي لتاجر إنجليزي هوRobert Blake سنة 1636، وحـاول تركـيز كل التجارة الأوربية فيها. وقد استدعى اتخاذ الترتيبـات اللازمـة لتنفيـذ الاتفـاق توجيـه سـفارة مغربية إلى ابريطانيا،

(24) Résolution des Etas Généraux le 29 /11/1627, In SIHM, PB, T : IV, p : 197.

(25)رسالة من السلطان الوليد بن زيدان إلى لويس XIII بتاريخ 26 ربيع I (1630/2/14)

(26) Mémoire sur le Maroc 1631,In: SIHM, France ,T:III, p:356

(27) Traité de 1631, In SIHM, Ang. T: III, p : 174

(28)بوشرب . دكالة ، 380

أسفرت عن إصدار المجلس الاستشاري البريطاني قرارا يلزم السفن الإنجليزية بأن ترسو في أسفي أول ماتصل إلى السواحل المغربية، وأن تقضي بالمرسى المذكور 20 يوما، فإذا لم تنفذ بضائعها، كان من حقها استعمال مراسي أخرى[29]. لكن محاولة الإنجليز احتكارالتجارة بأسفي انتهت بالفشل، وعادت الدول الأوربية البحرية إلى التعامل مع أسفي، منها هولندا التي كان يمثل مصالحها في المدينة القنصل Liedkirk أواخر سنة 1641. وفي هذه الفترة وصل إلى المدينة التاجر الهولندي Adriaem Matham، وترك في مذكراته وصفا دقيقا لمعاملاته في أسفي، جاء فيها :

"في يوم 24شتنبر وصلنا إلى مرسى أسفي وقد قدم إلينا سبعة مغاربة بمراكبهم للمتاجرة معنا . وطلبوا بالأخص قبعات حمراء .لكن لم يتفقوا في البداية مع أصحابنا، وقد أظهر لهم سفيرنا رسالة موجهة إلى قائد أسفي كانوا يطلبون فيها السماح لهم بالتزود بالماء والمواد الغذائية من المدينة.وقد وعدنا المغاربة بالرد في الغد .

في يوم 25 شتنبر رجع إلينا المغاربة المذكورون مع بعض اليهود حوالي منتصف النهار حاملين خروفين وبعض الدجاج والفجل واللفت وخبزا جيدا .وقد بعث كل هذا من طرف قائد المدينة إلى السفير مع تحياته الودية. وحمل هؤلاء المغاربة أيضا بيضا وتمرا للبيع أو للتبادل لكن لم نتفق على الثمن فعادوا بها. وقد كافأهم السفير على تعبهم.

وفي يوم 28 شتنبر قضى رفقاؤنا يومين بأسفي وعادوا رفقة مغاربة في مركب يحملون كل أنواع المأكولات، من بينها عجلان باعوهما للسفير ب Florins 15، وبعض الحجلات السمينة وحملوا أيضا الخبز وبعض الدجاج وخمرا جيدة وجديا طيبا ولأول مرة تبادلوا معنا بعض السلع مقابل مرايا وسكاكين .

(29) Ordre du Conseil, le 5/2/1640 ,In SIHM, Ang ,T:III ,p : 538

وقد حملت من أسفي عدة سلع وهي حمولة مهمة من الحنطة وكمية من الشمع الأصفر، وفرسين وسبعة صقور" [30].

وقام تاجر هولندي آخر هو Ruyter بعمليات كثيرة في أسفي حوالي 1644، وتذمر لوجود عدد من السفن الإنجليزية، معتبرا أن ذلك ليس في صالح التجارة الهولندية[31].

عرفت مدينة أسفي سنة 1651/1062 أزمة خطيرة نتيجة وباء ومجاعة.وقد حاول السلطان تقديم مساعدة للمدينة حيث خص أهلها بجراية شهرية دون جدوى، حيث ما أن توقف توصلها بالمساعدة حتى غادر المدينة من بقي فيها، ومات عدد من السكان و «لم يبق من يتكفل بدفن الأموات [..] وبقيت البلاد خالية لا اثنين بها، والقرى الخارجة عن البلد لاعمارة بها»[32] وقد ترك الرحالة الفرنسي Le Gendre، وصفا لأسفي، وذكر أنه لم يبق بها أي تاجر فرنسي[33].

ويدخل في تفسير هذا التدهور ازدهار التجارة في سلا وتطوان، الناتج عن بداية استقرار الشرفاء العلويين في الحكم، واهتمامهم في بداية أمرهم بمراسي الشمال .

(30) Journal d'A. Matham . 1640-1641 In:SIHM, PB, T:IV, p : 584.
(31) Journal du"Salamandre" le 9/8/1644 In SIHM. PB . T:V, p 579.
(32) بوشرب – دكالة ، 380
(33) Relation de Th . Le Gendre 1665 , In:SIHM, Fr, T:III, p : 706 .

بين الجبرتي والناصري*

تعني المقارنة بين المؤرخين تبيين أوجه الشبه ومظاهر الاختلاف بينهما. وإذا كان عرض الدكتور محمد حجي قد وقف على أوجه الشبه بين الجبرتي والناصري، فإن مقارنة متعمقة تبين أن هناك فروقا بينهما في كيفية تناولهما لعملية التأريخ.

أولا : الرجلان

1- ولد عبد الرحمن[1] بن الحسن الجبرتي بالقاهرة سنة 1754/1167. وتلقى تعليمه بالأزهر، ثم انتصب للتدريس وشغل منصب كاتب في ديوان القاهرة إلى وفاته فيما يظهر، سنة 1822/1237.

من مؤلفاته : - عجائب الآثار في التراجم والأخبار

- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس

* عرض ألقي في ندوة "العلاقات التاريخية المغربية المصرية :رصيد وآفاق "التي نظمتها جمعية إبي رقراق، أيام 18و 19و 20يوليوز 1988، وصدرت عن دار الثقافة للطباعة والنشر، 1989

(1) سماه خليل مردم بك، عبد الله، انظر : أعيان القرن الثالث عشر في الفكر والسياسة والاجتماع، ط : 1971-ص 144

- دستور تقويم الكواكب السبعة

- مختصر تذكرة داود الأنطاكي

فالرجل إذن رجل سياسة وعالم مشارك[2].

2 - ولد أحمد بن خالد الناصري السلاوي بسلا سنة 1835/1250. تلقى تكوينه العلمي في مسقط رأسه، ثم شغل عدة مناصب إدارية وتجول في كثير من مدن المغرب، ثم تفرغ للتأليف، إلى وفاته سنة 1897/1315.

من مؤلفاته :

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى

وله مؤلفات أخرى كثيرة في عدد من الفنون[3]. فالرجلان إذن قريبان من بعضهما في تكوينهما واهتماماتهما. غير أن فترة زمنية مهمة تفصل بينهما، ويكون لهذا الفارق في الزمان أثره على منهجهما في التأريخ.

ثانيا : المؤلفان

1 - دواعي التأليف :

اتخذ كل من الجبرتي والناصري تقديما تمهيديا للتأليف، أصرا فيه معا على تحديد أهمية عملهما المعرفية، وأوضحا فيه "شرعية" العمل

(2) ترجم للجبرتي : البغدادي، هدية العارفين، 5: 556-رضا كحالة، معجم المؤلفين 3: 133، خليل مردم، أعيان القرن الثالث عشر، 144-علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة -ط 3- بيروت 1980

(3) ترجم للناصري كثيرون، وأوسع ترجماته هي الواردة في مقدمة كتابه المذكور، وضمنها لائحة مؤلفاته

الذي ينويان إنجازه، وقد قصر الناصري هذا الهدف على عمومياته، فوجد للتاريخ سنده في القرآن والسنة وعمل الصحابة، وخلص إلى أن معرفة التاريخ واردة، سواء على مستوى العبرة، أو على مستوى إفادة الفقيه، مناقشا خلال ذلك مقولة "التاريخ علم لا ينفع، وجهالة لا تضر" ليخلص إلى أن التاريخ في عمومه مفيد.

وسار الجبرتي نفس السيرة، والتزم بنفس النسق، فوجد للتاريخ شرعيته في الإسلام، وأن ثمرته هي الاعتبار. وانفرد بتحديد هدف التأليف الخاص، فذكر أن تاريخ مصر يصعب التوصل إليه، بعد أن ضاع كثير مما ألف فيه، وبعد أن سف مستوى التأليف في عهده. فالرجلان إذن، ورغم الفاصل الزماني بينهما، يتحركان في إطار نسق فكري واحد، يعمل في سبيل تحقيق معرفة مشروعة، كعلم من العلوم الإسلامية، وهادفة إلى الاعتبار بأحوال الماضين من الناس والملوك.

2 – وسائل البحث

يعتمد الجبرتي في مادته على ثلاثة أنواع من المصادر :

– شهادته الشخصية ؛ وهي ما سماه : محن أدركناها وأمور شاهدناها.

– رواية عن غيره ؛ وهي ما سماه : سوابق سمعتها من أفواه المشيخة وتلقيتها

– وثائق ؛ وهي تراجم لبعض الأعيان من الأمراء والعلماء.

أما الناصري، فمادته أغنى وأكثر تنوعا :

– مصادر تاريخية سابقة، وهي تغطى تاريخ الإسلام وتاريخ المغرب، ومن ضمنها مصادر أوربية،

– وثائق مثل الرسائل المخزنية والفتاوي والخطب المراسلات والأشعار،

- مشاهداته ومواقفه بالنسبة للفترة التي عاصرها.

3 - المنهاج

عنون الجبرتي كتابه بعجائب الآثار في التراجم والأخبار، وعنوانه إذن رشح لمحتوى الوعاء، يقصد منه إيراد " عجائب " على غرار جامع باقة أخبار لا يربط بينها سوى ارتباطها بمصر، ثم عرض هذه الباقة عرضا مطولا لا يخلو من ثقل، فالكتاب يذكر حوادث مصر من سنة 1690/1100 إلى سنة 1821/1236، أي على مدى 136 سنة، جاءت في 1943 صفحة[4] مما يعني أنه يخصص في المتوسط 14صفحة لكل سنة، فيذكر الأحداث الكبرى في السنة، متتبعا ذلك بالشهر واليوم، مستطردا بإيراد تراجم بعض من يذكر من العلماء والحكام. ويتم ذلك بكيفية يغيب فيها بشكل مطلق موقفه ككاتب، فلا يناقش ولا يتخذ موقفا.

واعتبارا لذلك، يمكن القول أن كتاب الجبرتي أقرب في منهجه وصيغته إلى كتب الحوليات التقليدية، ككتاب الطبري مثلا، ويؤرخ، من حيث تطور علم التاريخ عند العرب، لاستمرار المنهاج التقليدي العتيق.

أما مشروع الناصري، فيتضح من عنوان كتابه، فهو مشروع استقصاء تام لتاريخ المغرب الأقصى. انبثقت فكرته حينما أكمل كتابه المتعلق بدولة بني مرين كشف العرين في ليوث بني مرين ثم حاول التوسع فيه بما وقف عليه من مصادر في مراكش، فبدأ في تصنيف كتاب عام لتاريخ المغرب[5] وهو بذلك هدف إلى وضع تاريخ عام للمغرب الأقصى، وهو أول عمل من نوعه في تاريخ المغرب، بعد أن اهتمت المؤلفات السابقة بدول أو مدن أو شخصيات. ولا يسعنا إلا أن نضعه

(4) -اعتمدنا طبعة دار الجيل، بيروت، 1978في ثلاثة أجزاء

(5)-ليفي برفنصال، مؤرخو الشرفا، 257.

في إطار وعي بالذات المغربية أواخر القرن 19م، حينما تكالب الأوربيون على المغرب، وضايقوه وضيقوا عليه.

ويعمد الناصري إلى استيفاء إيراد الروايات المختلفة، ثم يقارن بينها ويتبنى واحدة منها بعد إعمال النظر والتأمل، دون أن يهمل ذكر مصدره - إلا في حالات محدودة - ويتخذ مما يذكر من أحداث موقفا، فيصدق ويكذب، ويفضل مصدرا على مصدر، ويختار من المصدر ما ظهر له جدواه.

فهو بالجملة، كتاب يمكن اعتباره أول محاولة لكتابة تاريخ المغرب بمنهاج عصري.

ثالثا : صورة المغرب في تاريخ الجبرتي

ذكرنا قبل أن هدف الجبرتي كان محدودا في الموضوع والمكان، فهو يورد أخبارا، ويقصرها على مصر، وتتخلل العرض مع ذلك إشارات إلى المغرب، يمكن تجميعها من الإطلاع على الصورة التي تتكون عند غير المغربي عن المغرب، من خلال دراسة عجائب الآثار. وتتلخص الإشارات المتعلقة بالمغرب في العجائب في الأمور التالية :

1- تراجم مغربية

تخللت كتاب الجبرتي تراجم أعلام مغاربة هذه قائمة بأسمائهم

- **في الجزء الأول :**
- أبو سالم العياشي (صفحة 115)
- حسن المكناسي (صفحة 119)
- الحسن اليوسي (صفحة 120)

- أحمد الشرقي (صفحة 128)
- محمد الصغير المغربي (صفحة 130)
- محمد بن عبد الرحمن (صفحة 136)
- محمد الشرايبي (صفحة 137)
- أحمد بن محمد الشرايبي (صفحة 289)
- علي بن العربي السقاط (صفحة 383)
- أحمد بن علي السوسي(صفحة 581)

- في الجزء الثاني :

- ابراهيم بن محمد بن محمد الشرايبي (صفحة 118)
- احمد بن عبد السلام (صفحة 122)
- محمد ابن الطالب بن سودة (صفحة 149)

- في الجزء الثالث :

- محمد بن عبد الرحمن اليوسي (صفحة 438)

ويمكن تصنيف هولاء الرجال من حيث نوع نشاطهم إلى فئتين ؛ فئة العلماء وهي الأكثر عددا، وفئة التجار. كما يمكن تصنيفهم من حيث طبيعة صلتهم بمصر إلى فئتين كذلك ؛ فئة المقيمين، وقد خصصت لهم دراسة مستقلة[6]، وفئة الطارئين، وتتمثل في المغاربة الذين رحلوا إلى المشرق للحج أو طلب العلم أو لهما معا. وكانت تربطهم بعلماء مصر علاقات مطردة، مكنت الجبرتي من التأريخ لوفيات كثير منهم ممن توفي بعيدا عن مصر. ونحب هنا أن نشير إلى أن مذكرات الرحالة المغاربة

(6) -عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517-1798) دراسة في تأثير الجاليات المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية . منشورات المجلة التاريخية المغربية الجزائرية، تونس، 1982

تشكل مادة تاريخية مهمة لمصر، حيث تعرف بكثير من جوانب العلاقات الثقافية بين المغرب ومصر، وأن غناها بالمعلومات مفيد جدا للتأريخ لمصر.

2 – أحداث متعلقة بالمغاربة

وردت عند الجبرتي إشارات إلى أحداث كان للمغاربة مشاركة فيها. وهذا جرد بها:

1– واقعة المغاربة في 14شوال 1100(فاتح غشت 1689)

"وفي رابع عشر شوال كانت واقعة المغاربة من أهل تونس وفاس.وذلك أن من عادتهم أن يحملوا كسوة الكعبة التي تحمل كل سنة للبيت الحرام، ويمرون بها في وسط القاهرة، وتحمل المغاربة جانبا منها للتبرك بها، ويضربون كل من رأوه يشرب الدخان في طريق مرورهم. فرأوا رجلا من اتباع مصطفى كتخدا القازدغلي، فكسروا أنبوبته وتشاجروا معه وشجوا رأسه، وكان في مقدمتهم طائفة منهم متسلحون، وزاد التشاجر واتسعت القضية وقام عليهم أهل السوق، وحضر اوده باشة البوابة فقبض على أكثرهم ووضعهم في الحديد وطلع بهم إلى الباشا، وأخبروه بالقضية، فأمر بسجنهم بالعرقانة. فاستمروا حتى سافر الحج من مصر ومات منهم جماعة في السجن ثم أفرج عن باقيهم»[7].

2 – حادثة المغاربة في الأزهر في أوائل جمادي الأولي / 1191 أوائل ماي 1778

"وفيها في أوائل شهر جمادى الأولى، وقعت حادثة في طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر، وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف،

(7) الجبرتي، عجائب، 1: 51

وجحد واضع اليد ذلك والتجأ إلى بعض الأمراء وكتبوا فتوى في شأن ذلك واختلفوا في ثبوت الوقف بالإشاعة، ثم أقاموا الدعاوي في المحكمة وثبت الحق للمغاربة، ووقع بينهم منازعات وعزلوا شيخهم وولوا آخر. وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخا منهم يسمى الشيخ عباس والأمير الملتجيء إليه الخصم يوسف بك. فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير حنق لذلك ونسبهم إلى ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين فطردوا المعينين وشتموهم، وأخبروا الشيخ أحمد الدردير فكتب مراسلة إلى يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعي، وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخرين.فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس.ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع فاجتمعوا في صبحها وأبطلوا الدروس والآذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبة القديمة، وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء. وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت. وبلغ الأمراء ذلك، فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين وأرسل ابراهيم بك من طرفه ابراهيم أغا بيت المال، فلم يأخذ جوابا. وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح الحوانيت. فبلغ مجاوري المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصى والمسلوق وضربوا أتباع الآغا ورجموه بالأحجار فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه فقتل من مجاورى المغاربة ثلاثة أنفار وانجرح منهم كذلك ومن العامة "[8].

(8) الجبرتي، عجائب، 1: 496 –497

3 – واقعة المغاربة في 25رمضان 1202(29يونيه 1788)

"وفي خامس عشرينه، وقع بين طائفة المغاربة الحجاج النازلين بشاطيء النيل ببولاق وبين عسكر القليونجية مقاتلة، وسبب ذلك أن المغاربة نظروا بالقرب منهم جماعة من القليونجية المتقيدين يقيلون اسماعيل بك ومعهم نساء يتعاطون المنكرات الشرعية. فكلمهم المغاربة ونهوهم عن فعل القبيح وخصوصا في مثل هذا الشهر أو أنهم يتباعدون عنهم فضربوا عليهم طبنجات. فثار عليهم المغاربة. فهرب القليونجية إلي مراكبهم، فنط المغاربة خلفهم واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه وذبحوا من ذبحوه ورموه إلى البحر، وقطعوا حبال المراكب ورموا صواريها. وحصلت زعجة في بولاق تلك الليلة، وأغلقوا الدكاكين وقتل من القليونجية نحو العشرين ومن المغاربة دون ذلك. فلما بلغ اسماعيل بك ذلك اغتاظ وأرسل إلى المغاربة يأمرهم بالانتقال من مكانهم فانتقلوا إلى القاهرة، وسكنوا بالخانات. فلما كان ثاني يوم نزل الآغا والوالي وناديا في الأسواق على المغاربة الحجاج بالخروج من المدينة إلى ناحية العادلية ولا يقيموا بالبلد، وكل من آواهم يستأهل ما يجري عليه، فامتنعوا من الخروج وقالوا كيف نخرج إلى العادلية ونموت فيها عطشا. وذهب منهم طائفة إلى اسماعيل كتخدا حسن باشا فأرسل إلى اسماعيل بك بالروضة يترجى عنده فيهم فامتنع ولم يقبل الشفاعة، وحلف أن كل من مكث منهم بعد ثلاثة أيام قتله. فتجمعوا أحزابا واشتروا أسلحة وذهب منهم طائفة إلى الشيخ العروسي والشيخ محمد بن الجوهري فتكلموا مع اسماعيل بك فنادى عليهم بالأمان"[9].

هذه إذن ثلاث حوادث، كان المغاربة أبطالا لها، وإن تحليل هذه النصوص يمكن من تنظيمها بالكيفية التالية :

(9) المصدر نفسه، 2: 55

1 – أبطال الحوادث

تنص الإشارات في الحالات الثلاث على "المغاربة" بشكل عام وتخصصهم الحادثة الأولى فتسميهم أهل تونس وفاس. فالظاهر إذن أن تصنيف المغاربة لم يكن يهم مغاربة المغرب الأقصى، بل يهم كل من وقع غرب مصر. واعتبارا لذلك، يمكن القول أن التصنيف معتمد على مقياس جغرافي وليس على مقياس سلالي أو قبلي. فكل من أتى من الغرب فهو بالنسبة للمصريين مغربي.

2 – مواضيع الحوادث

تدور الحوادث المذكورة حول مواضيع ذات طابع ديني أو أخلاقي/ ديني.

– في الحادثة الأولى، انطلقت المشكلة من استنكار المغاربة شرب المصريين للدخان، وكان للمغاربة – علمائهم وملوكهم – موقف واضح من استعمال التبغ، ملخصه التحريم أو على الأقل الكراهة. وقد أصدرت بعض السلطات قرارات بمنع استعماله في المغرب[10] ويظهر أن المصريين لم يلتزموا بالمنع، وكانت عادة استعمال التبغ منتشرة عند بعض علمائهم[11].

---

(10) انظر عن هذا الموضوع : محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، الفصل 3 من الباب الرابع : استعمال التبغ، 1: 246. ومن الطريف أن بعضهم أورد قولة للشيخ سالم السنهوري " أول من أدخل هذه العشبة الخبيثة أرض مصر، أحمد بن عبد الله الفلالي (ابومحلي) "انظر، الزياني، البستان الظريف، 7.

(11) وصف الاسحاقي في رحلته الحجازية سنة 1143/ 1735مصر فقال «وأن الدخان المسمى بتابغ فلا بأس به عندهم، القاضي بدواته على نابه والعدل قدامه كذلك، وربما طرحه على كتب إن كانت قدامه » رحلة الإسحاقي، 166

- في الحادثة الثانية، انطلق المشكل من اعتراض من له فائدة، في وقف ملك جماعي على الطلبة المغاربة المنقطعين للعلم بالأزهر. ولخص المشكل في عدم التعرض لأهل العلم ومقتضيات الحكم الشرعي.

- في الحادثة الثالثة : انطلق المشكل من استنكار تعاطي بعض النساء للمنكرات قريبا من مضارب الركب المغربي.

3 - أفعال الحوادث :

تنعكس من الروايات المذكورة صورة عنيفة قوامها الضرب والكسر وشج الرأس وحمل السلاح واستعماله وإبطال الدروس و إغلاق الأسواق والصياح والانزعاج واستعمال العصى والرجم بالحجارة والذبح والرمي في البحر وقطع حبال المراكب.

وإن اختزال هذه المعطيات يعطي أن صورة المغربي في كتاب الجبرتي هي صورة المسلم الملتزم بتغييرالمنكر باليد، وهو أقوى الإيمان، ووصول حد استعمال اليد إلى استعمال العنف. وقد أثار انتباه بعض المصريين سرعة التجاء المغاربة إلى استعمال القوة في النزاعات، وكان بعضهم يقول :"هذا مغربي مجنون" بينما نسب بعض المغاربة إلى إخوانهم المصريين نوعا من الخنوع والاستكانة، وانظر ما علاقة ذلك بطبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي في مصر، وقيامها على جهاز اقتصادي يستلزم كثيرا من السلطة التي يفرضها نظام ري معقد ومتشابك المعطيات.

رابعا : صورة مصر في الاستقصا

قصر الناصري مؤلفه على المغرب، واستقصى تاريخه بما لم يسمح له بتلافي الإطالة فيه أو التعريج على غيره. لذلك لا تظهر في

الاستقصا صورة مصر إلا لما ما. وترتبط مناسبات ذكر مصر بثلاثة أفعال.

1 – الحج :

ورد ذكر مصر كمحطة وقوف في حجة الأمير عبد الملك بن السلطان مولاي اسماعيل (96:7) وفي حجة أم السلطان سيدي محمد بن عبد الله، رفقة الأمير المذكور (131:7) وفي حجة أولاد السلطان مولاي عبد الرحمن، وكان عددهم أربعة، وتكلم عن استقبال حاكم مصر لهم في الإسكندرية (71:9)

وتشكل هذه المناسبات فرصة لربط الصلات بين مصر والمغرب.

2 – الهجرة :

أورد الناصري خبر هجرة الأمير مولاي مسلمة إلي مصر واستقراره بها مدة قبل عودته إلى المغرب (92:8)، كما ذكر هجرة بعض الأسر إلى مصر على عهد السلطان مولاي عبد الله العلوي (135:7)

3 – المهاداة :

أورد الناصري خبر وصول هدية السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أمير مصر بمناسبة وصول ركب عروس صاحب مكة في طريقه من المغرب إلى الحجاز بغرض المصاهرة (34:8)

هذه الإشارات تؤكد دور مصر في الربط بين المغرب والمشرق واقتصار الناصري على ذكر حجات الأمراء أمر واقع تحت شرطه، فتاريخه تاريخ الأعلام النابهين . وتوضح هذه الإشارات أن موقع مصر سهل ارتباطها بجناحي العالم العربي كمرحلة لا بد من اجتيازها .

وبموازاة هذه المعطيات أورد الناصري ذكر مصر في إطار آخر . ونود تحليل هذا الجانب بالإشارة إلى أن مصر تشكل بالنسبة للمغرب، بداية المشرق . فقد أورد الناصري قصيدة لأحد علماء افريقيا، يهنىء فيها السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، منها :

يا أهل فاس والمغرب كلها والمشرق من مصر لغاية حده

يهنيكم هذا الزمان فإن في أيامه للدين مطلع سعده

لم نستشهد بهذه الإشارة الشعرية بنية استشفاف تصور الناصري لمصر، بقدر ما أوردناه لتوضيح تصور مغربي (تونسي) لمصر في خارطة العالم العربي. فالمخاطب عنده مخاطبان ؛ أهل المغارب كلها، واستعماله لهذه اللفظة يعني وعيه بوجود مغارب تكون كيانا، وأهل الشرق، الذي يبدأ من مصر التي تشكل أحد حديه[12] أما مناسبة الحديث عند الناصري عن مصر، فهي تحديد موقف السلطة العثمانية من غزو فرنسا لمصر . فقد أورد الناصري قضية بيعة أهل تلمسان لسلطان المغرب، وأورد رد الفقهاء في المسألة، واحتجاج أهل تلمسان بأن ما يربطهم بالسلطة العثمانية من بيعة لم يعد ملزما لهم مادامت لم تقف بجانب المصريين، وجاء في رسالة أهل تلمسان : "وأدل دليل على هذا المرام، خبر مصر والشام. فقد استولى عليها أعداء الدين مدة تزيد علي الخمس سنين . فلم يجد لهم نفعا"[13] ولم نذكر هذه المسألة للخوض في كل ما يستدعيه ذكرها من جوانب، بقدر ما أدرجناها لتبيين استنكار المغاربة لتوقف الامبراطور العثماني عن مساندة مصر، مما يظهر نوع التعاطف الذي كان بين المغرب ومصر .

(12) الناصري، استقصا، 9: 5.

(13) المصدر نفسه، 9: 28

ختم الناصري كتابه بخلاصة أساسية كانت حصيلة لجولته الطويلة عبر تاريخ المغرب، وما وصل إليه من أمجاد، ثم ما آل إليه أمره في أواخر القرن 19م من اضطراب أحواله وتكالب الدول الأوروبية عليه. وفسر الناصري ما وصل إليه المغرب من حال بأن ذلك آت من مخالطة الأجناس، ثم عقد مقارنة بين وضع المغرب وأوضاع غيره من الدول العربية الإسلامية، وخلص إلى أن المغرب أحسنها حالا ثم قال تفسيرا لتفسيره للوضع بالاختلاط بالأجناس "والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطا بهم، فهم أرخص الناس أسعارا وأرفقهم معاشا وأبعدهم زيا وعادة من هؤلاء الفرنج، وفي ذلك من سلامة دينهم مالا يخفى، بخلاف مصر والشام من الأمصار، فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان"[14].

إن تأمل هذا النص يوحي بالملاحظات التالية :

- وعي الناصري بانتمائه إلى كيان واحد، هو الأمة الإسلامية، ولا يشكل المغرب إلا جزءا منه .

- وعي الناصري بما وصلت إليه أحوال هذا الكيان من تدهور.

- تفسيره لهذه الحالة بمخالطة الأوربيين، وتبنيه اعتبارا لذلك، لعلاج سلفي يقضي بالابتعاد عن الآخر، عن الإفرنج، والرجوع إلى أسس العظمة لإعادة استثمارها كوسيلة للإصلاح .

(14) -المصدر نفسه، 9: 208.

مساهمة في التعريف بتاريخ فضالة*

نحاول في هذا البحث تتبع الأطوار الكبرى لتاريخ موقع فضالة (المحمدية حاليا) من خلال تجميع الشذرات المبعثرة في عدد من الأصول، عاملين على تلفيق هذا الشتات لتكوين صورة لهذا الموقع.

أول ما يثير الانتباه هو عدم ظهور اسم فضالة أو تحديد أي نوع من البناء في محلها خلال فترات التاريخ القديم.

فلم يأت ذكرها أو الإشارة إلى موقعها في أي مؤلف من مؤلفات الجغرافيين القدامى[1] ومعنى ذلك أن تاريخ فضالة مرتبط أساسا بالتاريخ الوسيط، وأن استغلال البشر لموقعها استغلال محلي، عكس ما وقع في غيرها، عندما بنى الغزاة والتجار الأجانب مراكز وأعطوها تسميات أجنبية كذلك.

وتظهر أول إشارة إلى موقع فضالة واسمها عند البكرى (المتوفى سنة 486هـ 1094 م). فقد ذكرها وحدد موقعها بالنسبة للمراكز

* صدر هذا المقال في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية -المحمدية، العدد 2 و 3 1990

(1) Besnier , M. Géographie ancienne du Maroc.

المجاورة لها[2] كما أشار إليها الإدريسي (المتوفى سنة 775هـ 1374 م) وأكد على أهميتها كمرحلة في الطريق الرابط بين الشمال والجنوب[3] وتسجل كتب المناقب وجود بعض الصلحاء بالمنطقة مثل قاسم الأغماتي[4] دفين فضالة، وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الصنهاجي، الذي كان يتعبد بفضالة[5].

وهذه الإشارات -على قلتها -تؤكد على الأقل وجود موقع يحمل اسم فضالة، وإن كان ارتباطها في الإشارتين الأخيرتين بشخصيات صوفية قد يؤشر لعدم عمرانها لما هو معروف عند بعض الزهاد من أهل التصوف من انتباذ الأركان القصية بحثا عن الخلوة والانزواء.

وابتداء من القرن 14م بدأ موقع فضالة يظهر في الخرائط البحرية الاوروبية ؛ فقد ورد ذكر الموقع عند Fischer[6] في القرن 14م، وسماه Fidhala. وورد أيضا في خريطة مرسومة في بيزا في السنوات الأولى من القرن 14م باسم Fedala، ووردت في خريطة Petrus Vesconte المرسومة 1311– 1318، بشكل Fadhala. كما تذكر فضالة ضمن لائحة المراكز الساحلية المغربية المستنبطة من الخرائط الكتالانية العائدة للقرن 14م[7].

وتعني بداية ظهور «فضالة» في الخرائط الأوروبية، وبالأخص الإيطالية والإسبانية، بداية اهتمام هاتين الدولتين بالسواحل المغربية في إطار اهتمامهما الواسع بالبحر تجارة واستكشافا ثم توسعا واحتلالا.

---

(2) البكري، مسالك، 15.
(3) الإدريسي، نزهة المشتاق، 84.
(4) العزفي ، دعامة اليقين ، . 57ويشير محققه إلى احتمال كون المذكور هو نفس القاسم الإيلاني ، المترجم له في التشوف ، ص : 181، الترجمة رقم 57.
(5) ابن الزيات ، التشوف، 311.
(6) Fischer , Th. Sennlung, p: 218, in Massignon, Tableau , p:51
(7) Massignon, L. Tableau , p:59

وهكذا تعرض موقع فضالة لعمليات عسكرية إسبانية خلال الربع الأخير من القرن 15 (1479– 1490)[8] كما يدخل في إطار نفس هذا الاهتمام بداية ظهور فضالة في الأوصاف والرحلات الجغرافية التي أنجزها بعض الأوروبيين. وهكذا وصفها Fernandes في مطلع القرن 16 وذكر أنها بلدة صغيرة قرب ثلاث جزر[9].

هذا وإن مما يثير الملاحظة توقف كل من الحسن الوزان ومرمول[10] عن ذكر فضالة أو الإشارة إليها. فقد وصف الوزان الساحل من أنفا إلى سلا، وذكر المنصورية والنخيلة، ووصفهما. وتبعه مرمول في ذلك، واهتما معا بذكر المراكز المغربية العامر منها والخرب. ولا يمكن هذا التوقف إلا بافتراض خلو الموقع خلال القرن 16من أي بناء يثير الانتباه.

وفي أواخر القرن المذكور، قدم أسير برتغالي وصفا مجملا مختصرا للمغرب، وذكر موقع فضالة، وحدد المسافة الواصلة بينه وبين أنفا، وذكر أنه موقع يتوفر على مرسى آمن تكون بفعل حركات الأمواج، تحيط به صخور متوسطة الارتفاع، يستغلها السكان لمراقبة البحر، متوجسين الخيفة من هجمات برتغال مزكان[11].

ويثير وصف البرتغالي المجهول الهوية مشكلة جانبية، فهو لم يتحدث عن جزيرة عكس فرناندس الذي تحدث عن ثلاث جزر. مما يقتضي وقوع تغيير في المنظر الطبيعي لموقع فضالة خلال القرن 16. فيظهر إذن أن تحولا أدى إلى ظهور فضالة في القرن 17 في شكل خليج صغير عند مصب النهر، وتوجد غير بعيد عن الساحل جزيرة صغيرة تتصل أو تنفصل عن اليابس حسب حالات المد والجزر. ويشكل الموقع

(8) Espada , J. de-, La guerra del moros, In: S.I.H.M. ESP. T:I.p :1
(9) Fernandes , V. Description, p: 27
(10) الوزان ، وصف إفريقيا . ص.ص 194– 198، مرمول ، إفريقيا 2، ص.ص. 126–130.
(11) Anonyme , description : pp 93 -94

بمعطياتـه هاته مرسى صغيرا للسفن غير أنه آمن[12]. فقـد كـان صالحا لرسـو سـفن صغـيرة لا تتعـدى حمولتهـا ثمـانين طنـا ولا يتعدى عمق سـاحبها المـترين، مـع ضرورة توثيق رسوها وإحكامه مخافة أن تدفعها الرياح القوية فترتطم بالساحل[13] وهـذه المعطيـات هي التي حددت حجم ونـوع نشـاط المرسى، فهي لم تكن بالاتساع الكافي لممارسة حركة بحرية كبـيرة، ولكنها كانت كافية لرسو سفن صغيرة وسريعة. وبهذه الاعتبارات بدأ الموقع يأخذ بعض الأهمية في القرن 17. ففي سنة 1614، وفـي إطـار عمليـات متشـابكة كـانت تـدور حول استعداد الإسبان لاحتلال معمورة، ومحاولـة المغـرب مسـتعينا بهولندا مواجهة ذلك الاستعداد، استعمل قائد الأسـطول الهولنـدي المرابـط علـى السـاحل المغربي مرسى فضالة، حيث نـزل بـه بعـض رجـال القـائد المذكور منتظرين الاتصال بمبعوث سلطان الوقت زيدان بن أحمد المنصور.[14] وإذا كـان الهـدف مـن هذه التحركات لـم يتحقـق، واحتلت إسبانيا المعمورة فعلا في نفس السنة، فإن استغلال الهولنديـين لمرسـى فضالـة أثـار اهتمـام الأوروبيين بها. وقد استغل هذا الاهتمام أحد المغامرين، ويدعى Sherley[15] فرفـع إلـى السلطات الفرنسية مذكرة تتعلق بالتخطيط لاحتلال فضالة وبناء حصن بها.

وقـد أصـدرت فرنسـا قرارا ملكيا بإبرام عقد مع المذكور، لاستغلال المصـايد والإمكانيـات التجاريـة للسـاحل الغربـي للمغـرب، بمـا في ذلك تحصـين موقعـي كل من فضالة وجزيرة أمكدول (الصويرة حاليا)، وذلك شـريطة أن يتعهـد بالإنفـاق على خمسين سفينة حربية وتجارية بحمولة إجمالية تصل إلى عشرة آلاف طن[16].

(12) SIHM.P.B T:II,p: 282. note: 3.
(13) Ricard , R. La côte . p 240.
(14) SIHM ,P.B,T: II, p: 282.

(15) Sir Anthony Sherley (1565-1635) : مغـامر من أصل إنجليزي ، جاب كثيرا من البلاد وشارك في نشـاطاتها السياسـية ، فقـد عمل في هولاندا وبلاد فارس وإسبانيا وألمانيا . ثم دخل المغرب سنة 1605 وعاش بأسفي مدة ، واتصل بالسلطان السعدي مكلفا بمهمة لديه من قبل الإمبراطور الألماني.

(16) SIHM , Ang , T:I, p: 283.

ولـم يسـفر هـذا المشـروع، مثـل كثير من المشاريع المماثلة له، عن نتيجـة. وقـد كـان لشـيرلي هـذا أشباه ونظائر، ولم يكن، كما لم يكونوا، يتوفر على ما يلزم من الوسائل لإنجاز ما اقترح.

وقـد ظلـت فضالة تستعمل مرسى للقيام ببعض العمليات التجارية، نذكر منها وسق سفن قمح لفائدة السلطان مولاي زيدان أوائل سنة 1619،[17] ووفود تاجر هولندي على المنطقة سنة 1624 للحصـول على القمح، حيث تم اعتقاله بتهمة الاحتيال في الحصول على هذه المادة[18].

ومـع ازدهـار حركة القرصنة السلاوية، اكتسب موقع فضالة أهمية خاصة .فقـد بلغـت تلـك الحركـة مـن النشـاط واتسـاع رقعـة العمليـات والتضييـق الكبـير علي التجارة الأوروبية، ما جعل بعض الدول الأوروبية تجهز حملات عسكرية بحرية للتضييق على السلاويين .ومـن ذلك الحملة الفرنسـية التـي قادهـا Razilly، والتـي وصلـت إلـى مشـارف فضالـة في يوليوز 1629[19] فمـا كـان من القطع القرصنية المطاردة، إلا أن احتمت بمرسى فضالة[20]. كمـا نسـجل لجـوء سـفن سـلاوية أخرى إلى فضالة تلاحقهـا سفن فرنسية، إلى أن تمكنت من إنزال بعض القطع المدفعية إلى اليابس واستعملتها لقنبلة السفن الفرنسية[21]. وجـرت في نفس هذا الوقت اتصـالات بين بعض أهل القصبة (الرباط) وبين ملك إسبانيا، بكيفية تأكد معهـا - فيمـا يظهـر - نـوع مـن الرغبـة عنـد المذكورين في العودة إلى إسـبانيا، متوسـلين إلـى ذلـك بعـدد مـن المغريـات مثل استعدادهم لبناء حصن في فضالة ثم تسليمه لملك إسبانيا[22].

(17) SIHM ,Fr , T: III, p: 50.
(18) SIHM, P.B,T: III, p: 529.
(19) SIHM, Fr. T: III, p: 208.
(20) SIHM, Fr, T: III, p: 206.
(21) SIHM, Fr, T: III . p: 547.
(22) Colin , G. Un projet de traité, pp:21-24.

ومـن جهة ثانية، دخلت هولندا حلبة التنافس على المغرب، فأصدرت قـرارا بتعيين Juriaem Van Bystervelt قنصـلا لهـا فـي المغـرب «على أن تشـمل اختصاصاتـه المنـاطق المجاورة لسلا وفضالة»[23] لخدمـة التجـار وأربـاب المراكب الذين يتاجرون أو يبحرون قرب سلا وفضالة[24] ويعني هذا التعيين وجود تجار ومصالح تجارية لهولندا في فضالة.

أمـا مـن جهـة الإنجليز، فقد استعمل المبعوث John Harrison فضالة في شتنبر 1627 حيـث رست بها سفنه، ووجه منها مبعوثا عن طريق البر إلى سلا .ويؤكـد ذلـك من جهة ثانية وجود فضالة ضمن قائمة المراسي المغربيـة التي يطرقها التجار الإنجليز .بـل إن بعضهـم تـرك وصفـا لهـا مؤكـدا فيـه على صلاح موقعها للرسو والمتاجرة[25] ولـم يغـير مـن هـذه الوضعيـة تبعيـة فضالـة للسـلطان السعدي محمد الشيخ الأصغر[26] ولا خضوعها بعد ذلك بقليل للمجاهد العياشي[27].

وفـي نفس الوقت، كانت سفن هولندية تجوب السواحل المغربية في عمليات تجارية نشيطة، تشمل فضالة .كمـا كـانت المرسـى تسـتعمل من قبل بعض السفن القرصنية الجزائرية للاستراحة والتنظيف[28].

وفي سنة 1665 قـدم التـاجر الفرنسي Th.Le Gendre وصفـا لمنطقـة فضالة، فلاحظ خلوها من أية مدينة أو قصر[29]. وخضـع الموقع بعد ذلك بقليـل لنظـر محمـد الحـاج الدلائـي. ويعـاصر هـذا عودة اهتمام فرنسا بفضالـة فـي إطـار عملياتهـا البحريـة الموجهة ضد قراصنة سلا. وهكذا حرر قائد الحملة الفرنسية Jean d'Estrées رسـالة مطولـة فـي الموضوع،

(23) Caillé , J. Ambassadeurs hollandais , p191.
(24) SIHM, P.B, T:IV. p: 385.
(25) SIHM, Ang, T:III, pp :127, 220, 317.
(26) Idem, T:V. p: xx.
(27) Idem, T:IV ,p: 482.
(28) Idem ,T: V, p: 593.
(29) SIHM ,Fr , T: III. p: 737.

ذكر فيها بأن القراصنة السلاويين العائدين من عملياتهم يلتجئون إلى عدة نقط ساحلية من ضمنها فضالة .ثم شفع رسالته هاته بمذكرة مؤرخة في 22 يونيو 1670، جاء فيها أن القراصنة يلتجئون إلى فضالة حيث ينذرهم زملاؤهم من سلا بواسطة علامات الدخان بتحركات الأسطول الفرنسي المرابط قرب سلا[30].

وسار نفس السيرة في تبيين أهمية فضالة بالنسبة للقراصنة السلاويين القبطان d'Estivalle الذي قاد حملة بحرية ضد القراصنة أواخر سنة 1670، حيث لاحظ بأن ليس في وسع القراصنة اللجوء إلا إلى موقعين، هما المعمورة وفضالة، فأما الأولي فهي تحت يد الاسبان، فلا يتأتى لهم فيها التعرف على أخبار تحركات القوات المسيحية، ويفضلون إذن اللجوء إلى الثانية أي فضالة، التي تتمتع بموقع يحميها من الرياح الشمالية الغربية، بالإضافة إلى توصلهم فيها بأخبار ما يجري في سلا، خصوصا وأن جزيرة فضالة تخفي سفنهم عن نظر السفن الفرنسية التي تلاحقهم.

وقد أكد هذا القبطان سهولة احتلال فضالة واتخاذ بعض التحصينات بها. لتستغل من جهة لإبعاد القراصنة، ولتستعمل من جهة ثانية مرفأ للتجارة بدل سلا التي يتعرض فيهاالتجار الفرنسيون لضروب السب والإهانة.كما يمكن أن تستغل فضالة، وهي لا تبتعد إلا بنحو خمسة وأربعين فرسخا عن المضيق، نقطة استراحة للسفن التجارية، ومنطلقا للتضييق على تجارة إسبانيا في قادس، حال نشوب الحرب بين فرنسا وبينها[31].

وقد لقي هذا الاقتراح استحسانا لدى السلطات الفرنسية، خصوصا وقد ظن الفرنسيون أن "مولاي رشيد، رغم قوته، لا يتوفر على قوة

(30) SIHM. Fr, SF, T: I, p: 303.
(31) Idem, p: 336.

بحرية .وهو عاجز عن حماية فضالة"[32]. إلا أن انشغال فرنسا بالتصدي لعمليات المجاهدين في سلا نفسها، جعلها تصرف النظر عن هذا المشروع. وظلت فضالة محطة استراحة وملجأ للسفن القرصنية السلاوية إلى حدود سنة 1680، حينما سجل أحد الفرنسيين مذكرات ن المغرب[33].

ونسجل هنا أن بعض التغيير قد طرأ على شكل موقع فضالة، فلم تعد الأوصاف تتحدث عن جزيرة منفصلة عن الساحل، بل عن "جزيرة متصلة باليابس، يمكن العبور إليها على الأقدام في حالات الجزر"[34].

تندر الإشارات التاريخية المرتبطة بفضالة طيلة القرن الثامن عشر إلى أن توجه إليها اهتمام السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله، في إطار سياسته العامة من الاهتمام بالمراسي والسواحل. ففي سنة1184هـ/ 1770سرح للأوروبيين شراء الزرع من مرسى فضالة، واشترط عليهم في ذلك أن يتخذوا فيها البناء والديار. "فتكاثر البناء بمرسى فضالة وخط بها الجامع (..) وكان العدول من المسلمين من أهل سلا والرباط يحضرون بالمرسة مع الأمناء من اليهود»[35] فكان هذا الأمر بداية انتشار العمران في فضالة، وإن كانت الأصول تختلف في تحديد تاريخ هذا التأسيس. فقد ذكر الضعيف أن السلطان المذكور أمر ببناء فضالة سنة 1185 1772[36] وذكر الزياني أن ذلك البناء كان سنة 1182/ 1768[37] ويفهم من نص الضعيف من ناحية ثانية أن البناء وتمكين الأوروبيين من التشييد أمران مختلفان. وقد يكون قصده أن ما بناه السلطان القصبة أو المسجد، وما بناه التجار من الديار.

(32) SIHM , Fr ,SF , T:I, p: 337.
(33) Idem, T: III, p: 206.
(34) Idem, T:V, p 5:2

(35)-الضعيف ، تاريخ ، 324
(36)-المصدر نفسه ، في نفس المكان
(37) -الزياني ، ترجمانة ، 50. وانظر كذلك لائحة المدن المذكورة عنده

ومهما يكن، فقد شهدت المدينة نشاطا كبيرا يقدم الضعيف وصفا له بما يغني عن إيراد غيره :« فقد كانت الإبل تأتي إليها (فضالة) كأنها السحاب ليلا ونهارا وفي كل يوم، يعمرون نحو العشرة آلاف فانكة، وفي الفانكة أربعة أمداد (..) وكان في ذلك أمر عظيم من العمارة من اليهود والنصارى والمسلمين، وهم يجاهدون في اشتراء الزرع. فمن رأي ذلك يفزع !»[38] ويؤكد هذا الوصف إقبال الأوروبيين على المتاجرة في فضالة، كما تؤكد إشارات أخرى تدخل قنصالهم للمشاركة في هذه العمليات.

ففي سنة 1766شحن من المرسى مائة ألف قنطار من القمح، لفائدة قنصل إسبانيا، وشحنت كميات مماثلة على يد تجار فرنسيين استلزم نقلها استعمال حوالي ثلاثين سفينة[39].

وقد اتخذ السلطان لضمان أمن الموقع حامية عسكرية في فضالة، قوامها أعداد من عبيد البخاري، ظلت بها إلى أواخر القرن حينما أمر السلطان مولاي اليزيد (1790–1792) بجمع العبيد في مشرع الرملة. فوصل منهم إلى الرباط ممن كان بفضالة ألف وستمائة[40].

وقد صادر السلطان سيدي محمد بن عبد الله بعد مدة الإمتياز الممنوح للتجار الأوربيين، ومنحه لشركة إسبانية تسمى Los Cinco Gremios وهي الشركة التي كانت تمتلك في نفس الوقت امتياز التجارة في الدار البيضاء[41] ويظهر أن هؤلاء التجار الإسبان اتخذوا بنايات ظلت موجودة إلى القرن 19، حيث يذكر الناصري أنهم "بنوا بها الموجود اليوم"[42] وهذه الحركة التجارية والعمرانية هي التي مكنت

(38) الضعيف ، تاريخ ، ص : 324

(39) Masson , P, Histoire d'établissements . p 640

(40) الضعيف ، تاريخ 382، 386

(41) Adam, A, Fedala,In: Ency. de l'Islam

(42) الناصري ، استقصا ، 4: 116

السلطان مولاي سليمان من الاعتماد عليها في إقامة قصيرة سنة 1211 1796، كما اتخذها منطلقا لبعض عملياته العسكرية[43].

مع نهاية القرن 19هجر التجار المرسى. ولم تعد فضالة سوى قصبة تشكل مرحلة على الطريق بين الرباط والدار البيضاء. وظلت على هذه الحال إلى مطلع القرن العشرين (1908) في شكل قصبة تحيط بها أسوار مربعة ضلعها لا يتجاوز 240 مترا بداخله جامع وبعض الدور المتداعية للسقوط وعدد من « النوايل»، ولا يتعدى عدد سكانها المائتين والخمسين[44] وابتداء من التاريخ المذكور سيدخل موقع فضالة مرحلة جديدة من مراحل تاريخه، أهم مظاهرها دخول الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال d'Amade الشاوية واحتلال فضالة يوم 10 يناير 1908.

وبذلك تبدأ فضالة مرحلة تطور أوصلها إلى ما هي عليه اليوم.

هذه بعض المعطيات التي سمح بتلفيقها ما تمكنا من الوقوف عليه من منتثر الأصول. وهذه المعطيات على ضمورها تمكن من طرح بعض التساؤلات :

أولا : مسألة التسمية.

تقدم أقدم إشارة، وهي تلك الواردة عند البكري المتوفي سنة 486هـ-1094م إسم فضالة بالشكل الذي ظل مستعملا طوال القرون الموالية. وهذا الرسم فيما نظن عربي. إذ لا اشتقاق له في اللغة البربرية فيما نعلم، بينما نجد له في اللغة العربية استعمالا وتداولا، فالفضالة ما فضل من الشيء، وللرسم علاقة بالأسماء الشخصية العربية كفضل وفاضل.

(43) الضعيف ، تاريخ ، 673

(44) Verlaque , C, Fedala

مع الإشارة إلى أن ما ذكر عند بعضهم من كون الرسم المستعمل تحريف بالاستعمال من "فضل الله" أدى إلى ظهور "فضالة"[45]، أمر لا أساس له.

وقوفنا إذن عند هذه القراءة يؤدي إلى قرن اسم الموقع باسم مجموعة بشرية تقيم فيه أو حوله أو قريبا منه. ونقترب من تحقيق هذا الافتراض عندما نقرن بين اسم فضالة وبين اسم مجموعة بشرية مستقرة إلى الآن شرقي فضالة، هي «الفضالات» من قبيلة الزيايدة. غير أن هذا لا يستقيم مع استعمال لفظ «فضالة» في القرن 11م، أي في الوقت الذي كانت فيه المنطقة بربرية من المقبول أن تستعمل في تسمية مواقعها أسماء بربرية. بينما لم تدخل القبائل العربية المنطقة إلا أواسط القرن 12م، حيث أن من المعروف المتداول أن عبد المومن بن علي الموحدي "ثنى عنانه إلى المغرب سنة 1160م558 /هـ (..) فاستلحق عددا منهم (القبائل العربية) ولم يعد من حركته الإفريقية إلى المغرب إلا وهو يجر وراءه من عرب الرياح وجشم وغيرها وقبائلهم ما يضيق به الفضاء»[46] ويبقى السؤال مطروحا إذن. كيف تمت تسمية موقع في منطقة بربرية باسم عربي ؟.

ثانيا : مسألة الاستغلال البشري للموقع.

إن الإشارات التي قدمنا خلال هذا العرض، على قلتها، تفي بغرض استنباط حكم عام بكون المنطقة لم تكن خلال القرون السابقة لإنجاز السلطان سيدي محمد بن عبد الله مركزا بشريا كبير الأهمية ولا متوسطا. ولا نظن أن الموقع كان في وقت من الأوقات "قاعدة لأسطول

(45) Adam , A . Fedala . op. cit

(46) بنمنصور ، قبائل مغربية

إمارة برغواطة" ولا أن إقليم تامسنا كان "منفتحا على التجارة الخارجية، لا سيما مع إسبانيا مادام ميناء (كذا) فضالة يصدر حاصلاتهم من الزراعة وتربية الماشية"[47].

كل ما في الأمر أن المعطيات الطبيعية المتعلقة بالموقع، ووجود جزيرة صغيرة على بعد قليل من الساحل، خلقت إطارا طبيعيا صالحا لرسو السفن، وبالأخص للنوع الخفيف منها، القصير الساحب. ولم يتخذ فيها إلي حدود القرن 18 أي بناء حفيل في شكل حصن أو قصبة. لذلك اقتصر الناس في استغلالها على ما يقدم ساحلها من إمكانيات الإرساء. ومادامت وسائل البحر وما تقتضيه من تقنيات وعقليات كانت في معظم فترات التاريخ المغربي بعيدة عن المغاربة، فقد اقتصر استعمال المرسى على الأوروبيين تجارا ومغامرين وعسكريين.

ثالثا : مسألة آفاق البحث التاريخي.

يعطي هذا المقال نموذجا لمحدودية البحث التاريخي اعتمادا على الأصول المكتوبة التقليدية. فرغم الاستقصاء التقريبي لتلك المصادر فإن آفاق البحث تظل محدودة والخلاصات مؤقتة. ولا غنى إذن عن استغلال كل ما تقدمه تقنيات البحث التاريخي، باستقراء الوثائق وخصوصا منها المحفوظة في الخزانات الأوروبية، واستغلال الرواية الشفوية بالحدود التي تسمح بها التقنيات المذكورة. ولا غنى لمن يرغب في المزيد من التعريف بتاريخ المنطقة عن البحث الأركيولوجي.

---

(47) العبيدي ، برغواطة ، 14–15.

بيبليوغرافيا

1- باللغة العربية

- الإدريسي، الشريف
نزهة المشتاق في اختراق الآفاق

- البكري، أبو عبيد عبد الله
المغرب في بلاد افريقيا والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك.

- ابن الزيات، يوسف بن يحيى
التشوف إلى رجال التصوف
تحقيق أحمد التوفيق
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الرباط –
سلسة نصوص ووثائق 1. 1984 / 1404

- الزياني، أبو القاسم
الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا
تحقيق عبد الكريم الفيلالي
نشر وزارة الأنباء – غشت 1967–

- الضعيف محمد الرباطي
تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)
تحقيق أحمد العماري
دارالمأثورات، الرباط 1986 / 1406

- العبيدي، إبراهيم خلف
البرغواطيون في المغرب (127 – 542)
منشورات الجامعة، السلسلة التاريخية، 1. 1983

- العزفي أبو العباس
دعامة اليقين في زعامة المتقين

(مناقب الشيخ أبي يعزى)
تحقيق أحمد التوفيق
مكتبة خدمة الكتاب 1989- الرباط -
- مرمول، كربخال
إفريقيا
ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي وآخرون في جزئين
الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر - الرباط - 1984
- الناصري، أحمد بن خالد
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري
دار الكتاب، - الدار البيضاء - 1955. 9أجزاء
- الوزان الحسن بن محمد
وصف إفريقيا
ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر
دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية 1983
جزءان

2 - باللغة الفرنسية

- Adam, André
Fedala
in: Encyclopédie de l'Islam
- Anonyme
Une description du Maroc sous le règne de Moulay
Ahmed El Mansour (1596)
Traduit du portugais par H. de Castries
Paris 1909
- Besnier, Maurice
Géographie ancienne du Maroc (Mauritanie Tingitane)

in : Archives Marocaines . Tome premier
Paris : E.Leroux 1904
- Caillé, Jacques
Ambassadeurs, Chargés de missions et Consuls hollandais au Maroc à l'époque des Sultans Saadiens
in: Hesperis-Tamuda. Vol. XI. 1970
- Castries, Henri de-
Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc (S.I.H.M)
Angleterre: T.II, 1925
France, Série Saâdienne: T.III,1933
France, Série Filalienne: T.I,1922
France, Série Filalienne: T.III,1927
Pays - Bas: T.II , 1907
Pays - Bas : T.III, 1912
Pays - Bas : T. IV, 1913
Pays - Bas : T. V , 1920
- Cenival , Pierre de -
Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc
Angleterre : T. III , 1936
- Colin , Georges. S.
Projet de traité entre les morisques de la Casba de Rabat et le roi d'Espagne en 1631
in : Hesperis , 1955
- Cosse Brissac , Philippe de -
les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc
Angleterre :T. III,1936
- Fernandes , Valentim
Description de la côte d'Afrique de Ceuta au Sénégal
Traduit par P. de Cenival et Th. Monod
Paris , 1938
- Ricard , Robert
La Côte atlantique du Maroc au dédut du XVI° siècle
D'après les instructions nautiques portugaises
in : Hesperis . T.VII, 1927
- Massignon, Louis
Le Maroc dans les premières années du XVI° siècle
Tableau géographique, d'après Léon l'Africain
Alger : 1906
- Masson, Paul
Histoire de l'établissement du commerce français avec le Maroc (1660-1793)
Paris, 1903
- Salmon, Georges
Une liste de villes marocaines

in : Arch . Mar.Vol VI
Paris, E. leroux . 1906
Verlaque, Christian
Fédala: Etude de géographie urbaine
Université d'Alger . 1958

أبو محمد صالح بن ينصارن الماجري*

استقرت الأسرة الماكرية الدكالية بأسفي أواسط القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي[1] وفيها ولد الشيخ أبو محمد صالح بن ينصارن بن غفيان سنة 1150/550. وأول إشارة إلى هذا الشيخ وتصوفه واردة عند ابن الزيات الذي ذكر أن "أكبر من في وقتنا هذا (1220/617) ممن هو حي،الشيخ الصالح الصوفي أبو محمد صالح بن ينصارن بن غفيان الدكالي ثم الماكري، نزيل رباط أسفي وهو إلى الآن لا يفتر عن الاجتهاد والمحافظة على المواصلة والأوراد"[2] ويوضح هذا النص أصل الرجل البربري من خلال إسم والده واسم قبيلته[3] ويظهر أن أول من حاول تلفيق نسب عربي للشيخ هو حفيد ابنه: أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح، حيث رفع "نسبه الشريف

---

* - عرض قدم خلال الندوة المنعقدة بأسفي في موضوع "أبو محمد صالح، المناقب والتاريخ" وصدر عن دار الشرق العربي، 1990

(1) الكانوني محمد،علائق أسفي ونواحيه بملوك المغرب. مخطوط خاص.

(2) ابن الزيات، التشوف. 41

(3) تعني إينصارن وينصارن : الغيث. والماكري في البربرية إيماكرن وتعني الأكابر والأسياد. أنظر تعليقات محقق التشوف، 41، هامش 37

المـأثور إلي عبد مناف بن قصي بن غلاب بن مرة. فهو أبو محمد صالح بـن عبـد اللـه بـن عبد الرحمن بن أبي القاسم بن يحيى بن علي بن عبد اللـه بـن المغـيرة بـن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ابن العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف جد المصطفى عليه السلام»[4] وحـاول مـن جهة ثانيـة إثبـات عربيتـه مـن خـلال استعراض عمود نسب قبيلته الماكرية ؛ فرفعهـا إلـى كعـب بـن لؤى ليخلص إلى أن الشيخ "قرشي من كل وجه وعلى كل تقدير"[5].

وواضـح مـا فـي هذه النسبة من التلفيق، كما أن قصد الملفق أيضا واضـح. غـير أن بعـض البـاحثين ربـط هذا التلفيق بخلط بين أبي محمد صـالح المـاجري وأبي محمد صالح بن حرزهم الذي يرفع نسبه إلى عمر بن عبد العزيز[6] وتلفيـق التلفيـق واضـح، حيـث أن نسـب ابـن حرزهـم بدوره غير محقق[7] وقـد كـان الموقـف مـن صاحب المنهاج الواضح بداية انتشـار شـهرة انتسـاب المـاكري إلـى عمـر بـن عبـد العزيز، حيث نقله صاحب تحفة أهل الصديقية[8] ونقلـه عنـه ابـن عجيبة في طبقاته، ورواه صاحب السلوة[9]. وكـان وراء هـذا الموقـف خلط بين اسم الشيخ الماجري وسـميه أبـي محمد صالح الهسكوري دفين فاس، خصوصا وأن تاريخي وفاتهمـا واحد. وقد عرف بأبي محمد صالح الفاسي صاحب الديباج وألح علـى علمـه وفقهـه وأنـه كـانت له في فاس مجالس إقراء ومناقشات[10]. واعتقـد صـاحب السـلوة أن المعـرف به في الديباج هو الشيخ أبو محمد

(4) الماكري، المنهاج الواضح، 41

(5) المصدر نفسه، 42

(6) E. Michaux -Bellaire , les confréries religieuses . p:50 .
(7) Georges Drague , Esquisse , p: 41

(8) الفاسي محمد المهدي، التحفة، 154

(9) الكتاني محمد، السلوة 2: 144. وذكر أن ابن عجيبة وقف على المنهاج الواضح

(10) ابن فرحون، الديباج، أول حرف الصادر

صالح الدكالي الماكري، مؤكدا أن ما ذهب إليه صاحب التقاط الدرر[11] من كون أبي محمد صالح الفاسي هو المعرف به في الديباج "ليس كذلك".

والمؤكد أن أبا محمد صالح، بربري قح، أخذ في مسقط رأسه وما جاوره بعض مباديء العلم وخرج سائحا في طلب المزيد منه. فحل بمصر ولزم مجالس العلم فيها مدة طويلة، متحولا بين بلاد الشام والحجاز. ثم عاد إلى بلده أسفي، واستقر فيه إلى وفاته في 25ذي الحجة 21/631 شتنبر 1234.

يثير اسم الشيخ أبي محمد صالح الشخصي مسألة جانبية نرى من المفيد الاستطراد فيها هنا. فاسم الشيخ عربي في صيغته ومعناه بخلاف اسم أبيه واسم جده، إذ هما بربريان لفظا ومعنى. ويعني ذلك، ضمن ما يعنيه، أن هناك ظاهرة تعريب أسماء الأشخاص كأثر مباشر لتعريب المغرب بموازاة انتشار الإسلام فيه واعتناق أهله له. وتمكن دراسة تجريبية لكتاب التشوف من تأكيد هذه الفكرة، والخروج ببعض الملاحظات الابتدائية : فقد ألف التادلي تشوفه سنة 1220/617 وأورد فيه تراجم 277رجلا دون من ذكر اسمه استطرادا في مشيخة أو رواية أو سند. ولا تهمنا في هذا المجال خصوصيات هؤلاء الرجال ولاصفاتهم بقدر ما يهمنا ملاحظة أن من بين المذكورين في الكتاب وعددهم كما قلنا 277 :

203 يحملون اسما عربيا في صيغته ومعناه،
31 يحملون اسم محمد،
3 يحملون اسما بربريا،

(11) أورد محمد بن الطيب القادري عند ذكر أسانيده في العلوم ترجمة أبي محمد صالح الهسكوري فذكر شيوخه ومؤلفاته، وعين مكان قبره في فاس، أنظر : القادري التقاط، 363

57 يحمل آباؤهم إسما بربريا.

يظهر إذن أن تعريب الأسماء -سواء كان بالاختيار أو بالجبر -قد انتشر بشكل واضح بعد أكثر من خمسة قرون من دخول الإسلام المغرب، حيث تشكل الأسماء العربية 73% من مجموع الأسماء الواردة في المؤلف المذكور.وأن اسم محمد من بين هذه الأسماء كثير الشيوع. يمثل 15% من مجموع الأسماء .وفي هذا الإطار إذن نضع خصوصية اسم الشيخ أبي محمد صالح بن ينصارن بن غفيان.

شهرة أبي محمد صالح بالصلاح غلبت على صفاته. ومع ذلك فقد كان له نصيب من العلم. فالشيخ اتصل في أول أمره بالفقيه موسى بن هارون السفطوري الماكري وأخذ عنه بعض فقهه. كما أخذ في نفس الوقت عن أبي عيسى المغيطي[12]. ولا نستطيع تحديد العلوم التي أخذها الشيخ عن هذين الفقيهين. وفي زمن إقامته في الإسكندرية لازم مجلس الشيخ إسماعيل بن مكي بن عوف الزهري[13]، المتوفى سنة 1185/581، ثم لازم مجلس ولديه من بعده، وأخذ عن الفقيه محمد الكركري والأخوين الكرخيين أحمد ومحمد.

لم نقف رغم التحري على تراجم هؤلاء الرجال، مما لا يساعد في تحديد نوع التكوين الذي تلقاه الشيخ في مصر، سوى ما كان من اشتغال اسماعيل الزهري بعلم الكلام.

ومع ذلك فقد كان الشيخ أبو محمد صالح علي شيء من العلم. فقد وقف ابن قنفد على كتب نسخها الشيخ بيده، وهي :

---

(12) الماكري، المنهاج 148

(13) ترجم له : – ابن فرحون : الديباج، 95– السيوطي : حسن المحاضرة، 1: 257– حاجي خليفة : كشف الظنون 393– كحالة : معجم المؤلفين، 2:297

- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى[14].
- بداية الهداية[15].
- الرسالة القشيرية بشرحها[16].
- عقيدة الجبراني[17].
- فرائض الصلاة للصقلي[16].

وقد كتب الشيخ في آخر الكتاب الذي نسخ فيه الكتب المذكورة ما يلي : "وكان الفراغ من ذلك علي يد العبد الضعيف الفقير إلي رحمة ربه أبي محمد صالح بن ينصارن [..] عشية يوم الإثنين وهو التاسع من شهر شعبان عام أربعة وثمانين وخمسمائة"[19].

ويتبين من استعراض لائحة هذه المؤلفات أن اهتمامات الشيخ كانت أساسا صوفية، بدليل الاهتمام بمؤلفات الغزالي والقشيري، وأن اهتمامه كان يتجه أيضا إلى كتب الفقه والتوحيد، دليلا على عملية من مستوى ما، جعلت منه شخصية تستحق أن تسجل من بين مفاخر البربر[20].

أما من حيث سنده في الطريق، فقد اهتم مترجموه بتبيين عمود نسبه الديني، وعملوا على ربطه بكبار مشايخ الصوفية. ذكر ابن الزيات في حديثه عن الشيخ أبي محمد صالح أنه على "سنن المشايخ الأول من

---

(14) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبي حامد محمد الغزالي المتوفي سنة 1111/505

(15) بداية الهداية في الموعظة للغزالي أيضا

(16) الرسالة القشيرية في التصوف للإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفي 1072/465وعليها شروح كثيرة،أنظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، 88

(17) لم نتمكن من التعرف على هذا الكتاب ولا على اسم مؤلفه، ويظهر أن في الإسم تصحيفا

(18) فرائض الصلاة لمحمد بن عبد الله التميمي الصقلي المتوفى 451/ 1315

(19) ابن قنفد، أنس الفقير، 63.

(20) مفاخر البربر، 101، أورده : مفتاح محمد، التيار الصوفي، 173

أهل التصوف"[21] ثم ذكر ما يفهم منه صحبة أبي محمد صالح للشيخ عبد الرزاق الجزولي، وروى أخبار هذا الشيخ عن أبي محمد صالح بواسطة ثقة[22]، ومما روى استطرادا تتلمذه له[23]. وأكد صاحب المنهاج الواضح صحبة أبي محمد صالح للشيخ أبي مدين شعيب ابن حسين الأنصاري[24] وأورد قصة اتصاله به، وتفيد هذه القصة في نفس الوقت أن العلاقة اقتصرت على مجرد الاتصال، حيث ذكر أن أبا مدين قال بعد أن امتحن زائره :" ما عسى أن أقول لرجل قد عرف الله حق معرفته"[25] ويؤكد بعض الباحثين[26] أن شرف الدين البوصيري ذكر أن شيخ أبي محمد صالح ومعتمده هو أبو مدين شعيب، ولا ندري معتمده هو. بينما ذكر ابن قنفد أن الشيخ أبا محمد صالح "من إخوان الشيخ أبي مدين [..] وشيخه عبد الرزاق الجزولي"[27] وكأنما شك ابن قنفد في طبيعة علاقة أبي محمد صالح بأبي مدين، فبعد أن ذكر أنه أخبره غير واحد أن الشيخ أبا محمد صالح لقي أبا مدين عاد فقال : "وهذا والله أعلم صحيح لأنه كان معاصرا معه، وملازمته للخير قديمة، أو يكون أخذه عنه بالواسطة في الابتداء. ودلني على صحبته له أن الفقيه [..] أحمد الغبريني [..] ذكر في كتابه عنوان الدراية، أنه أخذ علم التصوف عن الشيخ الصالح الولي أبي عبد الله محمد ابن القاسم السجلماسي عن الشيخ أبي محمد صالح عن أبي مدين بسنده"[28].

---

(21) ابن الزيات، التشوف، 41

(22) المصدر نفسه، 327

(23) المصدر نفسه، 329

(24) ترجم له ابن الزيات، التشوف، 319. ولائحة مترجميه في الهامش 3من التحقيق

(25) الماكري، المنهاج الواضح، 25

(26) معنينو، الحاج أحمد، أبو محمد صالح، 166.

(27) ابن قنفد، أنس الفقير، 35، 61

(28) المصدر نفسه، 62

وإذا كان هذا النص لا يبت بالقطع في مسألة تتلمذ أبي محمد صالح لأبي مدين فإنه يبين بوضوح أن المسألة ليست قطعية. وهذا لم يمنع كثيرا من الباحثين من الجزم بوجود علاقة تتلمذ بين الرجلين. فقد أكد ميشو بيلير ذلك[29] وتبعه دراك[30] وأكد صاحب السلوة بعد أن ذكر اسمه ونسبه أنه "أحد تلاميذ الشيخ أبي مدين الغوث الآخذين عنه من غير واسطة الملازمين له إلى الوفاة"[31]، وشك الأستاذ القبلي في ذلك، مبينا أنه لا شيء يدل على وجود علاقة تلميذ بشيخ بين صالح أسفي وصالح تلمسان[32]، بينما ذهب باحث آخر إلى أن هذا الرأي لا يعتمد على أساس، خالطا أثناء ذلك بين الرواية الشفوية وبين ما يسميه "الرواية الرسمية"[33].

ونحن نظن أن لاعلاقة تتلمذ بين الرجلين، وأن محاولة خلق علاقة تتلمذ أبي محمد صالح للشيخ أبي مدين تسير في نفس اتجاه محاولة إلحاق نسبه بالقرشية. والأمران معا يدخلان في إطار يخرجنا عن إطار بحث في هذا المستوي. وعلى كل حال، فإن عمود نسب أبي محمد صالح في التصوف رفع، سواء بواسطة شيخه عبد الرزاق الجزولي أو بغيرها، إلى أبي مدين الغوث، وهو عن أبي الحسن على بن حرزهم، عن أبي بكر بن العربي، عن أبي حامد الغزالي عن إمام الحرمين، عن أبي طالب المكي، عن أبي القاسم الجنيد، عن السري السقطي عن معروف بن فيروز الكرخي، عن داود عن نصر الطائي عن أبي حبيب العجمي عن أبي سعيد الحسن البصري عن علي بن أبي طالب[34].

---

(29) E . Michaux - Bellaire , Confréries . p : 50
(30) G . Drague , Esquisse , p: 41

(31) الكتاني، سلوة، 142

(32) Kably , Pouvoir , p: 389
(33)Raïs , M. Harouchi , Introduction . p:47

(34) الماكري، المنهاج الواضح، 46

وقد كان للشيخ كلام في الطريق، أورد صاحب التشوف نماذج منه[35]. وذكر له صاحب المقصد تأليفا في التصوف عنوانه : تلقين المريدين جمع فيه نقولا من كتب في التصوف و"ذكر فيه نبذا مما اتفق له"[36]. ويفهم من نص البادسي أنه اطلع عليه ونقل منه شيئا قليلا في المقصد.

تشكل هذه المعطيات أساس ظهور طائفة ملتفة حول الشيخ أبي محمد صالح لها شارات مميزة وأذكار خاصة .منطلق هذه المعطيات التزام الشيخ بالتقوى والصلاة، قدوة لأصحابه ومعاصريه. قال عنه ابن الزيات أنه لا يفتر عن الإجتهاد والمحافظة عن المواصلة والأوراد[37].

وكان له تلامذة اختصوا بالمرقعات ولهم ورد خاص في الذكر[38]، وللشيخ في علاقته بالتلميذ طريقة خاصة، إذا جاءه المريد "عرفه نفسه وأمره بالوحدة ودرجه في أوراده حتي يصير من أهل المجاهدة"[39] فإذا التزم المريد بما ألزم دخل الطائفة الماكرية واتخذ شاراتها .ومن الشارات ما تعلق بالشكل ومنها ما تعلق بالسلوك .فمن الشارات الشكلية : حلق الرأس واللحية.

روي أن جماعة دخلت على الشيخ أبي محمد صالح وفيهم رجل له شعر "فخطر ببال الرجل التوبة ومنعه من أخذ يد الشيخ مخافة الحلاق. فتفرس فيه الشيخ فحسرالشاشية عن رأسه حتى ظهر لنا رأسه محلوقا وقال : من أحبنا فعل كما فعلنا. فقام الرجل مسرعا وأخذ بيده فحلقنا

(35) ابن الزيات، التشوف، 41
(36) البادسي، المقصد، 102
(37) ابن الزيات، التشوف، 41
(38) المصدر نفسه، 438
(39) ابن قنفد، أنس الفقير، 61

رأسه وكساه شاشية بيده"[40] وحجة الشيخ في الحلق، حسبما أورده ابن حفيده في المنهاج الواضح، أن له أصلا في الكتاب والسنة "كما أن فيه عونا على الطهارة وعصمة للنفس"[41].

واقتضى حلق الرأس اتخاذ شاشية، فصارت للطائفة ميزة وشعارا[42] كما اتخذوا العصا واعتمد الشيخ فيها على تقليد الأنبياء. وذهب إلى القول بأن الأنبياء جميعهم من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم، اتخذوا العصا. واعتبرها عونا ولا سيما عند من تعلم اعتيادها كالشيخ الكبير .واتخذوا الركوة واعتبرها الشيخ عونا على الدين وسموها المطهرة. واتخذوا السبحة، واعتبرها الشيخ إعانة على العبادة وتذكرة عند السهو والغفلة.

أما شارات السلوك، فأهمها الذكر. مبدأ ترديد الشيخ "يالله يارحمن يارحيم" ويتبعه في ذلك أصحابه يرددونها بصوت مرتفع، خصوصا في المناطق غير الآهلة. وكانت الطائفة تجتمع بعد صلاة المغرب يرددون أذكارا إلى وقت صلاة العشاء، وهي خمسة أذكار :

- لاإله إلا الله لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.
- اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله.
- استغفر الله إن الله غفور رحيم.
- ياالله يارحمن يارحيم.
- الحمد لله رب العالمين.

---

(40) الماكري،المنهاج الواضح،57

(41) المصدر نفسه، في نفس المكان

(42) المصدر نفسه،58

تتكرر هذه الأذكار خمسين مرة، ويتم ترديدها في نظام خاص حيث ينقسم الذاكرون إلى جماعات تقرأ جماعة ذكرا وتبدأ جماعة ثانية الذكر الثاني عند انتهاء الأولى من ترديدها.

وللطائفة وظيفة، تتلى فيها ثمانية أذكار قبل صلاة الصبح، وسبعة بعدها وكذا بعد صلاة العصر هي المسبعات العشر، وهي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وسورة الفاتحة (سبعا) بتكرير البسملة وسورة الناس وسورة الفلق وسورة الإخلاص وسورة الكافرون وآية الكرسي والباقيات الصالحات والاستغفار للوالدين والمؤمنين. والعاشرة قولهم : اللهم افعل بي وبهم عاجلا وآجلا في الدنيا والآخرة ما أنت أهله، ولا تفعل بنا يا مولانا مانحن أهله، إنك غفور رحيم جواد كريم رؤوف رحيم.

وزاد أبو محمد صالح الشهادتين كما أضاف التعويذ ليختم به التشهد والبسملة والصلاة على النبي والاستغفار والتحميد. وكل ذلك عشر مرات. ومن شروطه الدعاء بعد القراءة ثم مسح اليدين على الوجه بعد الفراغ منه إلى جانب التذكير والوعظ. ويختم هذا الدعاء بتقبيل يد الشيخ وكل محترم من الفقراء قصد التبرك بذلك. ومما ألزم به الشيخ طائفته المداومة على صلاة الضحى، والوصال وهو صيام الليل والنهار.

وقد اهتم الشيخ اهتماما زائدا بترسيخ قواعد الإسلام، فقد ألزم طائفته بالمداومة على صلاة الضحى، وحضهم على مواصلة الصوم وأعطاهم المثال حيث ذكر أنه واصل أربعين يوما. وتزيد أصحابه في ذلك حتى أنهم فرضوا فيما بينهم جزاء ماليا " نلتزم على كل من فاته الحزب منا أوصلاة الجماعة حقا يؤديه لنا طوعا أو كرها" ثم أوقفوا ذلك عند رأي الشيخ عندما استشاروه فقال لهم : ياأولادي، لا يحل أكل مال المسلم إلا بطيب من نفسه[43].

---

(43)-الماكري،المنهاج الواضح،57

وإذا كانت عناية الشيخ قد عمت سائر أركان الإسلام، فإنها همت أكثرركن الحج. وبلغ من حرصه عليه حتى سمى أصحابه الحجاج. فقد كان يشترط على التائب الحج معتبرا أن توبته لا تتم إلا بالالتزام بكل أركان الإسلام، ولم يقف عند شرط الاستطاعة. وجر ذلك مناقشات فقهية في الموضوع، حيث عاب عليه بعض الفقهاء الخروج عن الشرع بإلزام الناس بما لم يلزمهم به الدين[44] وقد أورد الشيخ عددا من الآيات والأحاديث الداعية إلى الحج المرغبة في القيام به، كما استعرض آراء الفقهاء في مسألة الاستطاعة[45].

ومن جهة أخرى، أقام الشيخ جهازا للحج قوامه مجموعة من الزوايا مبثوثة على طريق الحج من المغرب إلى الحجاز، يقوم فيها أصحابه بتزويد الحاج وتسهيل قطعه المسافة[46].

وقد كان لهذا الاهتمام بالحج أن طغى مجهود الشيخ فيه على غيره. فقد ركز الزركلي في ترجمته على هذا الجانب دون غيره، واحتكرت مسألة الحج في ترجمته له معظمها[47] وفسر ميشوبلير هذا الإلحاح من الشيخ على الحج برغبة الشيخ في ربط مريديه وطائفته بالجماعة الإسلامية لتأكيد ارتباطهم بالإسلام وللتقليل من تأثير جهال الصلحاء[48] وزاد عليه دراك بأن ذاك كان رغبة في التقليل من خصوصيات رابطته وتمكين أصحابه من الاندماج في الأمة الإسلامية والابتعاد عن كل نزعة انفصالية دينية[49].

(44) محمد مفتاح، التيار الصوفي،147
(45) الماكري،المنهاج الواضح،109
(46) المصدر نفسه،106
(47) الزركلي،إعلام،199:3
(48) E. Michaux-Bellaire, Confréries,p: 51
(49) G. Drague , Esquisse , p: 41

لقد أتاح اهتمام الشيخ بالحج فرصة لنشر الطريق على مستوى واسع، وكانت وسيلة ذلك أتباعه المنتشرون في كل بقاع المسافة الرابطة بين المغرب والحجاز. فقد استقر ولده عبد العزيز بمصر حتى توفي بها، فحل محله حفيده إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح وحل محله بعد وفاته ابنه أحمد، صاحب المنهاج الواضح[50] وبلغ عدد الزوايا التي اتخذها أصحابه على طريق الحج ستا وأربعين زاوية في دكالة وحاحا ودرعة وسوس وفاس وصفرو وسلا والجزائر وبجاية والإسكندرية ولبنان والشام[51] وهذا الانتشار في المشرق، ركز روايات عديدة حول الشيخ جمعها أصحابه ومريدوه واستغلها ابن حفيده لجمع مادة كتابه المنهاج الواضح. ومن أشهر الداعين للشيخ، شرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المتوفي 1294/694[52] فقد انتسب إليه ودعا له ونظم في حبه له وتمجيده قصيدة بائية[53] فكان لذلك أن اشتهر ذكره في المشرق حتى أن الشيخ عبد الملك الوجانسي اتصل في سياحته بشيخ مصري "فقال له : إنما شيخك أبو محمد صالح بأسفي، فشددت وسطي إليه"[54] وكان لطائفته إخوان في الجزائر[55] وكان لها في المغرب إخوان أيضا، في سجلماسة، ومنهم ابن زلماط وفي صنهاجة وكلاوة وفي تادلة والأطلس الكبير ودادس .ومن تلامذته في الأندلس عدد كبير. ومن أشهر تلامذته، الشيخ أبو الحسن الشاذلي بواسطة أبي عبد الله محمد بن حرزهم[56].

(50) الكانوني،أسفي،98

(51) تنظر قائمتها عند : الذهبي نفيسة، دراسة المنهاج الواضح، 19-البصكري : أبو محمد صالح، 14 -وجعلها الزركلي 64زاوية، ولعله تصحيف، إعلام 3: 199

(52) أنظر ترجمة ولائحة مترجميه في: كحالة، معجم 10: 28

(53) الكانوني،أسفي،22

(54) البادسي،المقصد،101

(55) ابن قنفد،أنس الفقير،51

(56) محمد مفتاح،التيار الصوفي،174

بيبليوغرافيا

- التادلي ، يوسف بن يحيى ، ابن الزيات ت 1220/617
- التشوف إلى رجال التصوف
- تحقيق أحمد التوفيق . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط - 1984/1404
- القشتالي ، أحمد بن إبراهيم الأزدي ، ت 1268/667
- تحفة المغترب لبلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان
- مؤلف مجهول الإسم
- مفاخر البربر
مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم 1275ك
- الماكري، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن أبي محمد صالح ت أوائل القرن 8
- المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح
- البادسي ، عبد الحق بن إسماعيل ت بعد 1322/722
- المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف
تحقيق سعيد أحمد أعراب . المطبعة الملكية 1982/1302
- ابن قنفد ، أحمد بن حسن ، ت 1407/810
- أنس الفقير وعز الحقير
تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور . منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، 1965
- ابن الخطيب، محمد
- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب
مخطوط الخزانة العامة ، الرباط - رقم 256- ك

- الفاسي ، محمد المهدي بن أحمد ت 1698/1109
- تحفة أهل الصديقية بأسانيد الطائفة الجزولية والزروقية
مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 76ج
- القادري ، محمد بن الطيب ت 1712/1124
- إلتقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار من ظهر من أعيان المائة الحادية والثانية عشر
تحقيق هاشم العلوي القاسمي منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت 1983/1403
- الكتاني ، محمد بن جعفر ت 1926/1345
- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس المطبعة الحجرية - د ت .
- الكانوني ، محمد بن أحمد ت 1938
- أسفي وما إليه قديما وحديثا
مطبعة مصطفى محمد - القاهرة - 1935/1353
- البدر اللائح والمسك الفائح من مآثر أبي محمد صالح
- مخطوطة خاصة
- معنينو ، الحاج أحمد (معاصر)
-أبو محمد صالح ، مفخرة من مفاخر رجالات المغرب المسلم
مجلة دعوة الحق ، السنة 15- رمضان 1972/1392
- المنوني ، محمد بن عبد الهادي (معاصر)
التيارات الفكرية في المغرب المريني ضمن ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
- مفتاح ، محمد (معاصر)
التيار الصوفي والمجتمع في الأندلس والمغرب ، أثناء القرن 8/14م
أطروحة دولة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 1981/1980

- الذهبي نفيسة (معاصرة)

قضايا التصوف من خلال المنهاج الواضح

بحث لنيل الإجازة في التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 1981.

- الشاذلي عبد اللطيف (معاصر)

التصوف والمجتمع ، منشورات جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء

- البصكري أم كلثوم (معاصرة)

رباط الشيخ أبي محمد صالح بأسفي

بحث لنيل الإجازة في التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الدار البيضاء 1986

– Michaux-Bellaire, Edmond

Les confréries religieuses au Maroc

In. Archives Marocaines, Paris -1927

– Drague, Georges:

Esquisse d'histoire religieuse du Maroc Paris -1951

– Kably Mohamed

Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age

Maisonneuve/Larose 1986

- Raïs, Mohamed Alharouchi

Introduction à l'étude de l'ouvrage, Al Minhaj Al-Wadih Fi Karamat Abu Muhammad Salih

Mémoire de D.E.A. Aix - Marseille, 1988-

مخطوطات عربية في خزائن سوفيتية*

تختزن بعض المكتبات في الاتحاد السوفيتي آلافا من المخطوطات العربية التي تجمعت بطرق مختلفة ومن مصادر متنوعة، خلال القرون الماضية. وقد بدأ الاهتمام بتصنيف ودراسة هذه المخطوطات انطلاقا من سنة 1818التي شهدت تأسيس "المتحف الأسيوي لأكاديمية العلوم" بسان بطرسبرغ. وبدأت هذه المؤسسة تعرف توارد مخطوطات عربية من مختلف أنحاء الإمبراطورية الروسية في شكل هدايا وهبات بالإضافة إلى مقتنيات المتحف. ولم يكن هذا المتحف يحتكر امتلاك المخطوطات العربية حيث ظلت مؤسسات أخرى تشاركه هذا النشاط، مثل المكتبة العامة ومكتبة كلية الاستشراق ومكتبة وزارة الخارجية.

وفي سنة 1930 تأسس انطلاقا من المتحف الأسيوي معهد الاستشراق الذي ما زال يمارس البحث في مختلف الميادين المتعلقة بهذا الموضوع إلى يومنا هذا.

---

* نشر هذا البحث في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية -عين الشق، العدد 7،سنة 1990، صفحات 48 - 21

اهتمت بالتعريف بالمخطوطات العربية في الامبراطورية الروسية ثم في الاتحاد السوفيتي عدة مصنفات وأدلة، آخرها : دليل المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتي.

صدر هذا الدليل سنة 1986عن دار النشر « ناووكا » في جزئين :

الجزء الأول في 527صفحة مكون من ثلاثة أقسام، يهتم القسم الأول -وهو باللغة الروسية -بالتعريف الإجمالي بمكتبة المعهد وتاريخ تكوينها ونبذة عن كيفيات تصنيف الكتب فيها.

أما القسم الثاني فيستعرض محتويات المكتبة مصنفة إلى المجموعات التالية :

1) القرآن وعلومه من رقم 1 إلى 668، وعدد عناوينه 667
2) الحديث من رقم 669 إلى 1128،وعدد عناوينه 460
3) الوعظ والتصوف من رقم 1129 إلى 2609، وعدد عناوينه 2609
4) الطقوس والعادات من رقم 2610 إلى 3739، وعدد عناوينه 1129
5) الفقه من رقم 3740 إلى 5274، وعدد عناوينه 1533
6) الفلسفة وعلم النفس والأخلاق والسياسة من رقم 5275 إلى 67 7، وعدد عناوينه 1471
7) النحو والمعاجم والعروض من 6748 إلى 8419، وعدد عناوينه 1673
8) الأدب (شعر ونثر) من 8420 إلى 9306، وعدد عناوينه 887
9) التاريخ من رقم 9307 إلى 9429، وعدد عناوينه 123
10) التراجم من رقم 9432 إلى 9591، وعدد عناوينه 160
11) الجغرافيا والطبوغرافيا من رقم 9592 إلى 9652، وعدد عناوينه 60
12) الرياضيات والفلك من رقم 9653 إلى 9830، وعدد عناوينه 208
13) الموسوعات وأنواع العلوم من رقم 9861 إلى 9963، وعدد عناوينه 105
14) البيبليوغرافيات من رقم 9964 إلى 9970، وعدد عناوينه 7عناوين
15) العلوم من رقم 9971 إلي 9991، وعدد عناوينه 24

16) السحر وما قاربه من رقم 9992 إلى 10220، وعدد عناوينه 229
17) الطب من رقم 10221 إلى 10338، وعدد عناوينه 118
18) البيطرة من رقم 10339 إلى 10342، وعدد عناوينه 8
19) الفلاحة من رقم 10343 إلى رقم 10345، وعدد عناوينه 3
20) الأمور الحربية من رقم 10346 إلى 10350، وعدد عناوينه 5
21) المطبخ رقم 10351
22) الموسيقى من رقم 10352 إلى 10353
23) إجازات من رقم 10354 إلى 10366
24) الآداب المسيحية المكتوبة بالعربية من رقم 10367 إلى 10545، وعدد عناوينه 179
25) متنوعات من رقم 10546 إلى 10694، وعدد عناوينه 149

أما القسم الثالث فهو عرض مختصر باللغة الإنجليزية عن محتويات الدليل. الجزء الثاني من الدليل من 336 صفحة، وهو كشاف لعناوين المؤلفات وأسماء المؤلفين.

***

قصدنا من هذا المقال عرض بعض محتويات هذا الدليل. وعملنا على تصنيف هذه المؤلفات، ليمكن عرضها في أجزاء. ويتعلق الجزء الأول بتقديم بعض مؤلفات عبد الرحمن السيوطي. على أن نعرض في مقالات موالية، باقي ما يهمنا من مخطوطات مكتبة معهد الاستشراق.

يعتبر عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي[1] (ت 911هـ) أحد معالم التراث الثقافي العربي الإسلامي. زادت مؤلفاته – أو على الأصح

[1] عن السيوطي ومؤلفاته ينظر : الشرقاوي، مكتبة.

المعروف منها – عن سبعمائة وخمسة وعشرين مصنفا، ولم يكد يترك علما من العلوم الإسلامية الا صنف فيه.

ونعتبر هاته المقالة مساهمة في مزيد من التعريف بإنتاجه الفكري، تكملة للعمل الكبير الذي أنجزه السيد أحمد الشرقاوي إقبال والمعنون بمكتبة الجلال السيوطي.

وقد عمدنا إلى مؤلفات السيوطي الوارد ذكرها في دليل مكتبة معهد الاستشراق، فأوردنا أسماءها حسبما جاءت فيه، مرتبة على حروف المعجم،ثم بينا رقم تسجيلها في المكتبة المذكورة، ورقم ترتيبها في الدليل، وصححنا بعض ما لحق تلك العناوين من تصحيف،معتمدين على كشف الظنون ومكتبة السيوطي، وبينا قدر الإمكان مواقعها في بعض الخزانات العلمية بالمغرب. وقد تبين لنا أن بعض هذه المؤلفات مما لم يثبت الشرقاوي للسيوطي، فنعتناها بالمستدرك، وتشككنا في بعضها الآخر لتقارب عنوانه مع ما هو مذكور في غيره، فأشرنا إلى إمكانية مطابقتها لما هو وارد في مكتبة السيوطي تاركين التحقيق والتمييز لمن يهتم بنشر هذا الثرات .

وهذه قائمة بهذه المؤلفات:

1) إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم 1037 B، ورقمه في الدليل 9360. أورده الشرقاوي، ص 51، وذكر أنه منحول وأنه من تأليف المقدسي، كمال الدين محمد المتوفي سنة 1500 / 906[2].

(2) تنظر ترجمته عند : =

– الزركلي ، الإعلام ، 7: 53. ولم يذكر هذا المؤلف له .

–كحالة، معجم المؤلفين ، 11: 200. وأورد الكتاب المذكور ضمن مؤلفاته . =

2) إتحاف النبلاء بأخبار الثقلاء.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم 539 D ضمن مجموعة من ورقة 93 إلى 95. وهو في الدليل مذكور عند رقم 9174. وعنوانه فيه رسالة النبلاء بأخبار الثقلاء،وذكره للسيوطي حاجي خليفة، كشف الظنون، 1 : 7تحت العنوان المذكور. والشرقاوي، مكتبة 51.

3) إتمام الدراية لقراء النقاية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم 908، ورقات 110 إلى 164 ورقمه في الدليل 9941. وذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 8وفي2 1970 وذكر أنه شرح على كتاب النقاية له. وعنوانه كذلك : الأصول المهمة في علوم جمة، ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 371.

4) الأجر الجزل في الغزل.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539ورقات 382– 38، وهو في الدليل مذكور عند رقم 852. وذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون،1: 10 وأورده الشرقاوي، مكتبة 54،

5) أحاديث الشتاء.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 181– 18 ورقمه في الدليل 872. ذكره له الشرقاوي، مكتبة 268تحت عنوان فضل الشتاء وأحاديث في فصل الشتاء.

= وقد نسبه حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 1: 5للمقدسي كذلك ، وسماه محمد بن أبي شريف وهو شهرته فيما يظهر . وذكر أنه ألفه في سنة 875أثناء مجاورته في بيت المقدس .وقد اعتمد أصحاب دليل مكتبة معهد الاستشراق في تحقيق تأليف السيوطي للإتحاف هذا على عدد من المصادر . تنظر فيه ص 425.

6) الأحاديث المنيفة في فضل السلطنة الشريفة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 68– 70 رقمه في الدليل 853، وسماه حاجي خليفة، كشف الظنون 14:1: الأحاديث المنيفة في السلطنة الشريفة وهوعند الشرقاوي، مكتبة، 56بنفس العنوان في مكتبة معهد الاستشراق.

7) إحياء الميت بفضائل أهل البيت.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق رقم D 539، ورقات 122– 124، رقمه في الدليل 854. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 25:1. ومن مخطوطاته في الخزائن المغربية :

– بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 9276 وصنف في فهارس الخزانة الملكية، المجلد الأول عند الصفحة 22.

– بخزانة تمكروت، تحت رقم 2682أ، في فهرسها عند رقم 319 ،ص 180 – بالخزانة الصبيحية بسلا، تحت رقم 282/4، موصوف عند رقم 94 ص 61

8) أرجوزة.

مسجل في مكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B3842 ورقة 7. ورقمه في الدليل 8728ومطلع الأرجوزة :

الحمد لله على الإسلام والشكر لله على الإنعام.

9) الإزدهار فيما عقده الشعراء من الآثار.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقم 217– 230. رقمه في الدليل 856. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 73وسماه الإزدهار فيما عقده الشعراء من الآثار. وبنفس العنوان ذكره له الشرقاوي، مكتبة 63.

10) الأساس في مناقب بني العباس.

مسجل في مكتبة معهد الاسشراق تحت رقم D539 ورقات 70– 7 رقمه في الدليل 857، ونسبه له حاجي خليفة، كشف الظنون، 75:1تحت عنوان الأساس في فضل بني العباس، وبنفس العنوان عزاه له الشرقاوي، مكتبة 65.

11) إسبال الكساء عن النساء.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 238– 245 رقمه في الدليل 4743. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 77:1. وذكره له الشرقاوي مكتبة، 67.

12) إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 195–196. رقمه في الدليل 1887. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 125وكذا الشرقاوي، مكتبة، 80.

13) إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 207–208. ورقمه في الدليل 1888. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 131:1 وكذا الشرقاوي مكتبة 83

14) إلقام الحجر فيمن زكى سباب أبي بكر وعمر.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 141–147. رقمه في الدليل 858. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 158:1، وكذا الشرقاوي مكتبة، 90، وسماه إلقام الحجر لمن زكى سباب أبي بكر وعمر.

15) نموذج اللبيب في خصائص الحبيب.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم C997 ورقات 24- 30 رقمه في الدليل 859. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:231 والشرقاوي، مكتبة، 94 ومن مخطوطاته بالخزائن المغربية :

- في خزانة تمكروت :

- 509أ - الرقم الترتيبي 219ص 56من الدليل.
- 1617أ - الرقم الترتيبي 1251ص 96من الدليل.
- 2642- الرقم الترتيبي 3093ص 176من الدليل.
- 2656- الرقم الترتيبي 3161ص 179من الدليل.

- في الخزانة الصبيحية بسلا :

- 358/5- الرقم الترتيبي 111ص 68من الدليل.

- في الخزانة العامة بالرباط :

- D110 - الرقم الترتيبي 819ص 85من الدليل.
- D927 - الرقم الترتيبي 820ص 85من الدليل.

16) البدور السافرة في أمور الآخرة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم C2218. رقمه في الدليل 2505

- نسبه له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:231. والشرقاوي مكتبة 100.

وسماه : البدور السافرة عن أمور الآخرة.

من نسخه في المغرب، نسخة في خزانة تمكروت تحت رقم 257- رقمها الترتيبي 51. ص 48.

17) بذل المجهود في خزانة محمود.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق رقم D539 ورقة 157. ورقمه في الدليل 4744. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 237والشرقاوي، مكتبة، 101.

18) البرق الوامض في يائية (كذا) ابن الفارض.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B1092 ورقات 8– 2 .رقمه في الدليل8581. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 239:1 والشرقاوي،مكتبة، 104. وذكر حاجي خليفة أن الشرح المذكور هو لتائية ابن الفارض عمر بن علي المتوفي سنة 576، كشف الظنون 265:1، ثم عند حديثه عن يائية ابن الفارض التي مطلعها : سائق الأظعان يطوي البيد طي، كشف الظنون 204:2. و من شراحها السيوطي، وعنوان شرحه : البرق الوامض في شرح يائية ابن الفارض.

19) برهان من تصانيف.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B4461 في ورقات 92– 103 رقمه في الدليل 1901يستدرك على مكتبة الجلال السيوطي.

20) بشرى الكئيب بلقاء الحبيب.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B980 ورقات 70– 88. ورقمه في الدليل 1889. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 246– الشرقاوي، مكتبة 106.

من مخطوطاته في المغرب – مخطوط الخزانة العامة بالرباط :

D1100– رقمها الترتيبي في الدليل 934ص 121.

D1348 – رقمها الترتيبي في الدليل 935 ص 121.

21) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.

مسجل في مكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B633–

رقمها في الدلـــيل 9494 ذكـره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 2:1106، والشرقاوي، مكتبة، 107.

ومن مخطوطاته في الخزائن المغربية :

- خزانة تمكروت، رقم 2602 الرقم الترتيبي 2992. ص 172.

- الخزانة الحسنية بالرباط : رقم 2878ص 75ورقم 5164ص 75.

22) تأخير الظلامة إلى يوم القيامة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 380- 382 رقمه في السجل 862. ذكـره لـه، حـاجي خليفـة، كشـف الظنون، 1:270، والشرقاوي، مكتبة، 113.

23) تأييد الحقيقة العلية وتشييد لطريقة الشاذلية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D539 ورقات 321- 356 رقمه في الدليل 2506. وقـد ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:336 وكذا الشرقاوي، مكتبة، 114.

24) تحذير الأيقاظ من أكاذيب الوعاظ.

مسـجل بمكتبـة معهـد الاستشـراق تحت رقم B1356، ورقمـه فـي الدليل 1890 ذكـره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 230 والشـرقاوي، مكتبة، 119.

25) تحفة المهتدين بأسماء المجتهدين.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم A 156 ورقـات 53- 54. رقمه في الدليل 863. ذكره له الشرقاوي، مكتبة 125، وعنوانـه عنده تحفة المهتديـن بأسماء المجددين. وهو أصح، حيث أن المؤلف أرجوزة في سبعة وعشرين بيتا، تتعلق بالمجددين على رأس كل قرن.

26) تذكار النعم والعطايا.

مسـجل بمكتبـة معهد الاستشراق تحت رقم D 539ورقـات 370- 372 ورقمه في الدليل 6695.

لم يذكره له الشرقاوي. وهو مستدرك.

27) تشييد الأركان من «ليس في الإمكان أبدع مما كان».

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق رقم D 539 ورقات 61 56. ورقمه في الدليل 2507. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 408و 41 .والشرقاوي، مكتبة،134. والعنوان عندهما : تشديد الأركان.. ومن نسخه في المغرب نسخة الخزانة العامة بالرباط مسجلة تحت رقم D 911– وعنوانها : تشييد الأركان...

28) القول المحرر.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 194– 195 ورقمه في الدليل 624. قد يكون هو نفس " المحرر في قوله تعالى:ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر "الذي ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 306

29) تنبيه الغبي في تنزيه ابن العربي.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 43– 4 .ورقمه في الدليل 2508. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:488. والشرقاوي، مكتبة 146، وسماه : تنبئة الغبي، بتبرئة ابن عربي.

30) التوشيح عن الجامع الصحيح.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 2254 ورقمه في الدليل 682. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 150 وعنوانه عنده : التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح.من نسخه في المغرب، نسخة الخزانة الصبيحية،وعنوانها : التوشيح على الصحيح – رقم 34، ترتيبها في الدليل 120– ص 72منه.و رقم 196، ترتيبها في الدليل 121– ص 72منه

31) الجامع الصغير من حديث البشير النذير.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 1396، رقمه في الدليل 867 ذكره له حاجي خليفة، 1: 560والشرقاوي، مكتبة، 154.

ومن مخطوطاته في المغرب.

في الخزانة العامة بالرباط :

1: نسخة رقم D 822، رقمها في الترتيب 741، ص 58من الدليل.

في خزانة تمكروت :

2: نسخة رقم 250، ترتيبها 47، ص 48من الدليل.

3: نسخة رقم 251، ترتيبها 48، ص 48من الدليل.

4: نسخة رقم 280، ترتيبها 94، ص 50من الدليل.

5: نسخة رقم 764، ترتيبها 368، ص 62من الدليل.

6: نسخة رقم 1029، ترتيبها 560، ص 69من الدليل.

7: نسخة رقم 1096، ترتيبها 603، ص 71من الدليل.

8: نسخة رقم 1757، ترتيبها 1579، ص 110من الدليل.

9: نسخة رقم 1937، ترتيبها 1909، ص 124من الدليل.

32) جزء في طرق حديث «من حفظ على أمتي أربعين حديثا»

مسجل في مكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 164– 167 رقمه في الدليل 873. ذكره له الشرقاوي، مكتبة 162.

33) الجهر بمنع البروز على شاطيء النهر.

مسجل في مكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 147– 154 رقمه في الدليل 4746. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 168.

34) الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 73– 7 رقمه في الدليل 9624، أورده له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:632 والشرقاوي، مكتبة، 175.

35) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم C352. رقمه في الدليل 9364

ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 667:1. والشرقاوي، مكتبة، 179.
من مخطوطاته في المغرب :

في الخزانة الحسنية بالرباط :

1: نسخة رقم 1653، ص 146من الدليل.

2: نسخة رقم 3304، ص 147من الدليل.

3: نسخة رقم 3643، ص 147من الدليل.

4: نسخة رقم 3578، ص 147من الدليل.

5: نسخة رقم 3134، ص 147من الدليل.

6: نسخة رقم 3115، ص 148من الدليل.

7: نسخة رقم 3800، ص 148من الدليل.

8: نسخة رقم 5293، ص 148من الدليل.

9: نسخة رقم 3944، ص 148من الدليل.

10: نسخة رقم 9462، ص 148من الدليل.

11: نسخة رقم 3944، ص 148من الدليل.

12: نسخة رقم 7266، ص 149من الدليل.

في خزانة تمكروت :

13: نسخة رقم 217– رقمها الترتيبي 39، في الصفحة 48من الدليل.

14: نسخة رقم 1085– رقمها الترتيبي 598، في الصفحة 71من الدليل

15: نسخة رقم 2680– رقمها الترتيبي 3193، في الصفحة 180من الدليل.

36) حصول الرفق بأصول الرزق.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم 600 A رقمه في الدليل 87
ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 670 والشرقاوي، مكتبة 180،

وعنوانه عنده : حصول الرفق بوصول الرزق، ومن نسخه في المغرب :

بالخزانة العامة بالرباط:

1- نسخة رقم 534ضمن مجموع مذكور في الدليل عند الصفحة رقم 264.

بالخزانة الصبيحية بسلا :

2 - نسخة رقم 259/3رقم 1283ص 594.

37) في الخدام (كذا).

مسجل بمكتبة الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 31- 33، رقمه في الدليل 878. وقد يكون : خادم النعل الشريف، ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1: 698 والشرقاوي، مكتبة، 183.

38) الدوران الفلكي على ابن الكركي.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 271-278، رقمه في الدليل 9173. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:761، والشرقاوي، مكتبة، 194 و 330. ومن نسخه في المغرب، نسخة خزانة تمكروت، رقم 3091أ 3. ترتيبها في الدليل 3923في صفحة 209.

39) ذيل الحيوان.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 356- 367 ورقمه في الدليل 9986. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:697 والشرقاوي، 199. والأصل منطلق من كتاب "حياة الحيوان" للدميري، كمال الدين محمد بن موسى[3] المتوفى 808/1405 ولخصه السيوطي وسماه "ديوان الحيوان" وسمى القسم الثاني من تلخيصه مرتبا على الحروف : " ذيل الحيوان ".

(3) ترجم له : رضا كحالة ، معجم ، 12: 65.

40) رسالة البيبرسية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 169–170، رقمه في الدليل 4745. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1115:2 والشرقاوي، مكتبة 251وعنوانه عندهما : الطلعة الشمسية في تبيين الجنسية من شرط البيبرسية.

41) الرسالة في حق الصلاة على إبراهيم.

مسجل في مكتبة معهد الاستشراق تحت رقم A 1141 ورقات 93– 9 ورقمه في الدليل 1891. لم يذكره له أحد ممن اعتنى بذكر مؤلفاته.

42) رسالة في دفع التعسف عن إخوة يوسف.

مسجل في مكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 185–18 رقمه في الدليل 1892. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 193.

43) رسالة في ذم المكس.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 180– 18 رقمه في الدليل، 4748. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 828:1، والشرقاوي، مكتبة، 197.

44) الرسالة في عدم المجيء إلى السلاطين.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 170–179، رقمه في الدليل 6696. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 828:1 والشرقاوي، مكتبة، 303 بعنوان : ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين.

45) رسالة في علوم النبي.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 157– 158 رقمه في الدليل 879. لم يذكره ممن اعتنى بذكر تآليفه أحد.

46) رسالة الفوائد المشهورة بالأوليات.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 98-109. ورقمه في الدليل 4747. ولم نعثر على ما يطابق هذا العنوان من مؤلفات السيوطي. ومما هو مقارب لما ورد :

- الفوائد البارزة والكامنة في النعم الظاهرة والباطنة
- الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة
- الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة
- الفوائد الممتازة في صلاة الجنازة.

فإن لم يكن واحدا منها فهو مما يستدرك.

47) رسالة وبائية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم A 1141 ورقات 95-104. رقمه في الدليل 1893. قد تكون هي نفس : ما رواه الواعون في أخبار الطاعون التي أوردها له الشرقاوي، مكتبة،303. فإن لم تكن كذلك، فتستدرك.

48) رفع السنة في نصب الزنة.

مسجل بمكتبة الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 66- 68. رقمه في الدليل 7709. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1:910 والشرقاوي، مكتبة، 209. ومن نسخه في المغرب، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم D 587، رقمها الترتيبي 1671في الصفحة 342من الدليل.

49) رياض الطالبين في الاستعاذة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539، ورقات 367- 370 رقمه في الدليل 1894ذكره له : الشرقاوي، مكتبة 212، بعنوان :رياض الطالبين.

50) الزجر بالجهر.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 37– 40. رقمه في الدليل 1895. ذكره له:حاجي خليفة، كشف الظنون، 904:2 والشرقاوي، مكتبة، 215

51) سبل النجاة في والدى النبي.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 14– 19. رقمه في الدليل 880. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 978:2 والشرقاوي، مكتبة، 220وعنوانه فيه سبل النجاة.

52) السماح في أخبار الرماح.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق عند رقم D 539 ورقات 50– 52. رقمه في الدليل 0349. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 100:2 والشرقاوي، مكتبة، 223

53) شرح على الألفية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 4265 ورقات 138. رقمه في الدليل 7587. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 152:1، 259 والشرقاوي، مكتبة، 111وهو شرح على ألفية ابن مالك في النحو. وعنوانه عندهما : البهجة (أو النهجة) المرضية في شرح الألفية. ومن مخطوطاتها في المغرب :

– في الخزانة العامة بالرباط :

1– رقم 1654Dمرتبة عند رقم 1718من الدليل. في ص 358

2– رقم D 541ثانية مجموع. ص 275من الدليل.

- في خزانة تمكروت :

3– رقم 1498مرتبة عند رقم 919ص 83.

4– رقم 1966أ – مرتبة عند رقم 1970، ص 127.

5- رقم 1967ب - مرتبة عند رقم 1973، ص 127.

54) شرح الصدر بليلة القدر.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539- ورقات 61- 66 رقمه في الدليل 1896. يقارب عنوانها كتاب : ضوء البدر في إحياءليلة عرفة والعيدين ونصف شعبان وليلة القدر. ذكرها الشرقاوي، مكتبة، 244 فإن لم تكن كذلك فتستدرك.

55) شعلة نار.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 183-185. رقمه في الدليل 1897. ذكرها له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1048:2 والشرقاوي، مكتبة 236.

56) الشماريخ في علم التاريخ.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 33- 37. رقمه في الدليل 9369، ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1059:2 والشرقاوي، مكتبة 236

57) الصواعق على النواعق.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 - ورقات 116-12 رقمه في الدليل 881. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1083:2 والشرقاوي، مكتبة، 240.

58) طراز العمامة في الفرق سير (كذا) العمامة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 - ورقات 278- 296 رقمه في الدليل 9175ذكرها له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1110:2 والشرقاوي، مكتبة 251. وعنوانها عندهما : طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة.

59) طرح السقط ونظم اللقط.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 3688. رقمه في الدليل 88 ، ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1110 والشرقاوي، مكتبة،250.

60) طي اللسان عن ذم الطيلسان.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539، ورقات 232– 23 رقمه في الدليل 4749 ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1119:2. الشرقاوي، مكتبة، 252.

61) العجائب الزربية في السلالة الزينبية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 92– 93. رقمه في الدليل 9496. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 253.

62) عنوان الدراية في أسماء الحيوان.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 303– 32 رقمه في الدليل 9987، ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1174:2 والشرقاوي، مكتبة 257وهو المذكور بذيل الحيوان المذكور أعلاه عند رقم 39

63) غاية الإحسان في خلق الإحسان.

مسجل بمكتبة الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 124– 141. رقمه في الدليل 8086. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 1188:2 وشك في نسبته إليه، والشرقاوي، مكتبة، 259.

64) الفتح الجليل للعبد الذليل.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 52– 56. رقمه في الدليل 386. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1232و الشرقاوي، مكتبة 262

65) فض الوعاء في أحاديث رفع الأيدي.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق، تحت رقم B 3688. رقمه في الدليل 882. وعنوانه الكامل : فض الوعاء في أحاديث رفع اليدين في الدعاء، ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 267.

66) فضل الكلام في حكم السلام.

مسجل بمكتبة الإستشراق، تحت رقم D 539 ورقات 167- 168 رقمه في الدليل 475. ذكره له : الشرقاوي، مكتبة، 267. وعنوانه عنده فصل الكلام في حكم السلام.

67) الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539، ورقات 78- 92. رقمه في الدليل 1898. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2:1301. والشرقاوي، مكتبة، 271. وينظر ما سبق عند رقم . 46

68) الفوائد المتكاثرة.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق، تحت رقم B 2888، ورقات 142- 151 رقمه في الدليل 6698. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 130 والشرقاوي، مكتبة 272وهو عنده : الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة.وانظر أعلاه عند رقم 46.

69) في والدي النبي.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 19- 24. رقمه في الدليل 899. وللسيوطي خمس مؤلفات في والدي النبي (صلعم)، وهي :

1- الدرج المنيفة في الآباء الشريفة، ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 186.

2- السبل الجلية في الآباء العلية، ذكره له الشرقاوي، مكتبة 220.

3- مسالك الجنان في والدي سيد الأكوان. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 316.

4- مسالك الحنفا في والدي المصطفى، ذكره له الشرقاوي، مكتبة 3165

5- نشر العلمين المنيفين في أحياء الأبوين الشريفين، الشرقاوي، مكتبة، 367.

وقد يكون المذكور في العنوان أعلاه أحد هذه المؤلفات.

70) القول الفصيح في تعيين الذبيح.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت 539 D ورقات 24– 26. رقمه في الدليل 2509. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1364:2. والشرقاوي، مكتبة، 281.

71) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم 1141 A – ورقا 116-122.

رقمه في الدليل 885. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 1491:2 والشرقاوي، مكتبة، 289.من مخطوطاته بالمغرب :

بالخزانة العامة بالرباط

1– نسخة رقم 1241 D

بالخزانة الصبيحية بسلا

2– نسخة رقم 249/6. ترتيبها في الدليل 630ص 297.

بخزانة تمكروت

3– نسخة رقم 1472– يا – ترتيبها في الدليل 885، ص 82.

4– نسخة رقم 2358– ح – ترتيبها في الدليل 2610، ص 154.

5– نسخة رقم 3079– يا – ترتيبها في الدليل 3900، ص 209.

6– نسخة رقم 3079– يه – ترتيبها في الدليل 3904، ص 209.

72) كوكب الروضة .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم 617 B. رقمه في الدليل 9625.ذكره له : الشرقاوي، مكتبة، 294.

73) اللفظ الجهوري في رد خباط الجوهري (كذا) .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 158– 161 رقمه في الدليل 893. وفي العنوان تصحيف، فهو : اللفظ الجوهري في رد خباط الجوجري، ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1558. والشرقاوي مكتبة ، 299.

74) مختصر الإنصاف في تمييز الأوقاف.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 2134، ورقات 100–101 رقمه في الدليل 4752. وهو اختصار لكتاب : الإنصاف في تمييز الأوقاف، انظر: الشرقاوي مكتبة، 93. ولم يذكر هذا المختصر عند جامعي مؤلفات السيوطي، فيستدرك.

75) مختصر منتهى (كذا) العقول في منتهى النقول.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 1422. رقمه في الدليل 9942. وفي العنوان تصحيف، فهو : مختصر مشتهى العقول في منتهى النقول . ذكره له الشرقاوي ، مكتبة ، 310.

76) المذهب فيما وقع في القرآن من المعرب .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ، ورقات 372– 379 رقمه في الدليل 378. ذكره له الشرقاوي ، مكتبة ، 360.

77) المسارعة في المصارعة .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 29– 31. رقمه في الدليل 891. ذكره له حاجي خليفة، كشف الظنون، 2:1660 والشرقاوي، مكتبة، 316.

78) المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 109– 112 رقمه في الدليل 1899. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1729، والشرقاوي، مكتبة، 322.

79) المعتصر في تقرير عبارة المختصر.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 126– 113 رقمه في الدليل 4753. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1731، والشرقاوي، مكتبة، 323.

80) مفاخرة بين السماء والأرض.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق ، تحت رقم D 539 ورقات 302– 303 رقمه في الدليل 9176.

لم يذكره له أحد، فيستدرك.

81) مقامة الفارق بين المصنف والسارق.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 251–256 رقمه في الدليل 9177. ذكره له : حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1215– الشرقاوي، مكتبة، 335.

82) المقامة الفستقية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 259–260 رقمه في الدليل 9178– ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 342.

83) المقامة اللؤلؤية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 267–271 قمه في الدليل 9180 – ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 344.

84) المقامة المذهبية في الحمى.

مسجل بمكتبة الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 231– 232. رقمه في الدليل 10308، ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 340. ومن نسخه في المغرب مخطوط خزانة تمكروت رقم 3091أ 2– مرتبة عند رقم 3923 في ص 209 من الدليل.

85) المقامة المزهرية وتسمى النجح في الإجابة إلى الصلح .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539 ورقات 250– 251 رقمه في الدليل 9181. ذكرها له حاجي خليفة، كشف الظنون، 2: 1930 الشرقاوي، مكتبة، 345. ومن نسخها في المغرب، مخطوط خزانة تمكروت، رقم 2/3091– رقمها الترتيبي في الدليل 3923عند الصفحة 209

86) المقامة اللازوردية في موت الأولاد والذرية.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 113– 116 رقمه في الدليل 9176. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 345.

87) المقامة الياقوتية .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539، ورقات 260– 263 رقمه في الدليل 9182. ذكره له الشرقاوي، مكتبة، 351.

88) منازل الأرواح وتعلقها بعد الموت بالأشباح.

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 196– 207 رقمه في الدليل 1900.

لم يذكره له أحد ، فيستدرك .

89) المنحة في السبحة .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 265– 267 . رقمه في الدليل 892. ذكره له : حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 2:1866 والشرقاوي ، مكتبة 357من نسخه في المغرب :

بالخزانة العامة بالرباط

1– نسخة رقم 1370. D

بالخزانة الصبيحية بسلا

2- نسخة رقم 1/374رقم ترتيبها 660، ص 310من الدليل .

3- نسخة رقم 11/456رقم ترتيبها 551، ص 264.

90) المنجلي في تطور الوالي .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 5- 8. رقمه في الدليل 1902. ذكرها له : حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 1859:2 والشرقاوي ، مكتبة 356. وهو عندهما : المنجلي (أو القول المنجلي) في تطور الولي .

91) المنهج السوي والنهل الروي في الطب النبوي .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 1026. ورقات 5- 84 ورقمه في الدليل 10309. ذكره له : حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 1882:2 والشرقاوي ، مكتبة 359. ومن نسخه في المغرب :نسخة الخزانة الحسنية بالرباط ، مسجلة تحت رقم 2877ضمن مجموع ، وردت عند رقم 140من الدليل .

92) نبذة من علامات المهدي .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 628. في ورقة واحدة رقم 6. رقمه في الدليل 894. وانظر صلته بالمؤلفين التاليين : البرهان في علامات مهدي آخر الزمان الذي أورده له الشرقاوي ، مكتبة ، 105 و العرف الوردي في أخبار المهدي الذي أورده له الشرقاوي ، مكتبة ، 254 . فإن لم يطابقها فهو مما يستدرك .

93) نزول الرحمة في التحدث بالنعمة .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 168- 169 رقمه في الدليل 897. ذكره له الشرقاوي ، مكتبة ، 366.

94) نور الشقيق في العقيق .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 154– 157 رقمه في الدليل 898، ذكره له الشرقاوي ، مكتبة ، 376.

95) الهيئة السنية في الهيئة السنية .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم B 2479. ورقات 47– 58 رقمه في الدليل 9786. ذكره له : حاجي خليفة ، كشف الظنون . 2:2047 والشرقاوي ، مكتبة ، 378.

ومن نسخه في المغرب ، نسخة خزانة تمكروت مسجلة بها تحت رقم 2789أ ، رقم ترتيبها في الدليل 3390، ص 188.

96) الوجه الناضر فيما يقبضه الناظر .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 179– 180 رقمه في الدليل 4754. ذكره له : الشرقاوي ، مكتبة ، 379.

97) الوديك في فضل الديك .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 8– 14. رقمه في الدليل 9183. ذكره له : حاجي خليفة ، كشف الظنون ، 2:2005 الشرقاوي ، مكتبة 380.

98) وقع الأسل في ضرب المثل .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم D 539. ورقات 161– 164 رقمه في الدليل 177. ذكره له : حاجي خليفة ، كشف الظنون . 2: 2024، والشرقاوي ، مكتبة ، 383.

99) كتاب الصيام .

مسجل بمكتبة معهد الاستشراق تحت رقم A.153. ورقات 40– 69. رقمه في الدليل 4751.لم يذكره له أحد ممن جمعوا مؤلفاته ، فيستدرك .

مصادر

- حاجي خليفة ، مصطفى الرومي .
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (كشف الظنون) دار الفكر ، 1402– 1982مجلدان .

- حجي محمد .
فهرس الخزانة الصبيحية بسلا .
منشورات معهد المخطوطات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ،الكويت 1985/1406.

- الخطابي محمد العربي .
فهارس الخزانة الملكية .
المجلد الثاني : الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات .
الرباط 1982/1402.

- الشرقاوي ، أحمد إقبال .
مكتبة الجلال السيوطي (مكتبة) .
مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر . سلسلة الفهارس (2)
الرباط 1977/1397.

- علوش ، ي س والرجراجي عبد الله .
فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة برباط الفتح .
القسم الثاني /الجزء الأول ،باريس ، المكتبة الشرقية والأمريكية ، 1954.

- عنان ، محمد عبد الله .
فهارس الخزانة الملكية .
المجلد الأول ، فهرس قسم التاريخ وكتب الرحلات .
الرباط 1400- 1980.
- المنوني ، محمد .
دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت .
مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤوون الإسلامية . 1985/1405.
Levi - Provençal. E
Les manuscrits arabes de Rabat, Paris, Ed: E. Leroux, 1921

رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وقته*

أولا : شكل الرسالة النبوية الكريمة.

نشـــرت مجلـة "الوثيقـة" وهـي دوريـة يصدرهـا مركـز الوثـائق التاريخيـة بدولـة البحرين، في عددها الأول (رمضان 1402–يوليـو 1982) بحثـا للدكتـور عبـد اللطيـف كانو بعنوان : رسائل النبي صلى الله عليه وسـلم للأباطرة والملوك والأمراء. وهو مقال في ست وثلاثين صفحة (ص 36 إلى 72) جيـد التوثيـق، قدم فيه ظروف بعث الرسائل النبوية، وهي تسع رسـائل، إلـى قيصـر الـروم ونجاشـي الحبشـة وكسـرى عظيـم الفرس والمقوقـس ملـك مصـر وملك عمان وملك اليمامة وملك اليمن وملك تخوم الشـام وأمـير البحريـن. ثم تتبع الباحث وصف هذه الرسائل، متخذا في ذلـك تصميمـا واحـدا حيـث يصـف نص الرسالة ويتحدث عن شخصية

* تعقيب علـى الـدرس الدينـي الـذي ألقاه الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري، وزيـر الأوقـاف والشؤون الإسلامية، في حضرة صاحب الجلالة يوم 5رمضـان 1412موافق 10مارس 1992فـي موضـوع «الحـوار بـين الحضـارات انطلاقـا من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله »

السفير وظروف تسليم الرسالة والرد الذي قوبلت به. وخص الرسائل التي ما تزال صور منها محفوظة بنبذة يشرح فيها الخط الذي كتبت به والمادة المستعملة فيها، ويتتبع تاريخها إلى أن يذكر المكان الذي توجد به اليوم. وقد جاء ضمن هذه الرسائل صورة لأصل الرسالة التي بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم، هذه صورة منه

ثانيا : أول ذكر في المغرب لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل.

في سنة 605هـ/ 1209م بدأ الخليفة الموحدي الناصر في إعداد العدة للجواز إلى الأندلس بعد أن استغاث به أهلها. فجاز إليها، واستقر بإشبيلية في 17 ذي الحجة 607 (2يونيه 1211). وجاءه وهو فيها أحد ملوك الفرنج، وهو ملك بيونة، طالبا الصلح. ولما دخل عليه "..قدم بين

بديه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم، يستشفع له به، ويعلمه أن الملك عنده موروث كابرا عن كابر. فكان هذا الكتاب عندهم يتوارثونه محفوظا مطيبا في حلة خضراء في وسط صندوق من ذهب مملوءا مسكا تعظيما له وإجلالا لحقه"[1]

ونظن أن الملك المسيحي المذكور استرجع الكتاب، حيث أن هذا الجواز انتهى بفاجعة العقاب (15 صفر 609/ 16 يوليوز 1211) التي اندحر فيها الجيش المغربي، وفر الخليفة الناصر بنفسه، ووقع في المسلمين قتل كثير .وما كانت ظروف الفرار والهزيمة لتمكن من ضبط النفس وترتيب خزائن الخليفة.

ثالثا : اعتناء السلطان العلوي مولاي إسماعيل بالموضوع.

بعث السلطان مولاي إسماعيل إلي ملك فرنسا لويس الرابع عشر بتاريخ 2 رمضان 1092 موافق 15شتنبر 1681 رسالة في موضوع كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي هرقل الروم. وقد ضاع أصل رسالة مولاي إسماعيل، لكن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مازال يحتفظ بأصل الترجمة الفرنسية للرسالة الإسماعيلية، وهي الترجمة التي أنجزها كاتب الملك الفرنسي وترجمانه، ويسمى بير ديبي. وقد نشر الدكتور عبد الهادي التازي صورة هاته الرسالة في موسوعته، التاريخ الدبلوماسي للمغرب (المجلد 1، ص : 217)

وقد ظل السلطان مولاي إسماعيل يعتقد أن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حوزة الملك الفرنسي، كما يظهر في رسالة منه إليه بتاريخ 15 ربيع الثاني 1093موافق 23 أبريل 1682، هذا نصها :

---

[1] الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لعلي ابن أبي زرع الفاسي – طبعة دار المنصور. 1973–ص 235

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه وبعد :

من عبد الله تعالى الإمام ملك المغرب وما والاه من أقطار الإسلام أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين الشريف الحسني، أيد الله أوامره وخلد مفاخره الكريمة ومآثره، أمين .

إلى عظيم الروم الإنبراضور بالبلاد الفرنسية الرابع عشر من هذا الإسم، السلام على من اتبع الهدى

أما بعد، اعلم لقد بلغنا أصحابنا صحبة كتابك وذكروا لنا خيرك ومباشرتك لهم وشكروا لنا فعلك بهم واستحسنا بروزك بهم وفرحك بجميعهم فكذلك ينبغي لك أن تكون إذ أنت من سلالة عظيم الروم الذي كتب له جدنا وسيدنا فلا نرضى نحن أن نتكلم إلا معك، لأنك قابض على أمرك وكلام طاعتك مقصور على رأسك وأما الأجنا س الأخرى فكلامهم عند أهل ديوانهم ولا يبلغون منزلتك عندنا أبدا لما نعلمه من علو همتك عليهم فأنت الذي تستحق أن تكون إنبراضور على سائرهم ولا يستحق تاجهم إلا أنت لأن يدك هي العليا عليهم بحدافرهم، وفي اليوم الذي يصلنا انبشادور من عندك فلا يعود إليك إن شاء الله إلا بما يسرك ويرضيك وكذلك ليس لك عندنا إلا ما تريده وتشتهيه في خاطرك والسلام

وكتب خامس عشر ربيع الثاني ثلاثة وتسعين وألف.

رابعا : أين توجد هذه الرسالة اليوم ؟

أكد الدكتور عبد اللطيف كانو[2] أن الرسالة النبوية الكريمة هي اليوم لدى الملك حسين بن طلال ملك الأردن، الذي صرح في بلاغ في

---

(2) المقال المذكور، ص 54

أبريل 1977عـن حيازتـه لهـا جاء فيه : "حفظا للأمانة التي انتهت إلينا.. فقد ارتـأيت أن أبقيها بعون الله في مسجد الهاشمية في ذلك الموقع من بلدنا الذي يطل على الوادي الأخضر كما يطل على القدس الشريف".

تأملات في منهجية كتابة تاريخ المقاومة*

أكاد أجد بعض الحرج في إلقاء ما فكرت فيه بعد العرض المسهب الذي تقدم به السيد المندوب السامي والذي أشرف به على بعض وجوه المقاومة في المنطقة الاقتصادية الوسطيالجنوبية. لكن طبيعة المحور الذي أبت اللجنة المنظمة إلا أن تجعله موضوعا للجلسة الأولى تخفف عني بعض ما ذكرت من حرج.

إن هذا العرض لا يزيد عن يكون تأملات لا ترقى إلي اليقين ولاتسمو إلي الحقيقة المطلقة، وإنما هي أفكار تروج وتحتاج إلى حوار ونقاش لتترسخ إن توفرت على صحة لازمة أو تنسخ إن هي لم تتوفر على الصحة المطلوبة، هي مجموعة أفكار تتعلق بكيفية كتابة تاريخ المقاومة المغربية عموما، تمكن الباحث من أن يضع بين يديه، بشكل إجمالي، موضوعا محدودا من عدة جوانب، فهو موضوع محدود في الزمان : فالمقاومة مرتبطة بالاستعمار واستقر هذا ببلادنا رسميا منذ سنة 1912 وانتهى رسميا سنة. 1956 هذه الحدود تمكن الباحث من أن

* عرض قدم في الندوة التي نظمتها كلية الآداب بمكناس، بتعاون مع المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، بتاريخ 20-21 أبريل 1992.

يتناول الموضوع بالأدوات المعرفية التي تطبق عادة على دراسة فترات قصيرة ومتوسطة.

والموضوع ثانيا محدود من حيث المكان، من حيث الجغرافية ؛ فهو يتحرك في إطار المغرب، أو في إطار المنطقة المكناسية أو غيرها من المناطق .

والموضوع محدود من حيث أبطاله، فهو تصادم وتجابه بين مستعمرين وبين شعب يريد التخلص من ذلك الاستعمار .

وهو أيضا موضوع محدود الأهداف، فهدف المقاومة الوصول إلي الاستقلال، منطلقها عدد من المبادئ العامة مثل الحرية و السيادة، إلى غير ذلك من المبادئ التي تقود أية عملية تحريرية.

هكذا إذن، يظهر من الوهلة الأولى أن موضوع المقاومة يجب أن يكتب على أساس هاته النظرة البسيطة التي تبين الأمور في هذا الإطار المحدود، باعتبار هذه العناصر والمكونات التي تكلمت عنها .

غير أن الواقع ليس بهاته البساطة ؛ فمن الناحية الزمنية ليست الحدود التي أشرت إليها صحيحة، فالمقاومة التي هي أساسا مرتبطة بالاستعمار لم تبدأ سنة 1912، ذلك أن سنة 1912ماهي إلا خلاصة مسلسل بدأ لاأقول قبل بضعة عقود بل أقول بضعة قرون قبل سنة 191 ، يجب إذن عوض الوقوف عند هذه التواريخ المضبوطة، محاولة الرجوع إلى الوراء للوصول إلى الأسس التي جعلت دولة هي الدولة الفرنسية تبرم اتفاقية الحماية مع دولة هي الدولة المغربية وان تقنع عملية إحكام الاستعمار في شكل معاهدة دولية .

إن هذا المكون الزماني يظهر وكأنه يلزمنا بالخروج من الإطار الضيق الذي حددنا فيما قبل وأن نرجع لنتساءل عما هي الأشياء

والعناصر التي جعلت المغرب يفقد بكيفية تدريجية، وشيئا فشيئا، سيادته وترابه قبل عقد الحماية بعدة قرون ؟ ما هي العناصر التي تحكمت في تطور مجتمعنا وفي تطور مجتمع المستعمر لتجعل هذا يقع في الاستعمار وذاك يستعمر ؟

أما العنصر الثاني فيهم المعطى الجغرافي .وواضح أن هذا المعطى يتعلق بالرقعة والحدود، ولكنه يرتبط إلى جانب ذلك بأهمية الموقع والدور الذي يمكن أن يلعبه غلى المستوى العالمي تجارة واستراتيجية . وهاته المعطيات الجغرافية وهذه العناصر كلها المرتبطة بالموقع لعبت دورا ما في وصول البلاد إلى وضعية الاستعمار وبالتالي في بداية المقاومة.

العنصر الثالث يتعلق بأبطال الصراع، ولا أعتقد أن المنطق العلمي يسمح بأن نعمم المسألة ونجعلها صراعا بين شعب يقاوم وقوة مستعمرة .من هو هذا الذي يقاوم ؟ هل كان كل المغاربة ضد وجود الاستعمار ؟ ما هي حدود الترابط بين الفئات التي رفضت المستعمروبين تموقعها الاجتماعي والاقتصادي ؟ وما هي حدود الفئات التي ربما وجدت في هذا الاستعمار فرصة للاستفادة من مقومات ما أو معطيات ما ؟ كذلك الحال بالنسبة للدولة الفرنسية إلى أي حد كانت التطورات التي عرفتها السياسة والمجتمع والاقتصاد في فرنسا - سواء في القرن 19 أو القرن - 20 والتي جعلت فئة اجتماعية دون أخرى تتمكن من أن تقنع دولة ذات سياسة خارجية بأن تصل إلى ما وصلت إليه في وجودها في المغرب كمستعمر ؟

العنصر الأخير يتعلق بالأهداف التي كانت تسعى المقاومة إلى تحقيقها .هل كان هدف المقاومة يقف فقط عند حدود التخلص من الاستعمار؟ أليس من الأجدى أن تعتبر حركة المقاومة حركة اجتماعية

كـانت لهـا أيضـا أهداف سياسية و كانت لها برامج و مخططات سياسية. وكـانت لهـا نظـرة خاصة لتنظيم اجتماعي ولتنظيم سياسي في المغرب. يمكننـا طـرح السـؤال بكيفية أخرى، ألازلنا نعيش اليوم تفاعلات مرحلة الحماية و تفاعلات مرحلة المقاومة ؟

هـذه إذن تساؤلات، يظهرأنها لا تخلو من وزن علمي، تجعلنا نشير مـن هـذا المنطلـق إلـى أن تاريخ المقاومة يجب أن يعالج كموضوع تاريخ سياسـي أو عسـكري بعمليـات فدائيـة وبعمليـات عسكرية بين المستعمر وبـين المقاومـة، بـل يجب أن نخرج من هذا الاطار الموضوعي الضيق من تحليـل تـاريخي سياسـي إلـى تحليـل أوسع يأخذ بعين الاعتبار مجموع مقومـات المجتمـع المغربـي التي جعلت فئات من البداية تواجه المستعمر، ونبحـث عـن مـدى تفـاعل مـا هـو شعور وطني محض، وما هو شعور وطنـي ممزوج بعناصر مادية، وأن نقيس نسبة تفاعل هذه المكونات .إذن منهـج دراسـة تاريخ المقاومة يجب أن يدخل في إطار أوسع، في إطار ما يسـمى بالتفـاعلات التاريخيـة التـي تـأخذ بعـين الاعتبـار كـل مقومات ومكونـات المجتمـع، من فكر واقتصاد وجغرافية وسياسية، ليكون إدراكنا لتـاريخ المقاومـة غـير ذلـك الإدراك السـطحي الـذي يجعـل منـه مجـرد اصطـدام بـين المستعمر والمستعمر، بل حركة اجتماعية أفرزت في طريقها المقاومـة، وأفـرزت أيضـا فـي طريقهـا تحـولات اجتماعيـة لازالت بعض تموجاتها تصل إلى الوقت الحالي.

هكـذا إذن نتساءل عن أية مقاربة يمكن أن نلتزمها حين كتابة تاريخ بلادنـا وبـالأخص تـاريخ المقاومة المغربية .هنـاك مشـكل أساسـي،هـو عاطفيـة الموضوع نفسه، أتذكر برنامجا تلفزيونيا كان يذاع في السبعينات مـن إعـداد المرحـوم الطـاهر بلعربي وكنت في كل حلقة أستمع إلى زعيم يعتبر نفسه منفردا بقيادة الحركة الوطنية. وكنت أتساءل أين هي الحقيقة فـي مـا أسـمع، بالنسـبة لمواطن مغربي لم يتح له أن يعيش هذه الفترة،

ويريد فقط أن يعرف الحقيقة. الحقيقة إذن تنطلق من اتجاهين، أولا وهنا أتوجه إلى المندوب السامي للمقاومة وجيش التحرير لأدعوه إلى مواصلة مجهود تجميع أكثر ما يمكن من المعلومات ومن الشهادات ومن الوثائق المتعلقة بتاريخ المقاومة، لا أحد ينكر أن المندوبية السامية تقوم بمجهود تشكر عليه، وتجمع وتنشر عددا من الوثائق، ولكن الكثير من الشهادات نكاد نخسرها تكاد تضيع دون أن تترك أي أثر، فلا بد إذن من تجميع الشهادات بكيفية مستعجلة وعلمية ومضبوطة من جميع مظانها. و بموازاة هذه العملية لا بد إذن أن ترصد الاعتمادات وأن تجمع و ترتب و تصنف لتسهيل عملية أخرى بجانبها وهي عملية البحث التاريخي الذي ينظر في هاته الشهادات و هذه الوثائق ويميز، بواسطة مناهج التاريخ المعروفة، بين ما هو صحيح وما هو غير صحيح ويقدم لنا صورة أقرب ما يمكن من الصحة عن تاريخ المقاومة في بلادنا.

وأتوجه في الأخير إلى الزملاء الأساتذة وإلى الباحثين وإلى طلبتهم أن يولوا هذا الجانب بعضا من اهتماماتهم، ذلك أن البحث التاريخي في بلادنا بحث يجب أن يكون موجها ويجب أن يخضع لسياسة وأن يخضع لمخطط ولأشد ما كان يؤسفني عندما كان يتقدم بعض الطلبة لتسجيل مواضيع للبحث في تاريخ الكشوف الجغرافية الكبرى أو في تاريخ الثورة الفرنسية. فإلى أي حد تستفيد المعرفة التاريخية من أبحاث في مواضيع قتلت بحثاوإلى أي حد يستفيد البحث التاريخي في المغرب من أبحاث متعلقة بأمور بعيدة عنها مثل هاته البحوث. قد لا يتفق معي الكثير من الباحثين ولكن هذه انشغالاتنا .فاللازم أن تخصص فقرات من الحصص المخصصة للبحث لتعويد الطالب المغربي المبتدئ ا على أن يهتم بهذا الموضوع وعلي أن يساهم على الأقل بجمع الشهادات المتوفرة عن الموضوع.

وأتوجه في الأخير إلى الزملاء الأساتذة وإلى الباحثين وإلى طلبتهم أن يولوا هذا الجانب بعضا من اهتماماتهم، ذلك أن البحث التاريخي في

بلادنا بحث يجب أن يكون موجها ويجب أن يخضع لسياسة وأن يخضع لمخطط ولأشد ما كان يؤسفني عندما كان يتقدم بعض الطلبة لتسجيل مواضيع للبحث في تاريخ الكشوف الجغرافية الكبرى أو في تاريخ الثورة الفرنسية. فإلى أي حد تستفيد المعرفة التاريخية من أبحاث في مواضيع قتلت بحثاوإلى أي حد يستفيد البحث التاريخي في المغرب من أبحاث متعلقة بأمور بعيدة عنها مثل هاته البحوث. قد لا يتفق معي الكثير من الباحثين ولكن هذه انشغالاتنا .فاللازم أن تخصص فقرات من الحصص المخصصة للبحث لتعويد الطالب المغربي المبتدئ ا على أن يهتم بهذا الموضوع وعلي أن يساهم على الأقل بجمع الشهادات المتوفرة عن الموضوع.

مغزى تقديم عريضة الاستقلال*

لا شك أن مناسبة مثل التي نحتفل بها اليوم، مناسبة جديرة بأن يخصص لها من الاهتمام والانتباه ما هو واجب في حق حدث مر عليه اليوم نصف قرن، ليتذكر الجميع وضعيتنا كمغاربة ووضعية بلادنا سنة 1944، ويقارنها بما آلت إليه تلك الوضعية بعد نصف قرن من الزمان. ليقارن بين الوضعيتن وليحمد الله على هذا التقدم وعلى هاته النهضة التي عرفتها بلادنا، وليعترف بالفضل للذين حملوا السلاح والقلم وجاهدوا بأنفسهم وبأرواحهم وبأموالهم ليطوروا بلادنا من بلد تابع فاقد لسيادته إلى بلد حر مستقل يمارس سيادته بجميع الوسائل التي يمنحها القانون لهذا الشعب النبيل ليبتدئ العيش اليوم قاطفا ثمار مجهود بذله الجيل السابق.

ودت جامعة المولى إسماعيل أن تهتبل هذه الفرصة، والجامعة اليوم تنوه بعمل النيابة الجهوية للمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير لما بذلته من جهود ليجري هذا اللقاء في هذا الجو العلمي

* عرض ألقي يوم 11 يناير 1994، في الندوة المنعقدة بمكناس بمناسبة ذكرى تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال.

والشعبي في نفس الوقت ليكون مثل ما قال صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله في إحدى خطبه بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب : ليكون كل لقاء من مثل هذا النوع مناسبة للشيوخ ليتذكروا ويفتخروا ومناسبة للشباب ليتعرفوا على جزء مهم من تاريخ بلادهم ربما جهلوا كثيرا من مضامينه. وفي هذا الإطار ننظم هاته الندوة اليوم يساهم فيها عدد من الأساتذة ليعرفوا ببعض الجوانب من تاريخ بلادنا الحديث وخصوصا فيما يتعلق بتقديم وثيقة الاستقلال .

أبدأ بالتذكيربعض الأمور التي يعرفها الجميع، وهي أن المغرب منذ أن تأسس كدولة على يد الأدارسة لم تنجح أية قوة أجنبية في أن تفرض نفسها عليه إلى حدود سنة 1912، ونجح المغرب عكس معظم إن لم أقل كل الدول التي كانت في وضعيته، في المحافظة على هذه السيادة، وتكون لديه إحساس وطني عميق لم تؤثر عملية الحماية فيه أي تأثير، بقدر ما زادته تجذرا والتهابا. فعندما نتذكر أن توقيع عقد الحماية كان سنة 1912وأن آخر عمليات التهدئة - كما يقول المؤرخون الفرنسيون - أي عملية القضاء على المقاومة المسلحة الأولى كان سنة 1937 ونقرن ذلك بسنة 1944، وهي السنة التي نادى فيها المغرب بحقه في الاستقلال، نفهم أن المغاربة لم يخضعوا أبدا للحماية، ولم يتوقفوا طيلة هاته المدة عن المطالبة بالإستقلال، بالسلاح و بالقول وأخيرا بالتعبير الواضح (11 يناير 1944) بتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال .

وثيقةالمطالبة بالاستقلال وثيقة بسيطة في حجمها (حوالي صفحة ونصف)، رفعها موقعوها إلي جلالة المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، وهي موجهة عبر جلالته إلى القوة الحامية آنذاك، الدولة الفرنسية، وإلى جميع الدول المعنية أو المهتمة بالمغرب،من بينها إسبانيا والدول التي وقعت آنذاك على ميثاق الاطلسي .

دراسة الوثيقة تبين أن أهم شيء فيها لم يستغرق إلا بضعة أسطر، وجاء في آخر الوثيقة أن الموقعين يطلبون من جلالة المغفور له محمد الخامس أن يتفضل فيرفع إلي الأمم المعنية بالمغرب طلب المغاربة المتعلق باسترداد سيادتهم والحصول على استقلالهم. فهو طلب مباشر وواضح وصريح يزكى بأمر ثاني وهو أن يسمح للمغرب بأن يصادق على ميثاق الأطلسي كدولة ذات سيادة.

هذا الأمر الأساسي والمهم لم يلق هكذا بغتة بل قدم له بعدد من الحيثيات، عددها عشر حيثيات :

أولها التذكير بأن المغرب حافظ على استقلاله وسيادته مدة 12قرنا في تاريخ كتابة الوثيقة وهذا التقديم يشكل قاعدة ينبني عليها كل الذي يأتي بعده .

الحيثية الثانية التذكير أن عقد الحماية لم يكن في وقته أبدا إنهاء للسيادة المغربية. فمن الناحية القانونية كان عقد الحماية -وإن كان عملية استعمارية -غلف بعدد من التوصيات وعدد من الوعود وعدد من المشاريع، الذاهبة إلى أن دور السلطة الحامية هو تطوير المجتمع المغربي في جميع مناحي الحياة.فالوثيقة تذكر بأن عقد الحماية أساسا لم يكن لإنهاء السيادة ولم يذكر لا من الطرف الفرنسي ولا من الطرف المغربي بأنه إنهاء للسيادة المغربية .

ثم تستطرد الوثيقة أن هذا العقد الذي هو في جوهره ليس تغييرا للسيادة، قد تطور إلي أن أصبحت السلطة الحامية هي التي تسير البلاد و إلى أن أصبح المعمرون يستغلون خيرات البلاد وإلى أن أصبح الشعب المغربي يعيش في دولة ليس له فيها من الأمر شيء، فكأنما هناك تذكير بالمواثيق الدولية و تذكير بكيفية تطور هذه المواثيق، فالحيثيات الثالثة والرابعة والخامسة كلها سارت في هذا الاتجاه .

الحيثيـة السادسة تذكر بما يسمى بالظرفية العامة.فسنة 1944 هـي السـنة مـا قبـل الأخـيرة لنهايـة الحرب العالمية الثانية، وأهم ما صرح به رؤسـاء الـدول العظمـى آنـذاك هـو أن دخـول الولايات المتحدة الأمريكية الحـرب كان تحت شعار القضاء على النازية و الدفاع عن الديمقراطية و تبنـي مبـادئ دولية جديدة أهمها حق الشعوب في تسيير نفسها بنفسها وفـي تقرير مصيرها و المساواة بين الشعوب دون اعتبار قوة وضعف أو صغـر أو كـبر، فكأنمـا هنـاك نظام دولي جديد ظهر سنة 1944 حملت مشعله ومشعل الدعوة إليه الولايات المتحدة الأمريكية.

وقـد اسـتغل الزعمـاء السياسـيون فـي المغرب هذه الظرفية الدولية مذكرين -وهذه هي الحيثية السابعة -بـالدور الـذي قـام بـه المغاربة في الدفـاع عن فرنسا وفي محاربة النازية و في مشاركة الجنود المغاربة مع الحلفـاء في كل الواجهات الحربية، حاملين شعارا واحدا وهو الاستقلال والحريـة لإيطاليـا ولفرنسـا ولكل الدول التي كانت خاضعة آنذاك للوجود الالمـاني النـازي، فكيـف يعقـل إذن، وهـذا هـو المنطق، أن يحرم المغاربة الذيـن ضحـوا بدمـائهم في سبيل استرجاع دول أوروبية لاستقلالها من ذلك الاستقلال.

وتـأتي الحيثيـة الثامنـة لتشير إلى بدايات الحركات الاستقلالية في بعـض الـدول الإسـلامية، فـترى أن المغرب أحق من غيره من الدول في الاسـتقلال نظرا لكونه يتوفر على المقومات القانونية للدولة من أرض ومن شـعور وطنـي ومـن صلـة بين الناس ومن نظام سياسي عريق، فتطالب هـذه الحيثيـة بـأن يؤخـذ بعين الاعتبار وضعية المغرب ومقومات سيادته بـالنظر للـدور الـذي لعبه في الحرب وبالنظر للظرفية العامة، التي كانت تصب كلها في مصب واحد وهو احترام سيادة الشعوب.

وعلى مجموع هذه الحيثيات إذن تنبني مطالبة المغرب بالاستقلال.

هـذا بشـكل عـام تقديم عام لوثيقة المطالبة بالاستقلال، نستخلص منه بعض الخلاصات :

-أولها وأهمها : لأول مرة، يوم 11 يناير 1944، ينطـق رسـميا وفي وثيقـة موقع عليها بكلمة "الاستقلال" فالحركة الوطنية لم تكن في إطار تطورهـا العـام قـد بلغت قبل هذا التاريخ حد المطالبة بالاستقلال، وكانت قبـل ذلـك تقتصر على المطالبة بتحسين ظروف عيش الشعب المغربي أي تقـف عنـد حـد الدعوة إلى إصلاح نظام الحماية ليعطي للمغاربة مكانتهم داخل نظام الحماية .وفي سنة 1944 نطقـت الكلمة وقيلت الكلمة، المغاربة يطـالبون بالاسـتقلال، وهـذا يعنـي بكيفيـة واضحـة أن المغاربـة عموما وزعمـاء الحركـة الوطنيـة بـالخصوص بتنسـيق تام مع جلالة المغفور له محمـد الخـامس ارتـأت أن الوقت قد آن لتجاوز المطالب الجزئية والتقدم مباشرة بالمطالبة بالاستقلال.

الخلاصـة الثانيـة، أن هاتـه العمليـة كـانت تقتضـي نمـوا وتطورا ونضجـا في الحركة الوطنية التي أصبحت تحس بأنها غدت قادرة كحركة وطنيـة علـى تسـيير البـلاد بنفسها.ولهذا لم يكن من الغريب أن نجد من بـين المطـالب التـي جاءت في هاته الوثيقة مطلبين على المستوى العام ؛ يتعلـق الأول بفسـخ عقـد الحمايـة والمطالبـة بالاسـتقلال، ويهـم الثاني الأمور الداخلية. فبكيفيـة مؤدبـة رزينـة تطلـب الحركة الوطنية من جلالة المغفـور لـه محمـد الخـامس أن يتفضـل بـالنظر فـي إمكانيـة إصلاح الأوضـاع السياسـية، وكـان المقصـود آنـذاك إقرار نظام دستوري. ففي وقـت واحـد تطـالب الحركـة الوطنيـة بالاستقلال، وبتنظيم العلاقات بين الأفراد في إطار ما سمته الوثيقة بالإصلاح أو النظام الدستوري.

الخلاصة الثالثة تتمثل في مساهمة الحركة الوطنية - التـي تبلورت في توقيع وتقديم عريضة المطالبة بالاستقلال - فـي التطور العام لتاريخ

البشرية. يعتقد البعض أن التطور التاريخي هو الذي أملى على القوة الاستعمارية وضع نهاية للاستعمار، وأن القوى الاستعمارية في مختلف أنحاء العالم قدمت كهدية استقلالا للشعوب. لولا المقاومة، لولا تنغيص حياة المستعمر يوميا، لا في المغرب، ولا في كل الدول المستعمرة لما فكرت أية دولة استعمارية في أن تهب للمستعمرة استقلالها. لولا تلك المضايقة اليومية التي جعلت عملية الاستعمار عملية غير مربحة اقتصاديا، وجعلت الاستعمار يفكر في أنه كان يحلم باستغلال شعب وخيرات شعب دون أن يكلفه ذلك شيئا أصبح يلاحظ أن المقاومين المغاربة و المقاومين في كل المستعمرات ينغصون حياة المستعمر بالشكل الذي أرغمه على أن يعترف لتلك الشعوب باستقلالها.

وهنا إذن يجب أن نتذكر الدورالريادي للمغرب في عملية المقاومة هاته. وقد استفدنا منها نحن اليوم بأن أصبح بوسعنا أن نجتمع كما نشاء وبكل حرية ونتذاكر فيما نريد، وأصبح بإمكاننا أن نمارس حياتنا اليومية دون عراقيل. فبفضل المقاومة وبفضل مجهودات المقاومين التي تبلورت في النهاية في هذا الحدث الذي تمثله هاته الوثيقة، وبفضل كل هذه المجهودات أصبح بإمكان الشعب المغربي اليوم أن يعيش بكل سيادة، وأن يمارس حياته بكل سيادة.

وإن أبسط واجبات الاعتراف بالجميل هي أن نذكر دائما شهداءنا فنترحم عليهم و نتذكر الأحياء من المقاومين فنعاملهم بما يجب من احترام في حق من ضحى بحريته أو بماله في سبيل أن يحصل المغرب اليوم على استقلاله.

وإن أبسط واجبات الاعتراف بالجميل هي أن نذكر دائما شهداءنا فنترحم عليهم و نتذكر الأحياء من المقاومين فنعاملهم بما يجب من احترام في حق من ضحى بحريته أو بماله في سبيل أن يحصل المغرب اليوم على استقلاله.

ملامح من شخصية السلطان سيدي محمد ابن عبد الله*

يهدف هذا العرض إلى تبيين بعض الملامح من شخصية السلطان العلوي سيدي محمد بن عبدالله، توطئة وتمهيدا للعروض التي تشتملها الندوة المنعقدة للتعريف به. كما يهدف إلى بسط أوجه الترابط والالتقاء بين هذا السلطان وبين نوعية أنشطة المجلس العلمي الإقليمي لولاية الدار البيضاء الكبرى.

السلطان سيدي محمد ابن عبد الله من ملوك الأسرة العلوية الشريفة، فوالده عبد الله، وجده السلطان العظيم مولاي اسماعيل ابن مولاي الشريف. وقد رفع المؤرخ الضعيف الرباطي نسبه إلى رسول الله صلى عليه وسلم وذكر أنه : "هو أمير المومنين أبو عبد الله محمد بن أمير المومنين مولانا عبد الله بن أمير المؤمنين مولانا اسماعيل بن الشريف بن علي بن محمد بن علي بن يوسف بن مولانا علي الشريف

* ألقي هذا البحث في ندوة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، التي نظمها المجلس العلمي الإقليمي لولاية الدار البيضاء، يومي 21 و 22 يناير 1995.

بـن الحسـن بـن محمد بن مولانا الحسين بن القاسم بن محمد بن أبي القاسـم بـن محمـد بـن محمـد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفـة بـن الحسين بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد بن اسماعيل بـن القاسـم بن الإمام محمد النفس الزكية الملقب بالمهدي ابن سيدنا عبد اللـه الكـامل ابن سيدنا الحسن المثنى بن سيدنا الحسن السبط بن سيدنا علـي ابن أبي طالب وسيدتنا فاطمة الزهراء البتول بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم"

ولـد السلطـان سيدي محمـد ابن عبـد الله بمكناس سنة 1134هـ/- 1721م، وعـاش في كنف والده السلطان مولاي عبد الله. وحج قبل البلوغ رفقة جدته السيدة خناثة بنت بكار المغافرية سنة 1143/1730.

عينه والده السلطان مولاي عبد الله خليفة له بمراكش سنة 1159/1746 وعمـره خمـس وعشـرون سـنة. فقام بواجبه في هذه المنطقة خير قيام ؛ فاسـتصلح أمورهـا، وجـدد بناء الدولة بها. وقضى بها بهذه الصفة زهاء 10 سنين إلى أن بلغـه خبر وفاة والده بفاس يوم 27 صفر 1171 (10 نونـبر 1757). وكـان النـاس قد سئموا الهرج والفتن، وأعياهم الاضطراب، وملوا الحـرب وملتهـم. اذ كـانت أيامـه – لاسيما أخرياتها – كأيام الفترة التي ليـس فيهـا سـلطان. وكـانت حـال الرعية معه مثل الفوضى الذين لاوازع لهـم. فكان ذلك من أقوى الأسباب التي صرفت وجوه أهل المغرب كله إلى بيعـة السـلطان سيدي محمد وجمعت كلمتهم عليه. لاسيما مع ما كان قد ظهـر منـه أيام خلافته من حسن السياسة، وكمال النجدة، وجودة الرأي، وتمـام المعرفة بإدارة الأمور على وجهها، وإجرائها على مقتضى صوابها. حتـى أحبتـه القلـوب وعلقـت بـه الآمال، وعرفت له من بين بني أبيه تلك الشنشـنة، وتضـافرت على ولائه ونصره القلوب والألسنة. فلما قضى الله بوفاة والده بادر أهل فاس إلى عقد البيعة له من غير توقف ولا تريث.

وهكـذا أعلـن علمـاء فـاس بنصـر سـيدي محمـد، وأذن بذلـك يوم الجمعة 28 صفر 1171.وخطـب به في ذلك اليوم على منابر فاس، وكتبت بيعتـه علـى الفـور مـن أهـل فاس بيعة عامة تامة مرضية جامعة لجميع الأمـور الشـرعية محيطـة بجميـع مصالح الرعية. وغادر فاسا جماعة من الأعيـان ووجـوه النـاس وشـرفائها ورؤسـائها مسـتصحبين رسم البيعة ووفدوا عليه بمراكش.

ثـم قدمـت عليـه الوفود بالبيعة من مختلف أنحاء البلاد، لم يتخلف عنهـا أحـد مـن أهـل المغـرب. فجلـس للوفـود إلـى أن فـرغ من شأنهم وأجـازهم. فكانت بيعته العامة بمراكش بجامع الكتبيين بمحضر الأشراف والعلمـاء والأعيـان وقـواد الجند وأبطال القبائل. وبعد انتهاء البيعة تهافت الجميع على مراسيم التنويه والتهنئة بالسلطنة.

وهكـذا بدأ عهد السلطان سيدي محمد ابن عبد الله، الذي قضى في خدمـة أمور البلاد زهاء ثلث قرن إلى وفاته ليلة الاثنين 26 مـن رجـب 1204 (11أبريل 1790) وهـو فـي طريقه إلى الرباط بين واد الشراط وواد يكم. ودفن بالرباط.

علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمدينة الدار البيضاء

في سنة 1173، ولـم يكـد يحـول الحـولان على توليه شؤون البلاد، قـام السـلطان سـيدي محمد ابن عبد الله بجولة في عموم أرجاء مملكته، وخـص المـدن الساحلية منها بعناية متميزة. وهكذا زار تطاوين ونزل بها وأمر ببناء برج مارتيل .ثـم سـار إلـى طنجـة، مارا بسبتة قصد الوقوف عليهـا واختبـار حالهـا، وبهـا أمر بتعيين عدد من الرماة لحراسة نواحيها والوقـوف علـى حدودهـا، منتظرا أن تتهيأ الفرصة لها. وبلغ طنجة ومنها إلـى العرائـش،فـترك بهـا حاميـة مـن جيـش العبيـد. ثم وصل إلى سلا

فالربـاط حيـث بنى برجا كبيرا على البحر.كما شمل اهتمامه مدينة آسفي حيث جدد مسجدها الكبير وبنى مدرستها، ومدينة تيط وبنى بها مسجدا.

وبلـغ مـن اعتنائه بالثغور الساحلية ان أمر ببناء مدينة جديدة هي مدينة الصويرة.

وفـي نفـس السـياق، اهتـم بمدينـة أنفـا، إذ إليـه يرجع الفضل في إحيائهـا بعـد أن اندثـرت رسـومها وانطمست معالمها. فجدد بناءها ورفع قواعدهـا وبنـى بهـا المسـاجد والحمامـات واتخـذ بهـا المعاقل الجهادية. وأسكن بها ألفا من أجناده. فقصدها التجار من جميع أقطار البلاد.

وقـد ذكر المؤرخون في سبب اعتناء السلطان بمدينة أنفا أنه خرج من مدينة الصويرة في ربيع الثاني 1199(فبراير 1784) لناحيـة سلا فنزل بـالدار البيضـاء. فـرأى مرسـاها فأعجبتـه ووبخ أهل الرباط لأنهم كانوا يعيبونهـا له، لأنهم كانوا يخافون من عمارتها. فأمر ببنائها وببناء السور، وأذن للنصـارى أن يحملوا منها الزرع وعمل على الشاوية القائد عبد الله الرحمـاني، وأمـره أن يبنـي داره بـالدار البيضـاء. وسـرح وسـق القمح للنصـارى وأعفـاهم ممـا يفـرض عادة عليه من ضريبة، تشجيعا للتجارة واستجلابا للتجار.

علاقة السلطان سيدي محمد ابن عبد الله بالعلم والعلماء

اعتـبر السـلطان حملـة العلـم مواطنـين متميزين على غيرهم بميزة العلـم. ويظهـر ذلـك فـي مراسـلة كتبهـا للملك الاسباني في شأن بعض الأسـرى المسلمين عنده، حيث جاء فيها أنه يتعين عليه أن يعتني بخواص المسـلمين مـن أهل العلم وحملة القرآن، وأن لا يسلك فيهم مسلك غيرهم مـن عامـة الأسـارى إلـى أن قـال : «مثـل مـا نفعـل نحن بأسراكم من الفرايلية فإننا لا نكلفهم بخدمة ولا نخفر لهم ذمة».

وفعلا، فقد كان السلطان سيدي محمد ابن عبد الله رحمه الله محبا للعلماء وأهل الخير مقربا لهم لا يغيبون عن مجلسه في أكثر الأوقات. وكان يحضر عنده جماعة من أعلام الوقت وأئمته، منهم الفقيه العلامة المشارك أبو عبد الله ابن الإمام سيدي عبد الله الغربي الرباطي والفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله سيدي محمد المير السلاوي، والفقيه الدراكة أبو عبد الله محمد الكامل الرشيدي، والفقيه السيد أبو زيد عبد الرحمن المدعو بأبي خريص. هؤلاء هم أهل مجلسه الذين كانوا يسردون له كتب الحديث ويخوضون في معانيه، ويؤلفون له ما يستخرجه من الأحاديث على مقتضى إشارته. وكانت له عناية كبيرة بذلك، وجلب من بلاد المشرق كتبا نفيسة من كتب الحديث لم تكن بالمغرب، مثل مسند الإمام أحمد، ومسند أبي حنيفة وغيرهما.

ولم يقتصراعتناؤه على فطاحل العلماء، بل كانت صلاته في كل عيد تأتي الطلبة والمؤذنين والقراء وأئمة المساجد. وكان إلى جانب عنايته بالعلماء معدودا منهم، حتى حلاه نجله عبد السلام في كتابه "درة السلوك وريحانة العلماء والملوك" بسلطان العلماء وعالم السلاطين. وقال في حقه عبد السلام القادري : "كان إماما من علماء الإسلام، له تصانيف تقرأ بالمشرق والمغرب" وخصص له صاحب الإتحاف بابا عنوانه : "محبته للعلم واعتناؤه بأهله"، ذكر فيه أنه كان له اعتناء زائد زمن خلافته بمراكش بمطالعة كتب الأدب والتاريخ والسياسة وأقوال العرب وأيامها، حتى فاق في ذلك معاصريه وصار المرجوع إليه فيه.وقال عنه الزياني وغيره ممن عاصره وخالطه ": كان يستحضر كل ما يطالعه حتى كاد أن يحفظ كتاب الأغاني برمته لا يعزب عنه فيه إلا ما نذر".

وبعد أن تولى الملك، أكب على مطالعة كتب السنة وولع بسرد كتب السيرة والحديث. فحصلت له بذلك ملكة في السنة وأحكامها، وجلب من المشرق ما لم يكن بالمغرب من مصنفاتها. وقد خصص ظهر أيام الجمعة لجلسات علمية يجالس فيها الفقهاء والعلماء الوافدين عليه من

مختلف أرجاء البلاد. كما رتب أوقاتا لسرد الأحاديث النبوية والتمعن في معانيها. وجلب المحدثين من فاس ومكناس لمراكش.

كما كانت للسلطان سيدي محمد ابن عبد الله مشاركة في العلوم، وقد ذكر له المؤرخون عددا من المؤلفات، نذكر منها :

الفتوحات الإلاهية من أحاديث خير البرية التي تشفى بها القلوب الصدية

جمع فيه مما اتفق عليه الأئمة أبو حنيفة والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم ومالك. يذكر أولا ما اتفق عليه الستة ثم الخمسة ثم الأربعة ثم الثلاثة ثم الإثنان ثم ماانفرد به كل واحد من الأئمة الأربعة ثم ثنائيات البخاري ومسلم. ويذكر آخر كل فصل ما اشتمل عليه من الأحاديث.

فرغ من تأليفه في جمادى الثانية 1198(ماي 1784).

الجامع الصحيح الأسانيد المستخرج من ستة مسانيد.

مرتب على أبواب الفقه مبين فيه عقب كل باب ما فيه من الأحاديث. وختمه بذكر اشتغاله بالحديث وكيف استخرج مصنفاته فيه، فقال :

"إن من أعظم نعم الله علي وأجل مننه لدي أن وفقني للاشتغال بالعلم والبحث عنه والمذاكرة لأهله. وإني بعد ما خضت في علم اللغة برهة من الزمان وحفظت من كلام العرب وأشعارهم جملة صالحة معينة على فهم السنة والقرآن، اشتغلت بعلم الحديث. فاعتكفت على قراءة صحيح الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري، ومراجعة صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وموطأ الإمام مالك بن أنس، إلى أن ورد عليّ مسند الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت،

فقرأته حتى ختمته والحمد لله. ثم بعثني الحديث الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم " من حفظ عن أمتي الأربعين حديثا من دينها" حسبما سبق ذكره في طالعة هذا الكتاب، على تأليف جملة من الأخبار، من غير تطويل ولا استكثار. فألفت كتاب الفتوحات الصغرى معتمدا في ذلك على المسانيد المذكورة مسند الإمام أبي حنيفة ومسند الإمام مالك المسمى بالموطأ ومسند الإمام أبي عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري ومسند الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري. ولما أراد الله تعلى إكمال منته وإتمام نعمته وجزيل عطيته،ورد علينا مسند الإمام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ومسند أمير المومنين في الحديث الإمام أحمد بن حنبل. فاعتكفت على قراءتهما ودأبت على مطالعتهما ومراجعتهما. فبعثني صدق النية وفرط محبتي للسنة النبوية على جمع عيون من كلام خير البرية. وسلكت فيها مسلكا لم أسبق إليه ونسجت على منوال لم نر من نسج عليه. وسميته الفتوحات الكبرى.فجاء بحمد الله كتابا بديع التصنيف حسن الترتيب والترصيف، يعد في المستندات.ثم بدا لي أن أجمع أربعمائة حديث من مسانيد الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، خاصة بهم دون غيرهم، مائة حديث لكل واحد منهم. فأعدت قراءة المسانيد المذكورة مرة أخرى واستخرجت منها على الوجه المذكور كتاب الجامع الصحيح الأسانيد.

ثم ظهر لي أن أجمع هذه المصنفات الثلاثة التي هي الفتوحات الصغرى والفتوحات الكبرى والجامع الصحيح الأسانيد، وأضم بعضها إلى بعض وأرتبها على أبواب الفقه وأضيف إليها من حديث الأحكام ما يكمل الغرض والمرام. مأخوذا ذلك كله من الكتب الستة المذكورة التي هي مسند الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابث ومسند الإمام مالك بن أنس المسمى بالموطأ ومسند الإمام محمد بن ادريس الشافعي ومسند أمير المومنين في الحديث الإمام أحمد بن حنبل ومسند الإمام سيدي محمد

ابـن اسـمعيل البخـاري ومسـند الإمـام أبـي الحسـين مسلم بن الحجاج النيسابوري.

فـأضفت ذلـك كلـه بعضـه الـى بعـض، ورتبتـه على أبواب الفقه وفصولـه، ليسـهل أخـذ الحكـم مـن قواعد ه وأصوله. وسميته كما تقدم بالجـامع الصحيـح الأسـانيد المستخرج من ستة مسانيد فجاء بحمد الله كتابـا بديعـا نافعـا ولمـا يحتاجـه الطالب من أدلة الحلال والحرام جامعا. جعله الله خالصا لوجهه الكريم ومقربا من رضوانه العميم"

**** مواهب المنان بما يتأكد على المعلمين تعليمه للصبيان***

قـال فـي أولـه : "لمـا كـان غـالب اعتنـاء طلبة الوقت بحفظ القرآن والتفـنن فـي قراءتـه بالروايات، وإهمالهم ما فرضه الله على الأعيان مما يـدان بـه من علم العبادات والاعتقادات، وإن كان فضل كتاب الله مأثورا، ومقـام حفاظـه بين أوليـاء الله مشهورا، لكن لامع الجهل بما يعبد الله به مـن ضـروري الدين، فإنه على الموصوف بهذه الصفة حجة في كل حين. لأن المقصـود الأهـم مـن حفظ القرآن هو تعلم أحكام الدين التي بها الله يـدان. اذ مجرد حفظ مجموعه فرض كفاية بلا ارتياب. ومعرفة ما تبرأ به الذمة فرض عين وإيجاب"

ثـم قـال : "وكنت لقيت حال سفري من مكناسة إلى مراكش سنة 1203 مـن الأسـانيد الجـم الكثير، وألفيت كل من اختبرت منهم لم يتمسك من علم دينه بقطمير. حملني ذلك -لمـا انطـوى عليـه الفـؤاد مـن حب النصح للمسلمين -أن أجمـع لهـم مسـائل مهمـة مـن علـم أمـور الديـن، قريبة المقـاصد، شهيرة الموارد، مقتصرا فيها على الضروري، ليسهل حفظه على الصبيـان.وهـي أيضـا نافعـة لمـن اقتصـر عليهـا فـي دينـه من الشيوخ والكهـول والشـبان.راغبـا بذلـك في محصول قوله صلى الله عليه وسلم فيمـا أخرجـه الـترمذي وقـال : حسـن صحيـح، إن اللـه وملائكته وأهل السماوات والأرضين - حتـى النملـة في جحرها وحتى الحوت في البحر-

ليعملون على معلم الخير الناس. وما رواه ابن ماجة، من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أفضل الصدقات أن يتعلم المرء المسلم العلم ثم يعلمه أخاه المسلم".

وإلى جانب هذه الآثار العلمية، كانت للسلطان سيدي محمد ابن عبد الله مواقف واجتهادات في ميدان الفقه وتطبيق الأحكام. وهكذا أصدر منشورا يعدل بعض أنظمة المسطرة القضائية. احتفظ بأصله المؤرخ ابن زيدان ونشره في الإتحاف (3: 188إلى 211). كما صدر عنه منشور بإصلاح نظام الفتوى وبعض الخطط القضائية منشور في الإتحاف (3: 211– 214).

وكان هذا السلطان على درجة من التثبت والابتعاد عن الاستقلال بالرأى حتى أنه كاتب علماء مصر وفقهاءها يستشيرهم فيما أوصله إليه اجتهاده في ميدان القضاء وتصريف الأحكام. وقد توصل السلطان بجواب علماء مصر عن رسالته السابقة، بإمضاء محمد الأمير المالكي وموافقة محمد بن عبد المعطي الحريري الحنفي وسليمان الفيومي المالكي.

أعماله لترسيخ وشائج الأخوة بين المغرب والمشرق

عمل السلطان سيدي محمد ابن عبد الله على ترسيخ أواصر الأخوة التي تجمع بين المسلمين في الشرق والغرب.

وهكذا نجده يوجه سنة 1182هـ 1769 /م ابنه وخليفته مولاي عليا، رفقة صنوه الأمير مولاي عبد السلام إلى الحج. وكانت برفقتهما أختهما، مزفوفة لأمير مكة الشريف سرور. وقد أرفق السلطان الوفد الرسمي بعدد من الهدايا، بعضها لأمراء طرابلس ومصر والشام، والبعض لشرفاء الحجاز والحرمين.وتحتفظ الوثائق ببيان هذه الهدايا وكيفية قسمتها.

"الحمد لله وحده، هذا زمام هدية الحرمين الشريفين المتوجهة مع ولدنا الأرضى سيدي عبد السلام أصلحه الله ورضي عنه.وقدر الهدية المذكورة ألف سبيكة من الذهب.وقد أمرنا أن يفرق ذلك على ما هو مذكور ومبين بالكناش، حتى يتوصل كل ذي حق إلى حقه إن شاء الله.

القسمة الاولى :

للسادات الشرفاء أهل المدينة المنورة، ومن بينه وبين المدينة مرحلة واحدة : مائتان من السبائك.

القسمة الثانية :

للسادات الشرفاء أهل مكة والوادي وجدة والطائف :مائتان من السبائك.

القسمة الثالثة :

للسادات الشرفاء أهل ينبوع النخل وأهل ينبوع البحر مائتان من السبائك.

القسمة الرابعة :

للسادات الشرفاء أهل بدر ورابغ وخليص والصفرا والحديدة والحسينية وعين عجلان وجميع أشراف الحجاز عن آخرهم.وإن نسينا فرقة منهم ولم نسمها فهي داخلة مع أشراف أهل الحجاز : مائتان من السبائك أيضا.

القسمة الخامسة:

لأهل المدينة المنورة خصوصا وعموما من غير الأشراف وفقنا وإياهم، وأهل الرباطات والرواقات ومن له وظيف :مائتان من السبائك.إلا أن أهل الوظائف يأخذون على قدر خدمتهم في الحجرة النبوية، على

ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.فيكون منهم من يأخذ ثلاث قسمات، ولحملة القرآن ثلاث قسمات ومنهم من يأخذ قسمتين. وعامة الناس يأخذون قسمة واحدة.

وحاصل الأمر أننا فوضنا لأهل المدينة المشرفة في القسمة المذكورة.فيقتسمون ذلك على قوانينه المعهودة عندهم. ولاحظ للرافضية الذين يبغضون الشيخين أبعدهم الله فلا يأخذون من المال المذكور ولو درهما واحدا. ومن حبى الرافضية المذكورين بشيء من المال المذكور، فالله حسيبه وحسيب كل من منع حق مسكين من الغرباء والمجاورين لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الرباطات والرواقات وغيرهم. من الذين لم يقدم بهم من بلادهم إلا شوق المصطفى صلى الله عليه وسلم وجواره. وأنا أقول : واجب على أهل المدينة أن يقدموا هؤلاء الغرباء المجاورين لحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهدية على أنفسهم. والهدية المذكورة لأهل المدينة خصوصا وعموما على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام.

واعلموا أنه لا مدخل للشريف أمير مكة في تفريق المال المذكور. بل يفرقه سر أمين وشرفاء المدينة. وإن بعث صاحبا له يحضر على تفريق المال المذكور، فليطرده أهل المدينة ويقولون له : إن بعث صاحبك شيئا فاحضر عليه.وأما هذا المال فلا مدخل لك فيه. لأن الشريف المذكور نهب من مال هدية شرفاء اليمن ستة عشر ألف مطبوع في العام الماضي.فلا يحضر على تفريق هذا ولا مدخل له فيه بوجه ولا بحال. وإنما يحضر على تفريق المال المذكور شرفاء المدينة مع سر أمين، والتفريق المذكوريكون على النسق المذكور ان شاء الله :

الفصل الاول :

قسمة السادات الأشراف أهل المدينة المنورة وما حولها، فإنهاظاهرة ويعرف بعضهم بعضا لأنهم حاضرون بطيبة.

الفصل الثاني:

قسمة السادات الأشراف أهل مكة والوادي وجدة والطائف، فإن قدم عليكم منهم نحو العشرين أوالثلاثين رجلا فلا تدفعوا لهم شيئا من الهدية المذكورة، إلا إذا قدم عليهم منهم نحو المائة رجل وزيادة من خيارالشرفاء المذكورين وأعيانهم .وكل فرقة منهم تأتي بوكالة إخوانها وكالة مفوضة. وكيفية التفريق عليهم هو أن أهل مكة يأخذون حظ إخوانهم أهل مكة فقط، بعد أن يبينوا لكم كل بيت وما يجب له في حظه من الهدية المذكورة .وكذلك سكان الطائف، إنما يأخذون حظ إخوانهم سكان الطائف فقط بعد أن يبينوا لكم كل بيت وما يجب له في حظه من الهدية المذكورة .وكذلك أهل الوادي يأخذون حظ إخوانهم سكان الوادي فقط، وكذلك أهل جدة يأخذون حظ إخوانهم سكان جدة فقط .وكذلك إن كان بعض ديار السادات الأشراف قرباء لمكة المشرفة ولم يكونوا مذكورين في الزمام فيحسبون مع أهل مكة ويأخذون معهم، وسواء كانوا ديارا أو خياما. وكذلك إن كان بعض ديار السادات الاشراف قرباء للطائف فيحسبون من جملة أهل الطائف ويأخذون معهم. وكذلك أهل الوادي وكذلك أهل جدة، إن كان بعض ديار السادات الأشراف قرباء منهم فيحسبون من جملتهم ويأخذون معهم.

الفصل الثالث :

قسمة السادات الأشراف أهل ينبوع البحر وينبوع النخل، فكذلك أيضا إن قدم عليكم نحو العشرين أو الثلاثين رجلا، فلا تدفعوا لهم شيئا من الهدية المذكورة .إلا إذا قدم عليكم منهم نحو المائة رجل وزيادة من خيارهم وأعيانهم. لأن السادات الأشراف أهل ينبوع البحر وينبوع النخل فرق متعددة وبيوت كثيرة من الشرفاء، فكل فرقة منهم تأخذ حظ إخوانها من الهدية المذكورة. لكن بعد أن يبينوا لكم كل بيت وما فيه

ويـاتوا بوكالـة إخوانهـم وكالـة مفوضـة، فعنـد ذلك يدفع لهم حظهم ولا يدخل معهم فيها من هو مضاف لهم ومن خلف لهم، إنما الهدية المذكورة مخصوص بها أبناء المصطفى صلى الله عليه وسلم.

الفصل الرابع :

قسـم السـادات الأشراف أهل بدر ورابغ وخليص والصفر والحديدة والحسـينية وعـين عجـلان وجميع أشراف الحجاز عن آخرهم، وإن نسينا فرقـة منهـم ولـم نسـمها فهـي داخلـة فـي القسـمة الرابعة مع السادات أشراف الحجاز .فالقسـمة الرابعـة كلهـا عامـة علـى مـن هو شريف في الحجاز، وإن لم يكن مذكورا في الزمام. فكذلـك إن قـدم عليكم منهم نحو العشـرين أو الثلاثـين رجلا، فلا تدفعوا لهم شيئا إلا إذا أتتكم منهم نحو المائة رجل وزيادة من خيارهم وأعيانهم .وكـل فرقـة منهـم تـأتي بوكالة إخوانها وكالة مفوضة. فـأهل بـدر يـأخذون حـظ إخوانهم الساكنين ببدر وكذلـك أهـل رابـغ يـأخذون حـظ إخوانهـم السـاكنين برابغ، وكذلك أهل خليـص يـأخذون حـظ إخوانهـم السـاكنين بخليـص وكذلـك أهل الصفر يـأخذون حـظ إخوانهـم السـاكنين بالصفر، وكذلك أهل الحسينية وكذلك أهـل عين عجلان وكذلك جميع أشراف الحجاز عن آخرهم كل واحد منهم يأخذ حظ إخوانه فقط. وأنتـم إياكم ثم إياكم أن تدفعوا لأحد من السادات الأشـراف حظ هذا لهذا أو حظ هذه الفرقة لهذه الفرقة. بل كل فرقة منهم تاتي بوكالة إخوانها وكالة مفوضة وتأخذ حظها. لكـن بعـد أن يبينـوا لكم كـل بيـت ومـا يجـب له من الهدية المذكورة وعلى هذا يكون عملكم. وقـد تشـفعنا للسـادات الأشراف أهل المدينة المنورة بالمصطفى صلى الله عليه وسـلم ومحبتنـا فيهـم أن يقفوا على هذه القسمة في هذه السنة للسادات الأشـراف حتـى يتوصل كل ذي حق منهم بحقه. لأنها إذا تحققت القسمة فـي هذه السنة فتسهل في السنين التي بعدها، وبها ينقطع الخصام بين

السادات الأشراف وفر الله جمعهم، والحمد لله وحده. وكما يصل للحرمين الشريفين ومصر والإسكندرية مع ولدنا الأرضى سيدي عبد السلام أصلحه الله ورضي عنه وفي مهل جمادى الأولى عام أربعة ومائتين وألف :

فللفقهاء وجميع الطلبة بالمدينة على مراتبهم من طلبة العلم وطلبة القرآن ألف منيضة يقتسمونها على المراتب، ولفقهاء الإسكندرية ومدرسيها وسائر طلبتها وطلبة القرآن والعلم ألف منيضة يقتسمونها على المراتب.

ولمدرسي مصر والفقهاء وسائر طلبة الرواقات على مراتبهم، خمس عشرة مائة منيضة يختص الفقهاء والمدرسون بالأزهر بخمسمائة وألف الباقي يفرقونه على الطلبة على المراتب، جميع المنيضة ثلاثة آلاف وخمسمائة .وللحسنيين بمصر مائتان من البندقي، وللإمام سيدي محمد بن ادريس الشافعي مائة بندقي، وللبكريين خمسمائة بندقي، وللعمريين خمسمائة بندقي، وللوفائيين مائة بندقي، ولسيدي أحمد البدوي مائة بندقي، وللشيخ أبي العباس المرسي مائة بندقي، ولسيدي البوصيري مائة بندقي، ولبيت الله الحرام ألف بندقي لفقهائه وسائر طلبته وأهل الوظائف من عند ولدنا الأرضى سيدي عبد السلام أصلحه الله. لأن ألفي مثقال التي تتوجه لكم من عندنا في كل سنة، فقد كنا قدمنا لكم الكتب على أنكم تقبضونها من عند المتولي في موضع الشريف سرور عن كل سنة من الستة عشر ألف مثقال التي كان أخذ من الهدية وهي واجب ثمان سنين .فقد أذنا لكم في قبضها منه على حسب ألفي مثقال في كل سنة. وأما الألف بندقي المذكور فهو من عند ولدنا سيدي عبد السلام أصلحه الله آمين .جميع البندقي ألفان وسبعمائة.

فالصلة التي توجه بها ولدنا سيدي عبد السلام أصلحه الله، هو يتولى تفريقها بالمدينة المنورة بعد أن يحج ويرجع من مكة .وواجب أهل مصر والإسكندرية يدفعه بمصر عند التشرقة.

والهدية التي توجه بها السيد علي الشباني من اصطنبول مع سر أمين فقد كنا أمرناه وعنده أمرنا أن سر أمين يفرقها بالمدينة المنورة قبل أن يحج وقبل أن يصل لمكة المشرفة وقدر عدد الهدية المذكورة ألف سبيكة وتقسم على خمس قسمات مائتا سبيكة في كل قسمة :

القسمة الأولى لشرفاء المدينة وما حولها

الثانية لشرفاء بيت الله الحرام ومن ذكرمعهم

الثالثة لشرفاء الينبوع ومن ذكرمعهم

الرابعة لشرفاء بدر وخليص والصفرا والحديدا وشرفاء الحجاز كلهم

الخامسة لأهل المدينة خصوصا وعموما .

وعلى هذا يكون العمل إن شاء الله .

وكل هدية وردت من عندنا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تقسم على خمس قسمات كما ذكر، أربع للسادات الشرفاء والخامسة لعامة أهل المدينة المنورة .

جهاده لتحرير الثغور المغربية

كان للسلطان سيدي محمد ابن عبد الله اعتناء واضح بشأن الثغور التي كانت خاضعة للاحتلال الأجنبي، وقد سبق أن رأينا كيف بدأ عهده بالتجوال عبر المدن الساحلية والتأكد من تحصيناتها والزيادة فيها . ويسجل له التاريخ المجهود الخاص الذي توج بتحرير ثغر البريجة.

فقد كانت هذه المدينة المغربية قد وقعت في يد البرتغال منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي . وضايقها ملوك الدول السابقة ولم يقدروا منها على شيء، وبذل السلطان العلوي مولاي اسماعيل جهدا كبيرا في تحريرها وضيق على البرتغاليين المقيمين بها دون نتيجة . إلى أن يسر الله فتحها على يد السلطان سيدي محمد بن عبد الله : فقد حاصرتها جيوشه أربعين يوما وأمطرتها بالكور والقنابل إلى أن تم فتحها في 27رمضان 1182(4فبراير 1769) وهدمها وأمر بتسميتها بالمهدومة وعمرها بأهل دكالة وأنزل بها حامية من عسكره.

كما انصرفت همته إلى تحرير مليلية وبدأ في قنبلة سورها أول يوم من المحرم من عام 1185(أبريل 1771) . إلى أن رفع عنها الحصار في أمر يطول تفصيله.

مراجع البحث

- الزياني، بلقاسم بن احمد

- الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوط

- البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف، مخطوط

- الروضة السليمانية في ملوك الدولة الإسماعيلية، ومن تقدمها من الدول الإسلامية، مخطوط

- ابن زيدان ، مولاي عبدالرحمن الكبير

- إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، 5أجزاء، الطبعة الثانية ، 1410/1990

- الشريف مولاي عبد السلام ابن السلطان سيدي محمد بن عبد الله

- اقتطاف الأزهار من حدائق الأفكار، مخطوط

- درة السلوك وريحانة العلماء والملوك، مخطوط

- الضعيف ، محمد بن عبد السلام الرباطي

- تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق أحمد العماري، دار المأثورات، 1986

- القادري محمد بن الطيب

- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق ج 4 - مكتبة الطالب، 1407/ 1986

-الكتاني، محمد بن جعفر بن ادريس

- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس عمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس المطبعة الحجرية - فاس - 1316، ج 3أجزاء

- المراكشي، العباس بن ابراهيم

- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب

ابن منصور
المطبعة الملكية 1977– 10أجزاء .

– الناصري ، أحمد بن خالد
– الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، 1956،
أجزاء 9 أجزاء

المسألة الدينية في الفكر الحسني
من خلال خطب وكلمات
صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني*

قد يعد من تحصيل الحاصل الحديث عن مواقف جلالة الملك الحسن الثاني، نصره الله، في باب مناصرة الدين الإسلامي، بعد أن تبين بما لايحتاج فيه إلى برهان أو دليل أنه وقف جهده وفكره للدفاع عن ديننا الحنيف، وبرزت مواقفه هاته في كل حركاته وسكناته، لم يترك مجالا من مجالات حماية الدين الإسلامي وترسيخه إلا ركبه، ولم يبخل قيد لحظة عن الوقوف أمام كل ما قد يشوب صفاءه ونقاءه من شوائب.

ولذلك، فإن هذا البحث لا يهدف إلى ما سبق التلميح إليه، بقدر ما يهدف إلى معالجة المسألة الدينية في الفكر الحسني معالجة علمية موثقة بشكل يقرب أكثر صورة هذا الملك الصالح الذي وهب دينه ووطنه وأمته كل طاقته ووقته.

---

* صدر هذا البحث في مجلة دعوة الحق ـ العدد 320 ـ السنة السابعة والثلاثون محرم ـ صفر 1417 / يوليوز 1996.

تتمثل هذه المعالجة في تتبع مختلف الفرص التي ورد فيها على لسان جلالته أو في خطبة من خطبه حديث عن الدين الإسلامي وتصنيف تلك المواقف إلى مباحث واضحة المعالم ظاهرة البنيان.

وقد كان معتمدنا في إنجاز هذا العمل سلسة أقوال وخطب جلالة الملك، الممتدة على مدى يفوق نصف قرن من الزمان. تبدأ أولاها في جمادى الأولى 1360 (يونيه1941) حينما ألقى سمو ولي العهد آنذاك صاحب السمو الملكي الأمير مولاي الحسن كلمة عندما ترأس اجتماع قدماء تلاميذ مكناس. أما تاريخ آخر كلمة منها فكان في 20 جمادى الأولى 1416(16أكتوبر 1995).

وقد اعتمدنا في الوقوف على هذه النصوص على مصدرين :

- ***انبعاث أمة***

تصدرها مديرية الوثائق ضمن مطبوعات القصر الملكي، في 40 جزءا.ورمزها في هوامش هذا البحث :انبعاث أمة.

- ***خطب وندوات صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني***

صدرت ضمن منشورات وزارة الإعلام في 10 أجزاء الطبعة الأولى – 1409–1989، ورمزها في هوامش هذا البحث : خطب وندوات .

أما من حيث تصميم البحث فإنه ينقسم إلى الفصول التالية :

1 – الاعتزاز بالانتماء للإسلام.

2 – السمات المميزة للمغرب في ممارسته لدينه.

3 – الاعتزاز بالانتماء إلى الأمة الإسلامية.

4 – علاقة الديانة الاسلامية بباقي الديانات السماوية.

5 – مسألة التطرف.

الفصل الأول : اعتزاز جلالة الملك بالانتماء للإسلام

يبرز من خلال خطب جلالة الملك تشبث جلالته بالدين الإسلامي الحنيف وقيام جلالته بواجباته إزاء ربه وتعلقه بكل ركائز هذه الديانة السمحة عبادة ومعاملة وأخلاقا .كما تسمح خطب جلالته باستخلاص اعتزازه باعتقاده وإعجابه بدينه.

فها هو جلالته، وهو مازال وليا للعهد يقول : "أفضل ما أكرمنا به الله سبحانه ديننا الزكي الطاهر"[1] وهذا الاعتزاز راجع إلى الاقتناع بأن التمسك بالدين الحنيف هو أساس سمو الحضارة الإسلامية في المغرب، فجلالته يرى "الإسلام عقيدتنا، به شيدنا بالأمس مجدنا الغابر، ومنه اليوم نستمد إيماننا الراسخ وعلى أسسه سنبني صرح عزنا المقبل. فالإسلام دين الحق والعدالة والإنصاف، دين السماح البشري والإنسانية الحقة، جعل منا – نحن المسلمين – خير أمة أخرجت للناس..."[2]

وانطلاقا من هذا الاعتزاز، يرى جلالة الملك أن السبيل الأمثل لإنارة سبل التقدم للأمة المغربية مرتبط بالتعلق بالإسلام دينا وممارسة. فجلالته يرى أن "الإسلام أنار لنا السبيل، وأن السر فيما بلغته من رشد وتتحلى به من حسن تصرف ليرجع إلى ما لديننا الإسلامي من تأثير طيب على نفوس أبنائك. هذا الدين الذي أنار لبلادنا السبيل ومهد لأجدادنا سبل الخير، والذي يغذينا بعواطف الأخوة والإيثار وروح العزم والإخلاص. فلنتمسك به ولنسر في محجته البيضاء"[3]

---

(1) خطاب سمو ولي العهد مولاي الحسن حين ترأس اجتماع قدماء التلاميذ بمكناس – جمادى الأولى 1360 (يونيه 1941) – في خطب وندوات، ج 1، ص : 40

(2) خطاب صاحب السمو ولي العهد الأمير مولاي الحسن في حفلة وضع الحجر الأساس لمدرسة حرة بسلا. 5 ذي القعدة 1366 (20 شتنبر 1947) في خطب وندوات،ج 1ص : 194

(3) خطاب صاحب السمو ولي العهد الأمير مولاي الحسن في حفلة وضع الحجر الأساس لمدرسة حرة بسلا. 5 ذي القعدة 1366 (20 شتنبر 1947) في خطب وندوات،ج 1 ص : 194

وهـذا الاعـتزاز مـن جهـة ثانيـة، راجـع إلى اقتناع جلالة الملك بأن الإسـلام أسـاس متـين لضمـان التقـدم للشعب المغربي، لأن هذا الشعب حسـب جلالته "اعتنق الإسلام عن طواعية واختيار، لأنه رأى في الإسلام الإطـار الحقيقـي الـذي يمكـن حريته من الانطلاق، وأن الديانة الإسلامية خليقة بأن تكون أساسا للعمل في البناء، لأنها تنبني على فضيلة جماعية تعود بالنفع على الجميع"[4]

وإن ربـط مصـير البـلاد بتشـبثها بـالدين الإسـلامي عنـد جلالته صـادر عـن اقتناعه بسمو هذه الديانة وتميزها عن باقي الديانات انطلاقا مـن ملاحظتـين : فجلالتـه يؤكـد أولا أن الدين هو المعاملة، ويقول: "ولا يخفـى عليكـم أن الإسـلام بنـي علـى المعاملات، حتى يطهر قلب المسلم وحتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[5] كمـا يؤكـد جلالتـه من ناحية ثانية علـى خاصية صلاحية الدين الإسلامي لكل مكان وزمان، فجلالته يرى "أننـا سـوف نجد دائما في ديننا ما هو كفيل بضمان الخير لنا. لأن الدين الإسـلامي لـم يسـد فـي وجـه أحـد ولـن يسـد فـي وجـه أحـد لتشريع والاجتهاد"[6]

واعتمـادا علـى ذلـك، فجلالته يرى أن وسيلة المغرب للرقي تتلخص فيما يلي :

"فلنخلـص العمـل لربنـا ولنستمسـك بتعاليم ديننا وتقاليد قوميتنا، تتحقـق لنـا الآمـال وتثمـر الأعمال وتحالفنا السعادة في الحال والمال"[7]

---

(4) خطـاب جلالـة الملك بمناسبة انطـلاق حملة انتخاب مجلس النواب، 21 ذي الحجـة 1382 (15 ماي 1963) في : خطب وندوات، ج : 2، ص : 235

(5) كلمـة ارتجلهـا جلالـة الملك بمناسبة استقبال اللجنة المكلفة بمراجعة قانون العقود والالتزامات، 15 جمادى الثانية 1384(21 أكتوبر 1964) في خطب وندوات، ج 2، ص : 414

(6) كلمـة ارتجلهـا جلالـة الملك بمناسبة استقبال اللجنة المكلفة بمراجعة قانون العقود والالتزامات، 15 جمادى الثانية 1384(21 أكتوبر 1964) في خطب وندوات، ج 2، ص : 415

(7) خطـاب جلالـة الملـك بمناسبة عيد العرش، 18 شـوال 1383، (3مـارس 1964) – فـي : خطب وندوات، ج: 2، ص 336

لأن الديـن الإسـلامي عنـد جلالـة الملـك هـو دين الالتزام. فجلالته يرى الإسـلام هـو أهـم مدرسـة لكل واحد أراد أن يؤدي الواجب في حياته. فـالدين الإسـلامي والإيمـان الراسـخ هـو بمثابـة المدرسـة الابتدائيـة الضرورية لكل موظف كان مدنيا أو عسكريا "[8]

إن الإسـلام فـي نظـر جلالـة الملـك دين يضبط العلاقات بين الفرد وربـه مـن جهـة ويضبـط العلاقة بين الأفراد عموما من جهة ثانية. وهذا وجـه واضـح مـن وجوه شمولية الدين الإسلامي، وسبب آخر من أسباب اعـتزاز جلالته به وبالانتماء إليه. إن المتأمل للقول التالي لجلالته ليحس بـأن جلالتـه دائـم التـأمل فـي الإسلام دائب العمل للوقوف على أسراره وتوجيهاتـه، فهـو يقـول مثلا : " الديانة الإسلامية ديانة بلا أسرار. ومن أجـل ذلك فهي تتطلب من معتنقيها جهدا يوميا للبحث. والذين يقولون إن فـي العقيـدة الإسـلامية ثغـرات هـم الذيـن يجهلـون أعمـاق الفلسـفة الإسـلامية. فالإسـلام ليس الصلاة ولا الصوم ولا الاغتسال ولا حج بيت اللـه فقـط، بل هو كما قال النبي : الدين المعاملة، ولم يقل :الدين العبادة. والمعاملـة هنا لا تعني المعاملات والعلاقات بين الأفراد من بيع وشراء وما إلـى ذلـك، بـل تعنـي المعـاملات التـي نسميها الآن بالتعريف العصري المعـاملات العامـة. أي واجبـات المجتمـع نحـو الفرد وواجبات الفرد نحو الجماعـة. إنـه مانسميه القانون العام. ولذلك قلت وأكرر القول بأن الدول العربيـة غـير محتاجة لاستيراد فلسفات، ولا إلى وضع نظريات ثالثـة أو رابعـة أو خامسـة إن حاجتهـا تنحصـر فـي تطوير العقاقير، في ابتكار أصنـاف جديـدة لها، في تجديد وتغيير أساليب استعمالها حسب الحاجة، علـى ضـوء التجربـة وتطور أساليب الكشف عن الأمراض. وكما قلت، إن الديانـة الإسـلامية هـي مـن أسهل وأصعب الديانات في وقت واحد. إنها

(8) كلمـة جلالة الملك بمناسبة استقبال الوفد العسكري المتوجه إلى الديار المقدسة 25 ذي القعـدة 1393 (25 دجنبر 1973)في خطب وندوات، ج : 4 ص 544

تتطلب جهدا يوميا مستمرا للبحث. لقد قال الله في كتابه : ما جعل عليكم في الدين من حرج. وقال النبي صلى الله عليه وسلم :الدين يسر وليس بعسر وقال أيضا : لن يحاج هذا الدين أحد إلا غلبه. إن باب السؤال وباب المناقشة وباب البحث، مفتوحة "[9]

ويعود جلالة الملك إلى نفس الفكرة في مناسبة ثانية فيقول : "الإسلام ليس دينا ذا أسرار، بل الإسلام مفتوح على مصراعيه في إمكان كل أحد أن يطرح سؤالا عن نفسه وأن يبحث عن جواب ذلك السؤال [..] بل من أراد أن يعجز الإسلام فليجرب "[10]

كما يعود جلالة الملك في مناسبة أخرى إلى التركيز على أهمية الأخلاق في الإسلام، ويدعو شعبه الوفي إلى التعلق بها قائلا : "فلنتعلق بروح الإسلام، تلك الروح وتلك الأخلاق التي هي إن درست بإمعان، وجدها الإنسان أحسن دستور للمواطنة. فالأخلاق الإسلامية هي قبل كل شيئ مركزة على حسن الجوار بين الناس وعلى حسن المعاملة. ولا أدل على ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم : الدين المعاملة "[11]

هناك وجه آخر من وجوه اعتزاز جلالة الملك بالدين الإسلامي إلى حد اعتبار هذا الدين هو المدينة الفاضلة ؛ يقول جلالته : "نعم، ديننا هو المدينة الفاضلة. لماذا ؟ لأن الدين والدنيا عندنا توأمان. إن سرنا في طريق المعاملات نجد الدين نهى عن شيء ويأمر بشيء. وإن سرنا في

---

(9) حديث جلالة الملك لمجلة "الحوادث" اللبنانية، 20 صفر 1394 (15مارس 1974). في خطب وندوات، ج : 5، ص 37

(10) كلمة جلالة الملك أثناء استقبال المهنئين بعيد المولد النبوي 12 ربيع الأول 1394 [16] أبريل 1974)، في : خطب وندوات ج : 5، ص : 48.

(11) خطاب جلالة الملك بمناسبة الذكرى الواحدة والعشرين لثورة الملك والشعب، فاتح شعبان 1394 (20 غشت 1974) في : خطب وندوات ج : 5 ص 95

طريق العبادات وجدنا الدين والدنيا لا إفراط ولا تفريط. لذا علينا نحن المسلمين أن نفتخر بديننا»[12]

إن التعريف بالدين الإسلامي بمميزاته وخصائصه، والدعوة إلى التشبث به تعتبر في نفس الآن مظهرا من مظاهر اعتناء جلالة الملك بهذا الدين، ووسيلة للوقوف على خصائصه العامة.فجلالته يجد في الدين الإسلامي "شريعة ونظاما، شريعة سمحاء متفتحة، شريعة قابلة للتطور، شريعة تشمل البشرية في مدى زمنها وعلى جميع بساط أراضيها، تجد شريعة لم تترك شيئا إلا ونصت عليه، بل ما لم تنص عليه تركت باب الاجتهاد لذوي العلم والثقافة والمعرفة"[13]

إن هذه الكلمة الواضحة المركزة تبين مدى استيعاب جلالته للمقومات الأساسية للديانة الإسلامية. كما أن كلمة أخرى لجلالته تبين مدى اعتقاده في أن الدين الإسلامي هو الذي مكن الحضارة الإسلامية من أن تصل إلى ما وصلت إليه.

يقول جلالته : "الإسلام [..] إطار خلقي للفضيلة والسلوك والحياة. ولو لم نتصف في البداية بالأخلاق الإسلامية والهدي النبوي، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه من علم وحضارة وتطور ومجد كمجموعة عربية"[14] ويعتبر جلالته أن من أفضال الله -جل وعلا- على الناس هدايتهم للإسلام. وتلك حال "الشعوب والأمم التي أخذ الله اللهبأيديها إلى نور المعرفة وأثلج صدورها بثلج اليقين وأكرمها

---

(12) خطاب جلالة الملك في مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية. 10 جمادى الثانية 1399(8 مايه 1979)، في : خطب وندوات ج : 6، ص 239

(13) خطاب جلالة الملك في اجتماع رؤساء وأعضاء المجالس العلمية بالمغرب، 14 ربيع الأول 1400 (1 فبراير 1980). في خطب وندوات،ج : 6 ص 387

(14) رسالة من جلالة الملك إلى الرئيس المصري محمدأنور السادات، 13 رمضان 1400 (26 يوليوز 1980) في : خطب وندوات ج : 6، ص : 521

بفبـضيلة الإيمان"[15] وتشـمل هـذه الهدايـة الربانيـة النـاس وتأتي من عـدد مـن الطـرق، ومن ضمنها العلم. يقول جلالته : "ومن حارب الجهل والأميـة، تمكـن مـن أن يعـرف ويلمـس بقلبـه ووجدانـه الحقيقـة الإلهية وقواعـد الديانة الإسلامية. ومن لمس وأحس وآمن بمبادئ الدين الإسلامي وسـنة الرسـول صلـى اللـه عليه وسلم، تمكن من أن يكون رجلا صالحا للمجموعة التي يعيش فيها ولمواطنيه"[16]

ولا تقـف الأفضـال الربانيـة علـى المسـلمين عند مجرد الهداية إلى الإسـلام، بـل تسـمو وتعلـو لتسـتمر تلـك الهداية وتدوم. يقول جلالته : "ومـن أسرار هذه الخاصية الإلهية الربانية، هي أننا بقينا دائما متشبثين بديـن اللـه سـبحانه وتعـالى، وهـو الإسـلام الـذي لـه الكتـاب كأساس وكأصل، وله السنة كتطبيق وتفسير، وله الجماعة كحصن وتحصينن"[17]

وتـزداد الألطـاف الإلهيـة في سرمدي قدرته جل وعلا وسابق علمه بمـآل الأمـة الإسـلامية، بمـا شمل به سبحانه وتعالى هذه الملة من عناية بضمـان الدفـاع عنهـا. يقـول جلالـة الملـك : "وإن الله تعالى، وقد تكفل بالدفـاع عـن الذيـن آمنـوا ووعدهـم بـالنصر والتأييد، أقر بالإسلام دينه الحنيـف حقوقـا وافيـة للأفـراد قبـل أن تقرهـا بقـرون المواثيق الدولية، وأوجـب احترامهـا، فتعـين علـى مـن أؤتمـن عليها أن يكون في مستوى الأمانـة وشـرفها، ملتزما بقيمها مهما كانت الملابسات المطروحة والمغريات

---

(15) رسـالة جلالة الملك إلى الحجاج المغاربة، 12ذي القعـدة 1402 (1شـتنبر 1982) فـي : خطب وندوات، ج 7، ص : 340

(16) خطـاب جلالـة الملـك بمناسبة عيد الشباب، 26رمضـان 1403 (8يوليـوز 1983) فـي : خطب وندوات، ج : 7، ص : 463

(17) خطاب جلالة الملك بمناسبة عيد الشباب، 23ذي القعـدة 1408(8يوليـوز 1988)، فـي خطب وندوات، ج : 10، ص : 82.

الجارفـــة، منتحيـــا دائمـــا المحجـة البيضـــاء، ومشـدودا إلـي مرتكـزات العدل والإنصاف "[18]

هنـاك مظهـر آخـر مـن مظـاهر اعتزاز جلالة الملك بالانتماء للديانة الإســلامية، وهــو الذي يتمثل في نظره في القرآن الكريم، فجلالته يرى : "القـرآن هو المعجزة الأولى في الإسلام، معجزة ليس فقط بما فيها، ولكن معجـزة كذلـك باللغـة التي جاء بها القرآن من بلاغة وبيان وسهل ممتنع -السـهل الممتنـع الحقيقـي- والسـجع مـن غيرالسـجع والشـعرمن غير الشعر، والبحث عن الكلمة الدقيقة "[19]

أمـا علـى المسـتوى العـام، فـيرتبط أحـد أسـس اعتزاز جلالة الملك بالديانـــة الإســـلامية، بمـا يـرى فيهـا جلالتـه مـن ممـيزات التسـامح والشـمولية. فجلالتـه يـرى أن "الإسلام كان وما يزال دين سلام وأمن واســـتقرار وتســاكن وتعـايش وتسـامح وتوسـط واعتـدال وتعـارف وتعـاون وتكـافل وتضـامن وتـآخ، وهـو ديـن إنساني عالمي، وبذلك فهو واســع الأكنـاف قـادر على استيعاب الحضارات، واحتواء الثقافات، لكونه ديـن الحنيفية السمحة، التي تمنحه المرونة والقدرة على التكيف مع جميع الظروف والأحوال وتجعله صالحا لكل زمان ومكان "[20]

يـأتي الاعتزاز من مستوى آخر مرتبط بما يرى جلالته في الإسلام مـن إطـار أمثـل لتنظيـم الأسـرة المسلمة ؛ فجلالته يلاحظ : "أن الأسرة المغربيـة عاشـت في تاريخها المجيد محصنة في ظلال الشريعة الإسلامية

---

(18) رسالة جلالة الملك إلى المشاركين في المؤتمر الثامن عشرلإتحاد المحامين العرب، 28ذي القعدة 1413 (20ماي 1993) في : انبعاث أمة، ج : 38، ص 217

(19) كلمـة جلالـة الملك في اختتام الدروس الحسنية . 26 رمضـان 1411(12 أبريـل 1991) فـي : انبعاث أمة، ج : 36، ص : 154.

(20) رسـالة جلالة الملك إلى المشاركين في الدورة الثالثة لجامعة الصحوة الإسلامية . 4 شـعبان 1414 (17 يناير 1994) في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 11

السمحة، واجدة في أحكامها الدرع الواقي من كل أنواع التفكك والانحلال.وقد استمد التشريع المنظم للأسرة المغربية أسسه ومبادئه من التعاليم الإسلامية التي أعطت لروابط الزوجية قدسية خاصة ومكانة لائقة مصداقا لقوله تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون "[21]

يبدو جليا من خلال ما سبق أن جلالة الملك معتز أشد مايكون الاعتزاز بالإسلام دينا ومعتقدا. وأنه من خلال كلماته وخطبه وتوجيهاته – سواء منها ما هو موجه إلى شعبه أو إلى إخوانه عبر مختلف أرجاء العالم -لايترك فرصة دون التركيز على هذا الجانب، ومن خلاله لتوضيح مقومات الديانة الإسلامية وخصوصياتها وما حباها الله من مميزات. فما هي صفات الديانة الإسلامية في المغرب ؟

(21) نداء ملكي للاحتفال باليوم العالمي للأسرة ، 5 ذي الحجة 1414 (16 مايه 1994) في : انبعاث أمة ، ج : 39 ، ص :

الفصل الثاني : السمات المميزة للمغرب في ممارسته لدينه

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على الخصائص المميزة للإسلام في المغرب كما تنعكس من خلال كلمات وخطب جلالة الملك.

ويمكن تصنيف هذه الخصائص إلى ما يلي :

1- الوسطية

الإسلام في نظر جلالة الملك "ديانة واحدة، لكن إذا أردنا أن ننظر في تاريخ الإسلام وتاريخ الاعتقادات الدينية، نرى أن الإسلام في الشرق ليس هو الإسلام في المغرب. فالإسلام في المغرب كان دائما إسلاما بغير تعصب، غير جامد، ثابت البنيان [..] لا نجد فيه إلا المذهب الصلب النقي للإمام مالك لا زيادة فيه ولا نقصان"[1]

ويؤكد جلالته نفس الفكرة في مناسبة ثانية حين يقول :"إن الإسلام انتشر شرقا وانتشر غربا، انطلاقا من شبه الجزيرة العربية، ولكن لم يكن انتشاره في الشرق كانتشاره في الغرب. إن الإسلام في الشرق الأقصى وجد نفسه مبنيا على نوعين من الرهبانية، بينما الإسلام

(1) محاضرة بعنوان :"التطلعات الوطنية والدولية لمغرب الاستقلال وشبابه"ألقاها صاحب السموالملكي الأمير مولاي الحسن، فاتح يوليوز1957، في : خطب وندوات، ج :1، ص :. 329

الـذي انتشـر غربـا لـم يحتج إلى تلك الرهبانية. بل منذ اليوم الأول كان سنيا وبقي سنيا "[2]

ويفسـر جلالتـه هاتـه الوسطية بكون "الدين الإسلامي جاء، سواء فـي زمانه أو مفهومه، دينا وسطا. جاء بعد تدهور الديانة اليهودية، وجاء بعـد مـا أدخلـت عـدة شـبهات علـى الديانـة المسيحية. فجاء دينا وسطا ليعطـي اللـه مـاهو للـه، وليعطي للبشر ما هو للبشر، ويكرم الإنسان بما يجب أن يكرم به الإنسان"[3]

هـذه الخاصيـة المميزة في حد ذاتها إيجابية، لما للتوسط والوسطية من تطابق مع روح الإسلام الصحيح .وهـي مـن جهة أخرى دعامة من دعامـات التـوادد والتضـامن ونبـذ الشـقاق والاختلاف. فما يريده جلالة الملـك لبلـده المؤمن "نريد مغربنا في أخلاقه وفي تصرفاته، جسدا واحدا موحـدا تجمعـه اللغـة والديـن ووحـدة المذهب. فديننا الإسلام ولغتنا لغة القرآن ومذهبنا مذهب الإمام مالك"[4]

ويعـبر جلالـة الملك عن رأيه بكل وضوح حين يجيب صحفية سألته عـن التطـرف الدينـي فـي المغـرب قـائلا : "إن مـن الخطأ الاعتقاد بأن الشعب المغربي يعرف التطرف الديني إلى اليوم"[5]

---

(2) كلمـة جلالـة الملـك فـي اجتماع أعضاء المجلـس الأعلى للعلمـاء. 10 جمـادى الأولـى 1404 (2 يبراير 1984) في : خطب وندوات، ج : 8 ص 50

(3) كلمـة جلالـة الملك أمام وفود المهنئين بعيد المولد النبوي، 12ربيـع الأول 1392 (26 أبريـل 1972) في خطب وندوات، ج : 4، ص : 268

(4) كلمـة جلالـة الملك في افتتاح الدورة البرلمانية. 20 ذي القعـدة 1399(12 أكتوبـر 1979)، فـي : خطب وندوات، ج : 6 ص: 331

(5) حديـث جلالة الملك للصحفية الإيطالية أولغا بسيرا، 13جمـادى الأولـى 1412 (21 نونـبر 1991) في انبعاث أمة ج : 36، ص : 457

ويجد جلالة الملك جذورا وتفسيرات تاريخية لمحافظة بلادنا على طبيعتها الوسطية في المجال الديني. فيقول جلالته : "إن ما يمتاز به المغرب ويحمله مسؤولية جسيمة، كونه دولة عريقة عمرها اثنى عشر قرنا، إضافة إلى ذلك فإن المغرب يتميز بوحدة المذهب، حيث أننا نأخذ بالمذهب المالكي وحده منذ اثني عشر قرنا وهو واقع راسخ، وأن ملك المغرب هو في نفس الوقت أمير للمؤمنين" (6)

ويلخص جلالة الملك هذه الخصوصية في الإسلام بالمغرب فيقول : "أعتقد أنه لا يوجد في الكتاب ولا في السنة ولا في الجماعة ما يدفعنا إلى التطرف أو ما يأمرنا به، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. النبي صلى الله عليه وسلم يقول : الدين يسر، ولن يشاد أحدكم هذا الدين إلا غلبه، الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم : ياأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم.أقول : إن معناها ألا تكثروا في السؤال عن دينكم واكتفوا بما جاء في الكتاب وما جاء في السنة، فالتطرف ليس من مميزات الدين الإسلامي ولا أقول به ولا أقول بنجاحه، لأن كل متطرف سيصبح يوما ما ضحية تطرفه، لأنه سيجد بين أتباعه وتلامذته من سيكون أكثر تطرفا منه، ويصبح دوامة مثل الدوامات التي شهدناها في التاريخ كأيام الثورة الفرنسية التي قتلت أبناءها على عشر سنوات" (7)

ولا تخص هذه الوسطية تنظيم إطار التعامل بين الأفراد داخل المجتمع، بل تتجاوزه لتشمل العلاقات بين الأمم والشعوب، يقول جلالته:

---

(6) حديث جلالة الملك لوكالة رويتر، 26 رجب 1412 (1 فبراير 1992) في : انبعاث أمة، ج : 37، ص : 49

(7) حديث جلالة الملك لجريدة الحياة اللندنية، 21 جمادى الأولى 1415(17 أكتوبر 1994) في انبعاث أمة ج : 39، ص : 439

"وإذا كان هذا التسامح الواسع قد شمل غير المسلمين، فبالأحرى أن يكون هو المبدأ الذي تقوم عليه العلاقة بين معتنقي الإسلام وأتباعه الذين رسم لهم الإسلام موقعهم في خط الوسطية التي قال عنها القرآن الكريم : وكذالك جعلناكم أمة وسطا "[8]

2 – *مسايرة روح العصر*

منطلق البناء الفكري في نظرة جلالة الملك إلى هذه المسألة كون الإسلام في بنيته الأساسية دين مسايرلمقتضيات التطور. فالإسلام الحقيقي عند جلالته "هو الإسلام الذي يتطور مع العصر. فالإسلام هو دين غير جامد [..] فالإسلام هو دين سمح، والإسلام هو دين سماوي إلهي، بالطبع فهو دين ملائم لجميع العصور وجميع الأحداث [..] فعلينا إذن أن نلمح الإسلام بعين جديدة، بعين القرن العشرين. فسوف نجد فيه جميع المبادئ "[9]

يتجه منطق نفس النظرة الاتجاه الصحيح حيث لا تعني مسايرة الإسلام لروح العصر مسخه أو تحويره، بل إن الدين هو الذي يحتضن التطور ويقبله. فجلالة الملك يعتبر أن "الدين الإسلامي ليس دينا جامدا، الدين الإسلامي يقبل كل عصر وكل تطور. بل يحتضن كل حضارة فيمزجها بروحه وفلسفته فتصبح حضارة إسلامية عالمية قابلة لكل شيء ويقبلها كل واحد "[10]

---

(8) كلمة جلالة الملك عندما ترأس أشغال مؤتمر القمة الإسلامي السابع 10 رجب 1415 (13 دجنبر 1994) في : انبعاث أمة، ج: 39، ص : 581

(9) محاضرة صاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير مولاي الحسن حول الضمير الاجتماعي (أبريل 1957) في خطب وندوات، ج : 1، ص : 263

(10) كلمة جلالة الملك أمام وفود المهنئين بعيد المولد الشريف، 12ربيع الأول 1392(26 أبريل 1972)، في خطب وندوات، ج : 4، ص : 268

أمـا وسـائل هـذه المسـايرة فتتجلى في كون الديانة الإسلامية هي "الديانـة الوحيـدة التـي تترك باب الإجتهاد مفتوحا. وهو (الإسلام) الذي يطـابق ويلائم كل عصر من العصور التي مرت بها البشرية في تاريخها. فالدين يسر وليس بعسر والإفتاء واسع، والاجتهاد مفتوح"[11]

ويظـل النسق الفكري الحسني في هذا المجال أيضا يتحرك في إطار الإسـلام نفسـه. فجلالتـه يؤكـد" أن الديـن الإسلامي قد نبه إلى قانون التجديـد هـذا. ففـي الحديـث الشـريف "يبعـث اللـه على رأس كل مائة سنـــــة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها "[12] كمـا يلتزم النسق الفكري الحسـني بالإطـار الإسـلامي اعتبـارا لشـمولية الدعـوة الإسلامية للمكان والزمـان، حيث يقول : "الإسلام هو دين الجميع ودين عالمي، لأن الدعوة المحمدية ليست لصنف واحد من البشر، بل خلقها الله سبحانه وتعالى لتكـون مطيـة فـي الحيـاة لكل الشعوب وكل الأجناس دون اختلاف بين الألوان والقارات"[13]

ويفسـر جلالته بعض ما قد يدعيه البعض، فيرى أن السبب في ذلك راجـع إلـى أن "فلسـفة القـانون القرآنـي التـي تؤثر على حياتنا اليومية تـدرس بشكل سيء. فالبعض يريد أن يظهر هذا القانون متحجرا، مع أنه مؤهل لأن يتكيف مع كل الأوضاع المستجدة"[14] ويدعـو جلالة الملك إلى نشـر هذه الفكرة وتلقينها للناشئة، ويقول :"فإذا نحن ربينا ناشئتنا على

---

(11) خطـاب جلالـة الملـك بمناسـبة اجتمـاع لجنة إصلاح التعليم الأصيل 5ذي الحجـة 1392 (10 يناير 1973) فـي : خطب وندوات، ج:4،ص430

(12) حديـث جلالـة الملك إلى مجلة الحوادث اللبنانية. 5 صفـر 1393 (10مـاي 1973)، فـي خطـب وندوات، ج :4، ص : 428

(13) خطـاب جلالـة الملك إلى اللجنة التحضيرية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، 25 صفر 1398. (3 فبراير 1978) في : خطب وندوات، ج : 6، ص:34

(14) حديث جلالة الملك إلى الأسبوعية الفرنسية لوفيكارو ماكازين، 28صفر 1400 (17 ينـاير 1980) في خطب وندوات، ج : 6، ص : 380

معرفة دينها فإنها تجد فيه شريعة ونظاما، شريعة سمحاء متفتحة شريفة قابلة للتطور، شريعة تشمل كل البشرية في مدى زمانها وعلى جميع بساط أراضيها، تجد شريعة لم تترك شيئا إلا ونصت عليه بل ما لم تنص عليه تركت باب الاجتهاد لذوي العلم والثقافة والمعرفة." [15]

ويرى جلالته في هذا المضمار أن "التساؤل عما إذا كان الإسلام مازال يلائم عصرنا ومازال يحفز الناس، [..] شيء خطير" [16]

وإن عالمية الدين الإسلامي بالإضافة إلى مميزاته الذاتية تجعل منه الديانة الإنسانية بامتياز. يقول جلالة الملك : "[..] وهو دين إنساني عالمي، وبذلك فهو دين واسع الأكناف، قادر على استيعاب الحضارات واحتواء الثقافات، لكونه دين الحنيفية السمحة التي تمنحه المرونة والقدرة على التكيف مع جميع الظروف والأحوال، وتجعله صالحا لكل زمان ومكان." [17]

قد يقول قائل إن الالتزام بهذه النظرة قد يعني في النهاية المس بالعقيدة، لكن الأمور واضحة في ذهن جلالة الملك غاية الوضوع ؛ فجلالته يؤكد :"إن الأمر يتعلق بتكيف متواصل من طرف المؤمن، لكن دون المساس بأركان الإسلام المتمثلة في الإيمان بوحدانية الله، وبأن محمدا عبده ورسوله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا" [18] فالإسلام كعقيدة عند جلالة

---

(15) خطاب جلالة الملك في اجتماع رؤساء وأعضاء المجالس العلمية بالمغرب 14 ربيع الأول 1400 (1 فبراير 1980) في : خطب وندوات ج : 6، ص : 387

(16) نفس المصدر والصفحة

(17) رسالة جلالة الملك إلى المشاركين في الدورة الثالثة لجامعة الصحوة الإسلامية، 4 شعبان 1414 (17 يناير 1994) في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 11

(18) حديث جلالة الملك للقناة التلفزية فرانس 2، 21 رمضان 1414(4مارس 1994) في انبعاث أمة ج 39، ص : 114

الملك "لايتنافى مع التحرر ولا مع التقدم، ذلك أن الإسلام – كما تعلمن – مبني على ثلاثة أسس : هي كتاب الله وسنة رسوله والجماعة. فما معنى الجماعة ؟ الجماعة هي أولا الإجماع على أساس الاجتهاد، لأنه لو لم يكن الاجتهاد لما تم العمل بالجماعة"[19]

3 – التوفيق الناجح بين متطلبات الحداثة ومقتضيات الأصالة

إن إشكالية الحداثة والمعاصرة من جهة والأصالة من جهة ثانية موضوع شغل بال العديد من المفكرين مسلمين وغير مسلمين. وقد يكون من المفيد في سياق التعريف بالمسألة الدينية في الفكر الحسني، الوقوف على مظاهر التوفيق بين هذين العنصرين المتعارضين في الظاهر.

ينطلق الفكر الحسني في معالجته لهذه المسألة من كون إسلام المغاربة كان إسلاما طوعيا ناتجا عن التجاوب التلقائي بين روح الإسلام وروح الحرية عند أولئك المغاربة. يقول جلالته : "في ظل الكرامة الإسلامية، تلك الكرامة وتلك الحرية التي جعلت المغاربة يعتنقون الديانة الإسلامية بعد أن توالت عليهم ديانات وديانات سماوية أو وثنية، ولكن لم يجدوا فيها ما أرادوه من حرية وكرامة وتكريم لبني آدم، بل وجدوا كل هذا في الإسلام تكريما للأفراد وتكريما للجماعات"[20]

يستدل جلالة الملك على الترابط بين الإسلام والحرية انطلاقا من مفهوم العلم. ولتأكيد هذه الفكرة يقول: « المجتمع الإسلامي جاء بالحرية حينما بدأ القرآن ب : إقرأ باسم ربك الذي خلق. فالقراءة والكتابة هي سلاح الحرية ولباسها وبيتها. وحينما بدأ الإسلام ب : اقرأ

---

(19) كلمة جلالة الملك عند استقباله لممثلات الحركة النسوية المغربية، فاتح ربيع الثاني 1413 (29 شتنبر1992) في : انبعاث أمة، ج : 37، ص 330

(20) كلمة جلالة الملك عند استقبال المهنئين بعيد المولد النبوي، 12ربيع الأول 1390 (18 ماي 1970)، في : خطب وندوات، ج: 4، ص 48

بـدأ بتكـريم الإنســان، بـدأ بالحرية وحض على الحرية، بل أوجب الجهاد في سبـيـل الحرية "[21]

كمـا ينطلق في نسقه الفكري من مبدأ المسؤولية والاختيار. فالالتزام بالإســلام وقبولـه عقيـدة ومنهاجـا يستلزم القبول المرتبط بالأهلية. يقول جلالتـه : "الديانـة الإسلامية [..] كرمت بني آدم وجعلت المكلف من وصل سـن البلـوغ [..] فـإذن الديانة الإسلامية، جعلت منك أيها المواطن المسلم مسـؤولا [..] المهـم أن تكـون مكلفـا قـادرا علـى أن تكـون عضوا كاملا متكاملا مع الأعضاء الأخرى في المجتمع الإسلامي "[22]

واعتبـارا للمنطلقـين السـابقين، منطلـق الحريـة ومنطلق المسؤولية، تنطبـق النظـرة الحسنية مع متطلبات العصر الحديث وتبين التزامن الدائم بـين الإسـلام ديانة وعقيدة ومنهاجا وبين متطلبات العصر الحديث. يقول جلالتـه : "إذا كانت بعض الديانات الأخرى، وثنية أو سماوية، قد تحرفت واسـتعملت لاسـتعباد النـاس، فالديانـة الإسـلامية جـاءت فـي الحقيقـة بـالتحرر ولتحريـر النـاس، فهـي مطابقـة تمامـا لمـا في القرن العشرين ومطابقـة تمامـا لفلسـفة النقـد الذاتـي والنقد المطلق، ولا تستعبد الناس، وإنما جاءت لتكرم بني آدم. "[23]

إن التنـاقض بـين مفهومي الأصالة والمعاصرة في الدين الإسلامي عنـد جلالـة الملـك تنـاقض ظـاهري سـطحي فقط.فالموضوع بالنسبة له

---

(21) خطـاب جلالة الملك في عيد الشباب، 20 رجـب 1397 (8يوليـوز 1977) فـي : خطـب ونـدوات، ج: ص 494

(22) خطاب جلالة الملك في عيد الشباب، 26 جمـادى الأولـى 1392(8يوليـوز 1972) فـي : خطـب وندوات ج 4، ص : 313

(23) كلمـة جلالـة الملك خلال استقبال الأفواج المتخرجة من المدارس العسكرية والفوج المتخرج من مدرسة تكوين الإطارات. 12جمادى الثانية 1392 (24 يوليوز 1972)، فـي خطـب ونـدوات ج، 4، ص : 318

واضح جلي "الجوهر والمبادئ صالحة للانبعاث، وما تحتاجه هو تجديد فكري مبني على تراث الأمة، قادر على استيعاب التطورات والأحداث وتلبية تطلعات الأجيال الحاضرة [..] إن أمتنا بحاجة إلى نظرية متجددة، لأنها ضمانة بقائها" [24]

ومن مظاهر قدرة الأمة الإسلامية على الاندماج مع متطلبات روح العصر "حيوية الأمة الإسلامية وتداخل مجتمعاتها مع غيرها، وتفاعلها مع حضارات وثقافات وديانات ومذاهب - كانت إلى أمد قريب تفصلها عنها المسافات المادية والمعنوية [..] (كل هذا يخلق) أسلوبا يتيح للمسلم والمسلمة أن يندمجا في المجتمع التكنولوجي" [25]

إن التطورات السريعة والعميقة التي يعرفها عالمنا اليوم لم تعد تسمح بالتقوقع ولا الانعزال، بل إن ذلك لم يعد ممكنا ولو أراده من أراده. فلذلك ينبغي الانطلاق في تحقيق التوافق بين الأصالة والمعاصرة من معطيات هذا العالم المعاصر نفسه. فجلالة الملك يرى "أن العالم الإسلامي يمر اليوم بمرحلة دقيقة يتهيأ فيها للتشارك والتمازج مع العالم المتحضر الحديث، ويستعد لينتحل أنماطا من الحياة المعاصرة، وأشكالا من التقاليد والقيم الجديدة، ويتأهب للتفاعل مع فكر العالم الجديدوإن عليه أن يقوم بهذه النقلة النوعية مع الحفاظ على أصالته والتمسك بجذوره والتشبث بثوابته في الدين والوطنية التقاليد الأصيلة" [26]

---

[24] حديث لجلالة الملك لمجلة الحوادث اللبنانية 5 صفر 1393 (10ماي 1973) في. خطب وندوات، ج :4، ص : 428

[25] رسالة جلالة الملك إلى ندوة الإمام مالك 9 جمادى الثانية 1400(25أبريل 1980) في : خطب وندوات ج: 6، ص 449

[26] رسالة جلالة الملك إلى الملتقى العالمي لخطباء الجمعة. 2شعبان 1413(25 يناير 1993) في : انبعاث حديث جلالة الملك لصحيفة نيويورك تايمز 12 شوال 1415 (13 مارس 1995) في انبعاث أمة، ج : 40 ص 109أمة ج : 38، ص : 46

ويعطي جلالة الملك بدقة وإيجاز خلاصة النقاش في الموضوع حين يؤكد "إن الإسلام لا يتنافى والعصرنة. لكنه إذا كنتم تعتبرون أن العصرنة تكمن في ارتداء النساء فساتين من البلاستيك الشفاف، أو في السماح للشاذين جنسيا بزواج بعضهم من بعض، ففي هذه الحالة فإن الإسلام هو بكل تأكيد تخلف عن الركب." [27] كما يخط لبلده وشعبه المنهاج الواضح السليم في هذا المضمار ملحا على مبدأ أساسي لا يحيد عنه، وهو التوفيق الدائم بين متطلبات التقدم ومستلزمات الحفاظ على الهوية، يقول جلالته: "وطيلة الأربع والثلاثين سنة الماضية لم ندخر جهدا في تعميم التعليم والتكوين والتربية، ولا ضعف لنا عزم في إحكام الخطط لتحقيق شامل التنمية، حامين وحدة المغرب الترابية، ومرسخين مكانته في المجتمعات الدولية، دافعين بك شعبي العزيز على طريق التقدم، وقائدين مسيرتك على مسالك التطور والتأقلم مع مقتضيات عصرنا الذي لا يقبل المتأخرين، ولايغفر للمتخلفين، حريصين مع ذلك على التوفيق بين مقتضيات الأصالة والمعاصرة، ومتشبثين بمثلنا الحضارية، ومحافظين على هويتنا التاريخية، إذ بجميع ذلك يظل المغرب الجديد، امتدادا لعهود التاريخ المجيد.وهذه، شعبي العزيز، معادلة صعبة لاينجح في حل إشكاليتها ووضع أرقامها في موضعها الصحيح إلا الأمم الملهمة فضيلتي الصبر والمصابرة، المحققة أهدافها بكامل الجدية وموصول المثابرة، الأمم التي تعرف وتحقق ما تريد، وتتطلع دائما إلى المزيد. إننا حرصنا دائما على أن لا يكون التقدم الذي نطمح أنا وأنت إلى تحقيقه، شعبي العزيز، مسخا لقيمنا، أو انتكاسة لمثلنا، أو تشويها لصورتنا، أو طمسا لهويتنا، بل جعلنا التقدم في خدمة طموحنا المتمثل في أن يظل المغرب نفسه وذاته لايشكل حاضره في ظل التقدم قطيعة

(27) حديث جلالة الملك لمجلة لوبوان الفرنسية، 13 شعبان 1413 (5يبراير 1993) في : انبعاث أمة، ج : 39، ص 55.

مع ماضيه، ولا يحجزه ماضيه بما يجعله يسير في وجهة معاكسة للتطور المحتوم الذي لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يتجاهل حركيته أحد إلا جرد من نعمة البقاء وسلب" [28]

وبتوفيق من الله وعون منه، فإن جلالة الملك يصرح بأنه "نجح منذ توليه الحكم قبل 34سنة في التوفيق بين تطبيق تعاليم الدين الإسلامي والتحديث المتواصل لبلاده." [29]

(28) خطاب جلالة الملك في عيد العرش، 2 شوال 1415 (3 مارس 1995) في : انبعاث أمة، ج : 40، ص 75

(29) حديث جلالة الملك لصحيفة نيويورك تايمز 12 شوال 1415 (13مارس 1995) في انبعاث أمة، ج:40ص 109

الفصل الثالث : الاعتزازبالانتماء إلى الأمة الإسلامية

يهدف هذا الفصل إلى استخلاص مظاهر شعور جلالة الملك بانتمائه إلى الأمة الإسلامية، وإلى توضيح جهود جلالته لصالح هاته الأمة.

وتوضح الكلمة التالية بداية تكون الإطار الجغرافي للأمة الإسلامية وأهم خصائصها. يقول جلالته : "وماتم ربع قرن بعد وفاته صلى الله عليه وسلم حتى عم الإسلام جل أقطار المعمور، الرشد سنته والعدل قوته، ونشر المعارف بين عامة الناس عدته وتيسير السعادة للعباد محجته، من أقصى الهند إلى وسط أوربا.عمت كلمة التوحيد ومبدأ الأخوة الحقة والإنسانية السمحة"[1]

لقد انطلقت بداية تكون مفهوم الأمة الإسلامية مع الدعوة المحمدية، يقول جلالة الملك : "ولم تمض إلا سنوات معدودات على انطلاق الدعوة الإسلامية وتألق فجرها حتى أصبح للإسلام قدم راسخة وسلطان قوي في قلوب الشعوب والأمم التي أخذ الله بأيديها إلى نور المعرفة [..] ومالبث المسلمون أن طار صيتهم في أرجاء الدنيا وعلت كلمتهم بين الأنام، بما أشاعوه من مبادئ وأخلاق، وأذاعوه من علم وعرفان، وأسسوه من حضارة وبذلوه للإنسانية من جزيل العطاء ونافع الهبات"[2] وهكذا تتأسس على قاعدة الإيمان المشترك لحمة خاصة بين أعضاء الأمة الإسلامية، يقول عنها جلالة الملك : "ولعمري أن أقوى ما يربط البلدان الإسلامية بعضها ببعض هو إيماننا بالله وبرسوله سيدنا محمد والسير

---

(1) خطاب سمو ولي العهد الأمير مولاي الحسن بمناسبة افتتاح المدرسة التي أمر الجناب العالي بالله بتأسيسها. 11 ذي القعدة 1365– (7أكتوبر 1946) في : خطب وندوات، ج : 1، ص : 123

(2) رسالة جلالة الملك إلى الحجاج المغاربة، 15 ذي القعدة 1394 (30 نونبر 1974)، في خطب وندوات، ج : 5، ص: 156

كل يوم وكل سنة على هدي مبادئ الإسلام التي تحث على السلم والإخاء والتفاهم بين جميع دول العالم وبين الدول الإسلامية من جهة وبين هذه الأخيرة والبلدان الأخرى من جهة ثانية"[3] وينبه جلالة الملك إلى بعض ما قد يشوب صفاء علاقات الأخوة بين المسلمين، ويفسره تفسيرا عميقا موفقا : يقول : "التطورات التي وقعت في العالم العربي والإسلامي في العقود الأخيرة لا يجب أن نراها كتطورات منفردة عما يجري حولها، فلي اليقين أن الاتجاهات السياسية والاقتصادية ومن ثم المواقف السياسية الذي اتخذها العالم العربي والعالم الإسلامي ما كان لهما اتخاذها لولا وجود العملاقين: أمريكا والاتحاد السوفياتي، ولماذا ذلك؟ لأن الصف العربي له مقوماته ؛ من لغة، وأقول سلالة دموية، لا أقول دين، إذ هناك في الدول العربية ديانات يهودية ومسيحية وفي العالم الإسلامي هناك رابطة الدين ورابطة القرآن .وهذه الروابط وهذه الوشائج ما تحركت منذ قرون في الماضي بالطبع كانت هناك حروب بين دول ودول، كلها حروب صغيرة قليلة طفيفة لم تكن مهاجمات إيديولوجية ولا معارك ضارية ولا مواقف بين زعيم وزعيم ولا خصومات ساخنة ولا سب ولا شتم .هذه هي أخلاق العالم العربي والإسلامي منذ قرون فجاءت الحرب الباردة والساخنة في آن واحد وعرت العالم العربي والإسلامي من قميص الحياء الذي كان دائما يتستر به وألقت به هذه الحرب الباردة في خضم المعارك التي أصبح فيها العالم العربي والإسلامي يلعب دور المسخر، إما بالشعور وإما بدون أن يشعر"[4] وبعد أن تبين بما لا مزيد عليه من التوضيح ترسخ شعور جلالة الملك بانتمائه إلى الملة الإسلامية واعتباره نفسه عضوا في مجموعة الأمة

(3) كلمة جلالة الملك في مؤتمر صحفي، 25 جمادى الثانية 1406(7 مارس 1986) في خطب وندوات، ج : 9، ص 45

(4) حديث جلالة الملك للمجلة الأمريكية ميدل إست انسايت 2رمضان 1414 (13 فبراير 1994) في : انبعاث أمة، ج 39، ص : 53

المحمدية، فإننا نلاحظ أنه لا يدخروسعا في ترسيخ نفس الشعور في قلوب أفراد شعبه الوفي، كلما سنحت لذلك فرصة. ونجده يستغل مناسبة توجه المغاربة إلى الديار المقدسة ليذكر بالانتماء ويلح على التشبث به. ونورد في هذا المجال مثالين اثنين، يقول جلالة الملك في الأول : "اعلموا وفقكم الله أن الحج مناسبة دينية كريمة، وفرصة سنوية متجددة تتيح للمسلمين أن يجتمعوا فيها على صعيد واحد، يجمعهم الإيمان بالله وتوحيده وعبادته، فهو بذلك مؤتمر إسلامي عظيم يقبل عليه المسلمون من كل حدب وصوب [..] فيستشعرون في أعماق نفوسهم الأخوة الدينية في أبهى صورهاوأسمى معانيها، ويشخصون الوحدة الإسلامية في أروع مظاهرها"(5)

ويقول جلالته في مناسبة ثانية : "واعلموا وفقكم الله لكل خير وهداكم إلى سواء السبيل أن الحج فريضة شرعية عظيمة ومناسبة دينية كريمة، تتاح فيها الفرصة لضيوف الرحمان القادمين من كل حدب وصوب للاجتماع في صعيد واحد لأداء مناسك الحج والعمرة [..] مستحضرين فيها روح الأخوة الإسلامية والمحبة الدينية في أبهى صورها وأروع مظاهرها"(6)

إن الحديث عن أفضال جلالة الملك على الأمة الإسلامية ومواقفه العظيمة لخدمتها وتوجيه النصح لها وتمثيلها خير تمثيل في مختلف المحافل الدولية لموضوع يستحق أن يفرد ببحث خاص، غير أننا نقتصر في هذا المضمار على الإشارة إلى الدور الذي لعبه جلالة الملك لجمع كلمة المسلمين من مختلف بقاع المعمور وتوحيد صفوفهم.

---

(5) رسالة جلالة الملك إلى الحجاج، 7 ذي القعدة 1414 (19 أبريل 1994) في انبعاث أمة، ج : 39، ص 161

(6) رسالة جلالة الملك إلى الحجاج 7 ذي القعدة 1415 (17 أبريل 1995) في انبعاث أمة، ج: 40، ص 193

فقد نجحت مساعي جلالته في جمع أول مؤتمر قمة إسلامي يعتبره جلالته "الأول من نوعه منذ وفاة الرسول"[7] وقال جلالته في افتتاح هذا المؤتمر : "من أهم النتائج التي أعدها أشرف النتائج أننا سوف نعطي لمدلول الإسلام ومفهوم الإسلام معناه الحقيقي.وسوف نعطي للفلسفة الإسلامية وللديانة الإسلامية وللأخلاق الإسلامية مفهوما آخر، وسوف نوحد منطقنا وقاموسنا ومفاهيمنا في المسائل الدينية والدنيوية"[8] ويلح جلالته في مناسبة مماثلة على عناصر التوادد والتراحم التي تجمع بين المسلمين، فيقول : "تجمع بيننا عقيدة مرتكزة على الكتاب والسنة. وفي هذا الكتاب المقدس وهذه السنة المحترمة، ماذا نجد ؟ نجد أولا أن ديننا هو دين الإسلام. وعند اللغويين الإسلام مشتق من السلام. إذن نحن دول سلام وأخوة وتعاطف"[9]

لقد كانت كلمة جلالة الملك في افتتاح مؤتمر القمة الإسلامي السابع تمثل مخططا متكاملا لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين الدول الإسلامية، وللدور الذي يمكن أن تلعبه هاته الدول على الساحة العالمية في ضوء مستجدات النظام العالمي الجديد.

فجلالة الملك ينطلق من خاصية التضامن الواجب بين أعضاء الأمة الإسلامية، انطلاقا من الحديث النبوي المعروف. يقول جلالته : "وفي حديثه الشريف القائل : مثل المؤمنين في توادهم وتحابهم كمثل

---

(7) حديث جلالة الملك لمجلة لوبوان الفرنسية، 13 شعبان 1413 (5يبراير 1993) في : انبعاث أمة، ج : 38، ص: 56

(8) خطاب جلالة الملك في افتتاح مؤتمر القمة الإسلامي الأول 12 رجب 1389 (25 شتنبر 1969). في : خطب وندوات، ج: 3، ص : 503.

(9) خطاب جلالة الملك في افتتاح مؤتمر القمة الإسلامي، 12 ربيع الثاني 1404 (16 يناير 1984) في : خطب وندوات، ج : 8، ص : 12

الجسد الواحد، إن اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد السهر والحمى"[10]

ويحدد جلالة الملك في هذا الخطاب التاريخي المخطط العام الذي يجب أن ينطلق من روح الإسلام لينظم كل علاقات الدول الإسلامية، سواء فيما بينها أو بينها وبين غيرها.وأول هذه القواعد أن الإسلام يدعو إلى التعايش بين الأمم، يقول جلالته :"إن دعوة الإسلام دعوة إلى التعايش السلمي بين الأمم، وإلى التفاهم العالمي، وإلى تكريم الإنسان الذي لايفرق ديننا الحنيف بين أفراده، ولا يقيم بينهم حواجز العنصر ولافوارق الدين، ولايرسم بينهم فواصل الحدود، فالناس كما جاء في الحديث الشريف من آدم وحواء، "لافضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"، "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، ولا يكره أحدا على اعتناقه. وقال الله سبحانه وتعالى ﴿**وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر**﴾ وقال الله تعالى : ﴿**لا إكراه في الدين**﴾[11]

ثم يحدد جلالته الإطار العام لما يجب أن تكون عليه علاقة الديانة الإسلامية بغيرها من الديانات السماوية، فيقول : "الإسلام يأمر المسلمين أن يومنوا بكتب الله المنزلة، ولا يفرقوا بين أنبيائه ورسله، وأن ينشروا بين الأنام رسالة السلام والوئام، لتنتشر السكينة ويسود الاطمئنان والاستقرار الربوع والأمصار، ويأمن العالم كله شرور المهالك والأخطار، ومن أجل ذلك كان أول نداء عالمي للتعايش بين الديانات السماوية الموحدة هو ذلك النداء الذي جاء في القرآن الكريم : ﴿**قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله**

---

(10) خطاب جلالة الملك في افتتاح أشغال مؤتمر القمة الإسلامي السابع 10 رجب 1415 (3 دجنبر 199) في : انبعاث أمة، ج 39، ص : 580.

(11) نفسه، في نفس الصفحة

ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله﴾ (صدق الله العظيم)[12]

ويبين جلالته أن السلام ملازم للإسلام، ويقول : "كما كان أول نداء للسلام العالمي هو قوله تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾**، وقوله : ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾**، وقد حث نبينا صلى الله عليه وسلم على نشر السلام في حديثه الكريم : "أفشوا السلام ".وإذا كان هذا التسامح الواسع قد شمل غير المسلمين فبالأحرى أن يكون هو المبدأ الذي تقوم عليه العلاقة بين معتنقي الإسلام وأتباعه الذين رسم لهم الإسلام موقعهم في خط الوسطية التي قال عنها القرآن الكريم : ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾**. وقد حدد الإسلام قواعد القانون الدولي المتعلقة بشروط السلام والحرب، وسن قواعد أخرى للتعامل الدولي ولمعاملة المسلمين بعضهم بعضا في أحوال الاتفاق والاختلاف، فقال تعالى: ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيئ إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين﴾** (صدق الله العظيم).[13]

ويسهر جلالة الملك في كل مناسبة على الدعوة إلى الدفاع عن الإسلام والعمل بكل الوسائل على مواجهة مساعي خصومه للنيل منه وتشويه صورته، خصوصا في العقدين الأخيرين، حيث يشير جلالته في إحدى كلماته إلى ما يوليه من "حرص بالغ على سمعة الإسلام وقدسية رسالته، خاصة في هذا الظرف الذي أصبحت فيه أمتنا هدفا للهجمات المغرضة والافتراءات والترهات التي لامبرر لها سوى تخوف

---

(12) نفسه

(13) نفسه

بعض أعداء الإسلام من توطيد دعائم صحوته وتواصل إشعاعه"[14]. ويؤكد جلالة الملك نفس الفكرة في مناسبة ثانية حين يقول : "إن ما أصبح عليه وضع المسلمين وصورة الإسلام نتيجة للمغالطات والمفاهيم الخاطئة التي تلصق بديننا وأمتنا، لمن شأنه أن يجعلنا أكثر تصميما على المساهمة بجد وإخلاص مع الأسرة الدولية في إرساء قواعد النظام العالمي الجديد على المبادئ التي جاء بها ديننا الحنيف، مبادئ العدل والمساواة والسلام والشرعية الدولية"[15]

ويسجل جلالته بكل ارتياح الدور الذي تلعبه منظمة المؤتمر الإسلامي، ويلزمه تواضعه المعروف بعدم تسجيل دوره في تأسيس هذه الهيأة الإسلامية فيقول : "وإننا ونحن نستعرض العمل الجماعي الذ ي قامت به دول العالم الإسلامي في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي لنشعر بالتفاؤل والاستبشار، لأننا -رغم المؤامرات وخطورة التحديات ودقة المرحلة التي تجتازها الأمة الإسلاميةمنذ منتصف هذا القرن على الأقل مازلنا نعمل في أحضان الأسرة الإسلامية"[16] ولاتفوت جلالته هذه الفرصة لدعوة الأمة الإسلامية إلى الاستعداد لولوج القرن الواحد والعشرين، مع ما يقتضيه ذلك من احتياطات وتدابير، فيقول : "ينبغي ألا يعزب عن بالنا أن القرن الواحد والعشرين لم يعد يفصلنا عنه سوى خمس سنوات، وأنه ينبغي أن نستعد لدخول القرن المقبل على غرار الأمم والشعوب التي صححت عزمها على فرض وجودها والاضطلاع بدورها الكامل في مسيرة الإنسانية. وإذا كنا لاغنى لنا عن الأدوات التي

---

(14) رسالة جلالة الملك إلى أشغال مجموعة خبراء منظمة المؤتمر الإسلامي حول "صورة الإسلام في العالم الخارجي" 8 محرم 1416 (7 يونيه 1995) في : انبعاث أمة، ج : 40، ص 312

(15) رسالة جلالة الملك إلى المشاركين في الاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي، 15 ربيع الأول 1416 (11 شتنبر 1995) في: انبعاث أمة، ج : 40 ص 437

(16) نفسه، ص : 436

يتيحها التقدم العلمي والتكنولوجي [..] فإننا في نفس الوقت لا يليق بنا أن نغفل عن تراثنا الإسلامي المشترك وصيانته [..] وذلك حماية لهويتنا وصيانة لمقومات شخصيتنا "[17]

وبموازاة الدور الكبير الذي لعبه جلالة الملك في تأسيس وترسيخ منظمة المؤتمر الإسلامي، فإنه لايدع فرصة تمر دون أن يتوجه بالنصح والإرشاد لإخوانه المسلمين في مختلف بقاع الأرض.يقول جلالة الملك : «قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" وقال في حديث آخر : "الدين المعاملات". فمن هنا يمكن أن نبني الأسرة الإسلامية على أساس الدين كعبادات وقنوت وتخشع، وهي شيء بين العبد وربه، ولكن يمكننا أن نفكر في عالم إسلامي يكون أساسه ومحوره ومداره المعاملات وحسن المعاملة»[18]. ويقول جلالته في مناسبة ثانية : "ويقيننا في أن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم،بما يحتويان عليه من أخلاق للمدينة وأخلاق للدولة وأخلاق للجماعة البشرية وأخلاق حتى للمواطنين في مدينة واحدة، إن السنة المحمدية سنجدها في الإطار الطبيعي لحياتنا وتعايشنا كذلك مع العالم. لأن دين الإسلام هو دين الجميع "[19] ويقول في مناسبة أخرى : "إن واقع أمتنا الإسلامية، في الظروف الراهنة، يدفعنا إلى أن نجعل في مقدمة المهام التي يجب أن تبذل من أجلها الجهود، إعطاء مدلول البعث الإسلامي صورته الحقيقية بترشيد الصحوة الإسلامية وتوجيهها ورعايتها، وفق ما تقتضيه مصالح الأمة، وفي إطار مقاصد الشريعة "[20]

---

(17) نفسه، ص : 439

(18) كلمة جلالة الملك أثناء استقباله لرابطة الجامعات الإسلامية 17 جمادى الأولى 1396 (17 ماي1976) في : خطب وندوات، ج : 5، ص 361

(19) كلمة جلالة الملك للجنة التحضيرية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري. 25 صفر1398 (3 يناير 1978) في : خطب وندوات، ج : 6 ص 34

(20) رسالة جلالة الملك إلى المؤتمر الدولي حول السيرة النبوية المنعقد بإسلام أباد. 10 ربيع الأول1406 (23 نونبر1985) في خطب وندوات، ج : 8، ص : 390.

ويتوجه جلالة الملك إلى عموم الأمة المحمدية عبر خطباء الجمعة قائلا : "إذا كان من واجب الخطيب توجيه الأمة إلى ما يضمن نقاء عقيدتها وسلامة عبادتها، فإن من الواجب عليه أيضا توجيهها إلى مايتوقف عليه بناء مستقبلها بفتح بصرها وبصيرتها على أسباب ارتقاء الأمم ودواعي ازدهارها ولفت انتباهها إلى ما يتحقق كل يوم من تقدم في العلوم واتساع في المعرفة واستبحار في العمران، وإن الإسلام لا يتعارض مع ذلك، بل يدعو إليه ويحض عليه. ثم إن مستقبل البشرية يتوقف على التعايش والتساكن ونبذ العنف والحروب والتطاحن. وهذا يستوجب أن تخدم خطبة الجمعة هذه الأغراض الإنسانية النبيلة، فتغرس في النفوس حب بني الإنسان ومعاني الخير والتسامح والسلام والتعاون والأخوة الإنسانية "[21]

كما يتوجه جلالة الملك إلى وزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية في دول العالم الإسلامي ومن خلالهم إلى كافة أفراد الأمة الإسلامية قائلا: "ان العالم الإسلامي – كما لا يخفى عليكم – يشهد الآن في كافة أقطاره صحوة إسلامية عامة، تهدف إلى العودة بالمسلمين إلى أصالتهم الدينية والاجتماعية، والاستقاء من ينابيع الإسلام الصافية، والحفاظ على شخصيتهم المتميزة، وهويتهم الذاتية الأصيلة، وهي صحوة طيبة محمودة تبعث على التفاؤل، ولكن يجب العمل على ترشيدها وتوجيهها الوجهة السليمة، وتصحيح مسارها في الطريق الواضح لتسير على ضوء هدي الإسلام ونوره، وشريعته الحكيمة السمحة، وأخلاقه الفاضلة، وتظل صحوة رشيدة واعية، مستنيرة متبصرة، تنفع ولاتضر، وتبني ولاتهدم وتصلح ولاتفسد، وتبقى مهتدية بما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية

(21) رسالة جلالة الملك إلى الملتقى العالمي لخطباء الجمعة. 2 شعبان 1413 (25 يناير1993) في : انبعاث أمة، ج : 38، ص : 47

من مبادئ اليسر والتسامح والوسطية والاعتدال، والإقناع بمنطق الفكر المسالم والحوار البناء الهادف، والتعايش مع الفرد الآخر، والتحاور الرصين مع الرأي الآخر، عملا بقول الله تعالى: "أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"[22]

ثم يبلغ هنا النصح غايته عندما يتوجه جلالة الملك إلى إخوانه ملوك ورؤساء دول العالم الإسلامي، قائلا : "لاشيء – ولله الحمد – يفرق بين المسلمين الذين وحد الإسلام بين قلوبهم وجعل منهم أمة واحدة تؤمن بالله الواحد وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأقامها أمة داعية لرسالة الخير والفضيلة والتقريب بين أجزاء العالم، وجمعها على صعيد المحبة والوفاق [..] ونقترح على مؤتمرنا أن تنبثق عنه هيأة عليا تصبح مرجعية للتعريف بأحكام الإسلام بعيدا عن كل خلط أو التباس أو تأويل مشبوه. وهذا لا يعني أن تمس هذه الهيأة بتنوع الهويات والخصوصيات، لأن وحدة الإسلام تغني بهذا النوع المرغوب فيه من التنوعات"[23]

ولا يمكن أن نختم هذا الفصل دون أن نشير إلى وعي جلالة الملك بالأهمية الستراتيجية التي تتميزبها دول العالم الإسلامي، ومنها المغرب، ومن ثم الدور الذي يمكن أن تلعبه في إطار التطورات الكبرى التي يشهدها العالم المعاصر، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.فموقع المغرب، والتزامه بمبادئ الإسلام أمران يجعلان منه عنصرا على جانب كبير من الأهمية في التوازنات الدولية. يقول جلالته : "رباط الإسلام في هذه

---

(22) رسالة جلالة الملك إلى المشاركين في أشغال المؤتمر الخامس لوزراء الأوقاف والشؤون الإسلامية بدول العالم الإسلامي. 13 جمادى الأولى 1415 (19 أكتوبر 1994) في : انبعاث أمة، ج : 39 – ص : 514

(23) كلمة جلالة الملك في افتتاح أشغال مؤتمر القمة الإسلامي السابع، 10 رجب 1415 (13 دجنبر 1994)، في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 580.

البقعة من افريقيا هو المغرب. وضروري أن يبقى للإسلام رباط "[24] كما أن العالم الإسلامي، بتناسق مؤسساته وعمق انتشار الإسلام فيه يشكل بدوره عنصرا مهما في مجال العلاقات الدولية. فجلالة الملك يرى أن : "العالم الغربي، مسيحيا كان أو يهوديا، بينه وبين الإلحاد والماديات، سوف لا يجد إلا قوة منظمة تسهر على حريته وتأخذ بيده وتناضل معه لكرامة الإنسان وحريته، وهو الإسلام"[25] ولا يقتصر هذا الدور على الحماية والوساطة، بل يتعداه إلى دور إيجابي يتمثل فيما يقوم به المغرب من خدمة للإسلام في القارة الإفريقية.يقول جلالة الملك :"المغرب كان – كما تعلمون– دائما الرابط بين الإسلام وبين شعوب افريقيا السوداء في غرب افريقيا. فإذن يعتبر المغرب أنه يتحمل على عاتقه دورا وأمانة، ألا وهو تبليغ الشريعة المحمدية "[26]

(24) جلالة الملك يفتتح درسا دينيا من الدروس الحسنية الرمضانية بكلمة سياسية حول عزم موريتانيا التخلي عن تيرس الغربية 8 رمضان 1399 (2 غشت 1979). في : خطب وندوات، ج : ، ص 293.

(25) خطاب جلالة الملك في اجتماع رؤساء وأعضاء المجالس العلمية بالمغرب، 14ربيع الأول 1400 (1 فبراير 1980) في : خطب وندوات ج :6، ص 388

(26) ندوة صحفية لجلالة الملك بمدينة الطائف، 22 ربيع الأول 1400(9يبراير 1980) في : خطب وندوات ج : 6، ص 392.

الفصل الرابع : علاقة الديانة الإسلامية بباقي الديانات السماوية

ما هي الضوابط التي تحكم علاقة الإسلام كديانة بباقي الديانات السماوية ؟ هذا هو السؤال الذي يحاول هذا الفصل استخلاص مقوماته من خلال أفكار جلالة الملك. ينطلق الفكر الحسني في هذا الباب من مبدأ عام. فبعد أن تطور المجتمع البشري وظهرت فيه معالم فقدان التوازن بين الأشخاص، "ظهرت إذ ذاك الديانات وجاء أنبياء الله ورسله، يدعون إلى الخير ويدعون إلى الرحمة ويدعون إلى البر ويدعون لوعي اجتماعي، وعي أساسه الديانة، وأساسه الفلسفة السماوية [..] ونرى كذلك في كتاب الله أن الله سبحانه وتعالى على لسان رسله من بني اسرائيل، أو على لسان نبيه، وخاتم النبيئين، يدعو إلى القسط ويدعو إلى العدالة"[1]

وهكذا فجميع الديانات السماوية ترمي إلى تقنين العلاقات بين الفرد وخالقه من جهة، وتنظيم العلاقات بين الأفراد من جهة ثانية. وبهذا تتساوى جميع الأديان في هذا الدور المثالي، كما سنرى بعد قليل. غير أن جلالة الملك يرى أن بعض الديانات لحقها من التشويه والتحريف والتزييف، ما جعلها تحيد عن هدفها الأصلي. يقول جلالة الملك : "جاء (الدين الإسلامي) بعد تدهور الديانة اليهودية وجاء بعد ما أدخلت عدة شبهات على الديانة المسيحية. فجاء دينا وسطا ليعطي الله ما هو لله وليعطي للبشر ما هو للبشر"[2] ويقول جلالته في نفس المعنى: "من بين الأديان الثلاثة السماوية، فإن الإسلام مرتبط جدا بالحياة العامة. فقد حاول سيدنا موسى تنظيم المجموعة في الحياة اليهودية، وكان

---

(1) محاضرة لصاحب السمو الملكي ولي العهد الأمير مولاي الحسن حول الضمير الاجتماعي، فاتح أبريل 1957، في : خطب وندوات، ج :1 ص256

(2) كلمة جلالة الملك أمام وفود المهنئين بعيد المولد النبوي الشريف 12ربيع الأول 1392 (26 أبريل 1972)، في : خطب وندوات، ج : 4، ص: 268

المسيح عليه السلام أول من رفض وحاول تقويم ما تم اعوجاجه. وقد نظم القرآن الدولة الإسلامية وحياة المواطنين والدولة بإنشاء روابط خاصة بين المواطنين والمجموعة الإسلامية"[3] وبذلك يلاحظ جلالة الملك أن هناك تراتبية واضحة بين الأديان السماوية الثلاثة، تجعل الديانة الإسلامية أحسن هاته الديانات وأقومها. يقول جلالته : "أعتبر أن ما انبنت عليه الديانات الثلاثة، اليهودية والنصرانية والإسلامية بمثابة المدرسة الابتدائية ثم المدرسة الثانوية بالنسبة للنصرانية و هي الأخلاق والفضيلة وغيرها، وأخيرا المدرسة العليا، أي الكلية والجامعة، وهي الديانة الإسلامية التي ماتركت بابا من أبواب التعايش [..] الفردي أو الجماعي إلا طرقته"[4] ويؤكد جلالة الملك هذه الفكرة في مناسبة ثانية قائلا : "هذا ما جعلني أقول بأن الديانة الإسلامية هي المدرسة العليا بالنسبة للديانات كلها"[5]

إن هاته النظرة إلى الأديان السماوية لا تزيد عن أن تصف واقعا مؤكدا مشاهدا، مطابقا لما ورد في القرآن الكريم حول هاته الأديان، ولا تهدف إلى التقليل من الأدوار المنوطة أصلا بهذه الأديان أو التي تقوم بها فعلا على أرض الواقع. فالديانات السماوية الثلاث، فوق ما بينها من التفاوت والتفاضل تحقق دورا مهما في حياة البشرية. فجميع المذاهب الدينية عند جلالته: "تضمن [..] حماية القيم الروحية"[6]

---

(3) حديث جلالة الملك مع وفد من الصحفيين الفرنسيين. 19 جمادى الثانية 1399 (16 ماي 1979) في: خطب وندوات، ج : 6، ص : 248

(4) خطاب جلالة الملك حول المخطط الاقتصادي، 29 جمادى الثانية 1398 (4 يونيه 1978) في : خطب وندوات، ج : 6، ص : 62

(5) حديث جلالة الملك إلى جريدة السياسة الكويتية، 7 رجب 1398 (14 نونبر 1978) في : خطب وندوات، ج : 6، ص: 88

(6) رسالة جلالة الملك إلى المؤتمر الدولي لمناهضة الاستعمار والميز العنصري المنعقد بأسلو، 6 ربيع الأول 1393 (10 أبريل 1973) في خطب وندوات ج : 4، ص : 440

ويؤكد عند حديثه عن مشكلة الشرق الأوسط : "أعتقد [..] أن تظافر الديانتين والتيارين الإسلامي واليهودي وكذلك المسيحي، من شأنه أن يخلق الطمأنينة المبتغاة في هذه المنطقة من العالم"[7]

كما يؤكد جلالة الملك : "أن تظافر المسيحية والإسلام، سيكون على هذا النحو، ومرة أخرى، إسهاما فعالا في استتباب الهدوء والسكينة والاستقرار والسلام في العالم"[8] ويقول في مناسبة ثانية : "فالإسلام والمسيحية لهما نفس الدور، ويمكن أن يشكلا معقلا يحمينا جميعا [...] وأعتقد أن استئناف وإغناء الحوار بين الإسلام والمسيحية من شأنهما الحفاظ على العديد من الأشياء"[9] ويوضح في مناسبة ثالثة أن الهدف الأسمى للتعاون بين الديانات الثلاث يجب أن يفهم في إطار الحفاظ على التراث الروحي وضمان الأمن والسلام في العالم. يقول جلالة الملك : "إني وجدت لدى قداسة الزعيم الروحي [..] أن الوقت قد حان للديانات السماوية الثلاث – يعني أبناء سيدنا ابراهيم عليه السلام، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهودا – يجب عليهم في الحقيقة أن يلتقوا في القدس لا من أجل المواجهة، ولكن بهدف إقامة تراث روحي وتاريخي مشترك من أجل استقرارالعالم وسلامته"[10]

و يبرز من فكر جلالته هدف آخر للديانات السماوية، مشترك بينها، حيث يقول جلالته : "إن من قيم الإسلام الأساسية [..] الدعوة

---

(7) حديث صحفي لجلالة الملك إلى جريدة فرانس سوار. 26 ذي القعدة 1397 (8 نونبر 1977). في : خطب وندوات ج 5، ص: 523

(8) رسالة جلالة الملك إلى سماحة البابا بعد عودته من الفاتكان 4 ذي القعدة 1399 (26 شتنبر 1979). في خطب وندوات، ج : 6 ص : 326

(9) حديث جلالة الملك للأسبوعية الفرنسية لوفيگارو ماگازين 28 صفر 1400 (17 يناير 1980) في خطب وندوات : ج 6، ص : 379

(10) حديث صحفي لجلالة الملك بعد التقاء جلالته في الفاتكان مع سماحة البابا، 16 جمادى الأولى 1400 (12 أبريل 1980) في خطب وندوات : ج، 6ص : 433

إلى التعايش بين الثقافات والحضارات القائمة على تمجيد مبادئ الفضيلة والساعية إلى إسعاد البشرية دنيا وأخرى. وهذا ما دعت إليه الديانات السماوية الموحدة الثلاث"[11] وحسب نفس الفكر، فالديانات السماوية تلتقي في البحث عن الكمال. يقول جلالته :" إن البحث عن الكمال في معرفة الله ليس أمرا محرما في الإسلام ولا في النصرانية ولا في اليهودية. بل على العكس فهو أمر مستحب. إلا أنه لاينبغي أن يكون إلا من أجل معرفة الله الواحد الأحد. فما يميز الديانات السماوية الثلاث هو أنها كلها تدعو إلى عبادة الله وحده"[12]

وانطلاقا من تحديد الوظائف المشتركة للأديان السماوية الثلاثة، يصل الفكر الحسني إلى مبادئ عامة يمكن حصرها في ثلاثة مبادئ أساسية هي : مبدأ حرية الممارسة الدينية، ومبدأ احترام كل الأديان، ومبدأ التسامح والتعايش فبالنسبة للمبدأ الأول، يعلق جلالة الملك على أول دستور للمملكة منطلقا من الفصل السادس منه :"الإسلام دين الدولة، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية، وقد أردنا بذلك أن نوضح أن المغرب كدولة إسلامية وفيّ لفكرة الإسلام الصحيح يضمن حرية ممارسة الشعائر الدينية. ومن المؤكد أن الديانة اليهودية يمكن ممارستها بكل حرية وكذا الشأن فيما يخص الديانة المسيحية لأنها ديانات أهل الكتاب يقرها الإسلام ويفرض الإيمان بأنبيائها"[13] وأساس هذه النظرة عند جلالة الملك نابعة من اقتناعه ب : "أن ديننا لايحتاج إلى إكراه، لأنه محبب إلى كل ذي عقل

---

(11) رسالة جلالة الملك إلى المشاركين في الندوة العالمية حول القدس، 3 جمادى الأولى 1414(19 أكتوبر 1993) في انبعاث أمة :ج، 38ص 411

(12) حديث جلالة الملك إلى القناة التلفزية فرانس 2، 21 رمضان 1414 (4مارس1994) في انبعاث أمة : ج. 39، ص : 111

(13) ندوة صحفية لجلالة الملك بعد نجاح مشروع الدستور 14 رجب 1382 (12 دجنبر 1962) في خطب وندوات ج : 2، ص 145

وكل ذي تمييز. وثانيا لأن الإسلام هو دين أخلاق قبل أن يكون دين عبادة. وإذا كانت هناك ديانة تدين بالتسامح فهي الإسلام.فالإسلام لم يجبر قط نصرانيا أو يهوديا على اعتناقه [..] فالتسامح عنده هو الحضارة والتسامح هو فلسفة الإسلام"[14] وبالنسبة للمغرب، يفسر جلالة الملك روح التسامح التي تسوده بعاملين: يقول جلالته في معرض رده عن سؤال متعلق بوضعية المغرب كبلد كانت له علاقات عادية مع سكانه اليهود، "لسبب بسيط، هو أننا لا نقيم أي تمييز. فعندنا ليس هناك أبدا أي تمييز بين مغربي يهودي ومغربي مسلم. فهذا التمييز سائد عند آخرين وليس عندنا نحن، وهذا في نظري يرجع لعاملين مهمين اثنين : عامل ديني، فبالنسبة للمسلم إذا وجد في مكان ليس به مسجد فيمكنه أن يؤدي الصلاة بكنيسة أو بيعة، لأن كليهما بيت الله، إذن فالتسامح الإسلامي يجعل أماكن الشعائر الدينية بالنسبة لنا مقدسة سواء كانت مسجدا أو كنيسة أومعبدا بروتستانيا أو يهوديا، هذا بالنسبة للجانب الديني.أما العامل الثاني فهو العامل العقائدي والثقافي، فعلى الصعيد الثقافي ساهم اليهود المغاربة على الدوام في الخلق والإبداع بالمغرب بفنهم وفكرهم وأدبهم وطبهم وثقافتهم، وعلى الصعيد الاقتصادي كان اليهود المغاربة دوما أناسا نشيطين جدا سواء على مستوى الصناعة التقليدية المحلية أو على مستوى العلاقات التجارية مع الخارج، فلم يكونوا أبدا عالة علينا، فلم نعامل اليهود أبدا كأشخاص غير منتجين، فقد شاركوا دائما في الحياة العلمية بالبلاد، وقد تستغربون إذا ذهبتم إلى جنوب مراكش لأنكم ستجدون هناك يهودا يتكلمون اللهجة البربرية المحلية، ويرتدون الزي السائد، ويحرثون الأرض، وهذا شيءليس معتادا لدى عامة اليهود"[15]

---

(14) خطاب جلالة الملك في افتتاح الدورة البرلمانية الجديدة، 20 ذي القعدة 1399 (12 أكتوبر 1979) في : خطب وندوات، ج : 6، ص 331

(15) حديث جلالة الملك للتلفزيون الإيطالي راي أونو، 17 جمادى الأولى 1412 (25 نونبر 1991) في: انبعاث أمة، ج : 36، ص 474

وخلاصة القول، كما يقول جلالة الملك : "إذا كنا أقررنا في الدستور أن الإسلام دين الدولة، فقد كنا دائما حريصين على تطبيق تعاليم الإسلام في انفتاح وسماحة، تقيدا بالإسلام الحق"[16]

أما المبدأ الثاني الذي يستشف من خطب جلالة الملك فيتمثل في مبدإ التسامح والتعايش بين الديانات السماوية الثلاث. يقول جلالته : "تولى المسلمون أكثر من 1300 سنة شؤون هذه المدينة المقدسة (القدس) وسجل التاريخ وشهد العالم كله تسامحهم و احترامهم لأديان الأخرى. وهم وحدهم الذين يستطيعون ضمانة واستمرار هذا التسامح وهم الذين ينبغي أن يكونوا حراسا وأمناء على الأماكن المقدسة لأنهم هم الذين يؤمنون بأديان الأنبياء الثلاثة الراسخة جذورها في القدس الشريف"[17] ويقول في مناسبة أخرى : "إننا موقنون بأننا ونحن نخلق ظروف تعايش هادئ وديع بين المسلمين والكاثوليكيين، إنما نضفي على حقائق الواقع المغربي روح التسامح العظيم الذي يمتاز به الإسلام، والذي توالى باتصال واستمرار صفة طابعة لعلائقنا"[18] كما يلح جلالته على أن "الإسلام السني هو الذي ينص على المساواة بين جميع المسلمين ويحث على التسامح والتعايش مع الديانات لسماوية الأخرى"[19] ويبين جلالة الملك أن عدم تعرف العديد من الأجانب على أهمية روح التسامح في الإسلام آتية من جهلهم به. ففي

(16) خطاب جلالة الملك في عيد العرش، 27 شعبان 1412 (3 مارس 1992) في : انبعاث أمة، ج : 37، ص : 83

(17) رسالة جلالة الملك إلى الندوة العالمية للقدس، 13 محرم 1400 (3 دجنبر 1979) في : خطب وندوات، ج : 6، ص : 360.

(18) رسالة جلالة الملك إلى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، 24ربيع الثاني 1403 (8 يبراير 1983) في خطب وندوات، ج : 7، ص 438.

(19) حديث جلالة الملك لصحيفة لوفكارو مكازين، 22 جمادى الأولى 1404 (25 يبراير 1984) في، خطب وندوات، ج : 8ص. 58

معرض رده عن سؤال حول الأفكار المسبقة عن الإسلام والمتمثلة في التخوف من عدم تسامح هذه الديانة، استشهد السائل بالآية الكريمة القائلة بألا إكراه في الدين، فكان جواب جلالة الملك : "إن الأمر يتعلق هنا أيضا بالجهل، لأن القرآن الكريم لا يتضمن هذه الآية وحدها، بل هناك آيات أخرى في نفس المعنى، وخاصة في سورة البقرة حيث يقول عز وجل : ﴿**كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله**﴾ ومن بين تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم أنه عندما يجد مسلم نفسه في بلد غير إسلامي ويريد أن يصلي ولا يجد مسجدا فيتعين عليه أن يبحث عن كنيسة أو بيعة لأداء صلاته، بدل أدائها في الشارع أو في مكان عمومي. وأعتقد أن الجهل لا يمكنه أن ينطوي إلا على عدم التسامح "[20]

ويدلل جلالة الملك على تشبث المغرب بمبدأ التسامح والتعايش بين الأديان السماوية مستعرضا من خلال ذلك عددا من مظاهر هذا التسامح. فيقول جلالته : "فالمغرب هو أرض التسامح حيث تتعايش مختلف الأديان، واليوم يمكن للمرء أن يجد في معظم مدن المغرب الرئيسية دور المعابد اليهودية التي يرأسها حاخام تقيم العدالة باسمنا في سياق تطبيقها لتعاليم وقوانين سيدنا موسى عليه السلام. إن المغرب هو البلد الإسلامي الأول والوحيد الذي استضاف ورحب بقداسة البابا يوحنا بولس الثاني الذي أقام قداسا شارك فيه الآلاف من الكاثوليك المؤمنين "[21] إن آراء ومواقف جلالة الملك في هذا الباب مبنية على أساس ديني متين، انطلاقا من القرءان الكريم. يقول جلالته : "فالدين الإسلامي دعا إلى

---

(20) حديث جلالة الملك للقناة التلفزيونية فرانس 2، 21 رمضان 1414(4 مارس 1994) في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 110

(21) رسالة جلالة الملك إلى المؤسسة الأمريكية وولف تراب، 10 ربيع الثاني 1415 (17 شتنبر 1994) في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 357.

التعـايش بـين الديانـات، والقـرءان الكريم دعا إلى التقاء أهل الكتاب على قاعدة توحيد الخالق"، ﴿**يـاأهل الكتـاب تعـالوا إلـى كلمـة سواء بيننا وبينكـم ألا نعبـد إلا اللـه ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله**﴾، وقد جاء في القرآن الكريم أيضا ﴿**ءامـن الرسول بمـا أنـزل إليـه مـن ربـه والمؤمنون، كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسـله، لا نفـرق بـين أحـد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير**﴾ (صدق الله العظيم)[22] ويؤكـد جلالتـه نفس الفكرة حـين يقـول فـي مناسبة أخرى : "وقد أكد الحق سبحانه في كتابه المبين أن إيمـان المسـلم لا يكتمل إلا بإيمانه بالله وبملائكته وجميع كتبه ورسله وبـاليوم الآخـر وبالقدر خيره وشره، وطبق الرسول صلى الله عليه وسلم الحـوار مـع نصـاري نجـران حيـث تلا عليهم سورة آل عمران التي نزل فيهـا النـداء العـالمي للتعـايش بـين الديانات السماوية "قل ياأهل الكتاب تعـالوا إلـى كلمـة سـواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخـذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله" ولم يزل المسلمون على ذلك يقـارعون الحجـة بالحجـة والبرهـان بالبرهان، عملا بقوله تعالى : ﴿**قـل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾. إن الإسـلام يعتبر إذن الإيمان بكافة الرسـل الأوائـل وبكتبهـم المقدسـة ورسـالتهم السماوية من عمق العقيدة الإسـلامية، ونكـران رسـالة أي رسـول خـروج عـن الإسـلام، فلا مجال -والحالـة هـذه - أن يضيـق المسـلمون ذرعـا بحـوار ما، ولا سبيل لأن ينعتهـم غيرهم بضيق الصدر والعزوف عن الحوار مادام دينهم الإسلامي يقـر بأن الاختلاف بين الناس من سنن ربهم في الكون ﴿**ولوشـاء اللـه لجعلكـم أمـة واحدة**﴾، ومـادام دسـتورهم - القـرآن الكـريم - يحـدد العلاقـة بـين المسـلمين وغير المسلمـين على نحو ما جاء في الآية التالية

(22) رسالة جلالة الملك إلى المشـاركين في نـدوة «القدس مدينة السلام» بالقاهرة 11 شـوال 1415 (12 مارس 1995) في : انبعاث أمة ج : 40 ص : 103

﴿**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين**﴾، وما دام قد خطط لهم أسلوب الحوار بقوله "ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن"[23]

ويقدر الجميع لجلالة الملك دوره في التقريب بين الديانات ويسجلونه له ضمن منجزاته الكبرى. وكمثال على ذلك ما جاء في كلمة رئيس جامعة جورج تاون "إننا نشاطر جلالة الملك الحسن الثاني التزامه بالعمل على تحقيق التفاهم بين الديانات وقد عمل جلالته طيلة فترة حكمه على حماية هذه القيم في مملكته"[24]

يسمو الفكر الحسني إلى مستوى أعلى حينما يرى في سيادة روح التسامح والتعايش بين الأديان السماوية الثلاثة، وسيلة لتحقيق الأمن والاستقرار على مستوى البشرية جمعاء. يقول جلالته في هذا المعنى : "إننا نرى أن من الضروري بل ومن الحيوي، تنشيط علاقات التفاهم والتعاون بين الأديان السماوية، لا للتفاهم فيما بيننا فحسب،ولكن لدعم الحوار على جميع المستويات، سيما تلك التي من شأنها أن تساهم في إقرار دعائم السلام وتقدير قيم التضامن، وضمان مستقبل الشباب، الذي هو قوام عالم الغد. فلنبدأ بأنفسنا ولنتعاون على تنمية المناطق والبلدان التي نتساكن فيها، ويتعايش بها المومنون من ورثة سيدنا إبراهيم الخليل لتكون مثالا يستشهد به ونموذجا يستطلع إليه"[25]

---

(23) رسالة جلالة الملك إلى المؤتمر الدولي حول العلاقات بين الإسلام وأوروبا، 16 محرم 1416 (15 يونيه 1995)، في : انبعاث أمة ج : 40، ص : 324

(24) كلمة السيد ليو أودونوفال رئيس جامعة جورج تاون، 15 شوال 1415 (16 مارس 1995) في : انبعاث أمة ج : 40، ص :141

(25) رسالة جلالة الملك إلى الاحتفال بالذكرى العاشرة لزيارة سماحة البابا يوحنا بولس الثاني للمغرب، 20 جمادى الأولى 1416 (16أكتوبر 1995) في انبعاث أمة، ج : 40، ص : 504.

أما المبدأ الثالث الذي يستشف من الفكر الحسني في مجال العلاقات بين الديانات السماوية فيتمثل في احترام كل هذه الديانات.منطلق التفكير أن روح الدين الإسلامي وشرعه يلزمان بعدم التفريق بين أنبياء الله ورسله. يقول جلالة الملك : "الدين الإسلامي يوجب على كل مسلم أن يؤمن بسيدنا موسى عليه السلام وأن يؤمن بسيدنا عيسى عليه السلام"[26] وفي معرض جوابه عن سؤال متعلق بأحد رجال الدين، أجاب جلالة الملك : "إنني أعرف القس بيير منذ حوالي 35 سنة وأنا أتتبع برامجه ونشاطاته، لأنه في نهاية المطاف يدعو إلى اليقظة واستباق الأحداث والبحث المعمق إلى أقصى حد لمعرفة حاجيات الفقراء، إنه يحث على الكفاح المتواصل من أجل تحسين وضعية الإنسان وكل هذه المبادئ هي تقليديا وتاريخيا مبادئ دياناتنا الثلاث"[27] ويعود جلالة الملك لتأكيد نفس الفكرة قائلا : "إن الإسلام يأمر المسلمين أن يؤمنوا بكتب الله المنزلة ولا يفرقوا بين أنبيائه ورسله، وأن ينشروا بين الأنام رسالة الإسلام والوئام"[28]

---

(26) حديث جلالة الملك للمجلة الأمريكية : ميدل إيست انسايت، 2 رمضان 1414 (13 فبراير 1994) في انبعاث أمة ج : 39، ص: 54

(27) حديث جلالة الملك إلى القناة التلفزيونية فرانس 2، 21 رمضان 1414 (4 مارس 1994) في انبعاث أمة، ج : 38، ص: 112

(28) خطاب جلالة الملك في افتتاح أشغال مؤتمر القمة الإسلامي السابع، 10 رجب 1415 (13 شتنبر 1994)، في : انبعاث أمة، ج : 38، ص:580

الفصل الخامس : التطرف الديني

تعبير "التطرف الديني" تعبير جديد في قاموس المعاملات الدولية.ولم نقف على استعمال هذا التعبير باللفظ أو مرادفاته في خطب وندوات جلالة الملك إلا في أواخر سنوات السبعين. كما أن مدلول هذا التعبير يظل غير واضح المعالم، فقد ينطبق على عمليات تقع داخل مجتمع ما في حركات تمرد أو ما شابهها، كما يأخذ شكل عمليات تقع خارج المجتمعات المعنية مباشرة في شكل أعمال عنف منظم.

ومهما كان مدلول الكلمة وكيفما كانت جدة استعمالها المرتبطة بتطورات دولية ما، فإن أخطر ما في الأمر أن التطرف الديني أصبح مع الأسف لصيقا بالإسلام حتى لا يحتاج المرأ إلى إضافة الإسلام إلى التعبير لكونه في حد ذاته أصبح يوحي بالإسلام.فما هو هذا التطرف الديني ؟ وما هي أهدافه الحقيقية ؟ وما هو التفسير الصحيح له ولمسبباته ؟ سوف نحاول الإجابة عن هاته التساؤلات، وغيرها، من خلال استقراء الفكر الحسني في هذا الباب.

يرتبط مفهوم التطرف الديني بمفهوم آخر هو الأصولية، فيقال هذه أعمال عنف ناتجة عن التطرف الديني أو تلك أعمال عنف يقوم بها أصوليون. ويرى جلالة الملك ضرورة التمييز أولا بين الأمرين من حيث التسمية، فيقول : "الأصولية في العالم العربي موجودة منذ أن كان الإسلام. يجب علينا أن نعلم هذا ونعرفه [..] لكن الشيء الذي أعطى لهذا التطرف الديني بعده المخيف والمهول، أنه في كثير من المواقع ومن الموضوعات وقع الخلط بين التشدد الديني والأسلوب السياسي، الشيء الذي لم يكن من قبل. كان هناك شذوذ ديني يتناول أمور الدين، ولم يكن يطمح في أن يسوس ذلك التشدد الديني الحالة السياسية اليومية للمسلمين"[1]

(1) حديث جلالة الملك لجريدة الشرق الأوسط، 12 رجب 1413 (6يناير 1993) في : انبعاث أمة، ج : 3 ، ص : 13

وهكـذا يميز جلالة الملك بين الدين الإسلامي كعقيدة وبين الممارسة السياسـية المصطبغـة بصبغـة دينيـة، ويشجبها، ويؤكد بما يشكل وثيقة تاريخيـة مهمـة، أن خطورة التطرف الديني مرتبطة من جهة بحدث خاص بدولـة معينـة، ومرتبطـة مـن جهـة ثانية بالوزن الهام الذي يمثله العالم الإسـلامي. فيقـول جلالتـه : "هنـاك ظـاهرة مثـيرة تقلـق. إذ منـذ عدة سـنوات، اكتشف العالم أن البلدان الإسلامية تشكل قوة بشرية تصل إلى مليـار نسمة [..] أخشى كثيرا أن تتم تعبئة الناس تحت شعارات الإسلام مـن أجـل أهـداف دخيلـة، وقد يكون ذلك من أعمال الشياطين المتسترين تحت العباءات"[2] وتتضـح هـذه الفكرة أكثر في القولة التالية : "لم يكن هنـاك لحـد الساعة داع للتخوف من المسلمين، غير أن الإيديولوجيات التي تسـعى إلى الهيمنة أرادت أن تجعل من الإسلام مطية لذلك. ومـن المؤكـد أنـه مـن السـهل أن يتسـتر المرء في أفعاله وراء اسم الله، وإذا ما طلبت مـن شـخص مـا أن يهيـئ لك برنامجا محكما فإن ذلك يتطلب وقتا، لكن الأشـخاص الكسالى أولئك الذين ليست لهم إيديولوجية، وغير متسامحين، يقولـون : سـنأخذ البرنـامج وسنذكر الله وباسم الله نلج جميع الأبواب، وهـذا أمـر سـهل جدا، والنتيجة هي أن الإسلام – لا أقول كديانة وأنا لا أقـول بالتبشـير فأنـا احـترم كـل الأديـان – صـار الآن يفقـد صورتـه كحضارة وكدين متسامح بناء"[3] لقـد كـان جلالة الملك ومنذ بداية نشوء هاتـه الظـاهرة على وعي تام بمعطياتها وبما تمثله من أزمة حقيقية، يقول جلالتـه : "رأيـت أن الإسـلام اليـوم يجتاز مرحلة من أخطر مراحله. [..] الإسـلام يظهـر اليـوم بمظهـر شنيع جدا، مظهر السنـيين والشيعيين"،[4]

---

(2) حديث جلالة الملك لوفد من الصحفيين الفرنسيين، 19 جمادى الثانية 1399 (16 ماي 1979) فـي: خطب وندوات، ج : 6، ص : 247

(3) حديـث جـلالة الملـك لوسـائل الإعلام البرتغالية، ١ ربيـع الثـاني 1414(18شـتنبر 1993) فـي : انبعاث أمة، ج : 38، ص : 343

(4) كلمـة جلالة الملك في حفل افتتاح أشغال المؤتمر التأسيسي للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم 10 رجب 1402 (5 مارس 1982) في خطب وندوات، ج : 7، ص : 288

وفي دفاعه الدائم عن الإسلام الصحيح، يرى جلالته "أن هذه الموجة ما هي إلا جهل مركب. أما العارف للدين الحقيقي فيعلم أن الدين يسر وليس بعسر"[5] ويزيد توضيحا قائلا : "وبما أن الإسلام ينظم تصرف المؤمنين، وأن الفرق بين الجانب الديني والدنيوي لديه أقل وضوحا مما في غيره، فإن بعض المسلمين يعتقدون أن في استطاعتهم استعمال الدين ليحددوا بكيفية نهائية تنظيم الدولة الإسلامية ويجعلوا هذا التنظيم إجباريا بالنسبة للعالم الإسلامي"[6]، مضيفا في مناسبة أخرى :"إنها حقا امبريالية فكرية ودينية تريد السيطرة على العالم الإسلامي"[7] ويزيد جلالته الموضوع توضيحا حينما يؤكد "أن التشيع لم يكن مذهبا مختلفا عن السنة في بداية الأمر، لقد كان موقفا سياسيا"[8] وبقدر ما تتجه آراء جلالة الملك إلي إبعاد الشبهات عن الدين الإسلامي القويم وبقدر ما يرتكز في جميع آرائه على الجانب السياسي في مسألة التطرف الديني، لا يستبعد جلالته دور بعض الأفراد في هذه التطورات. فيؤكد :"ليس هناك في الإسلام سلطة دينية على شكل كنيسة روما [..] بإمكانها أن ترمي شخصا ما بالمروق. ولكن يحدث أن يعطي أحد نفسه هذا الحق أو يستشعر واجبا من هذا القبيل استنادا إلي إلهام أو تأويل ما، سواء كان لهذا التأويل ما يبرره أم لا"[9]

---

(5) حديث جلالة الملك لجريدة السياسة الكويتية. 13 رجب 1406 (24مارس 1986) في خطب وندوات، ج : 9ص :63

(6) حديث جلالة الملك لمجلة لونوفيل ابسراتور الفرنسية، 17رجب 1404 (28 مارس 1986)، في : خطب وندوات، ج : 9، ص 67

(7) حديث جلة الملك لإذاعة فرانس انتير، 26 ربيع الثاني 1409، (7 دجنبر 1988)، في خطب وندوات، ج : 10، ص : 168.

(8) حديث جلالة الملك لنادي الصحافة لإذاعة أوروبا رقم 1، 11شعبان 1407 (10 أبريل 1987)، في : خطب وندوات، ج : 9، ص: 262

(9) حديث جلالة الملك لمجلة نوفيل اسبراتور. 7 صفر 1408 (1أكتوبر 1987) في خطب وندوات ج : 9، ص 339

ويزيد في حدة مثل هذه التحركات الجو الدولي العام، يقول جلالته : "أعتقد أننا نحن أهل السنة والشيعة تعايشنا مدة أربعة عشرقرنا. لكن فجأة طفا على السطح مصحوبا بنزاعات أخرى في جوار مشوب عدم الاستقرار "[10]

وهكذا يظهر أن تحليل جلالة الملك كان موفقا منذ البداية، نستدل على ذلك بما حصل من تطورات شملت عددا من دول العالم الإسلامي. وعن سؤال متعلق بالوضع في الجزائر وتونس يجيب جلالة الملك : "من الأكيد أن ما نراه الآن ليس بالتطرف الديني، إنه تصدير للثورة الإيرانية. وبالتالي فهو ليس تطرفا دينيا بل شيئا آخر "[11] لقد عرفت ظاهرة التطرف الديني تطورا كبيرا على مدى العقدين الماضيين وخرجت من الإطار الذي شكلت الثورة الإيرانية منطلقه لتدخل مرحلة جديدة تجعل التطرف الديني الحكومي يتحول إلي تطرف ديني لهيئات وجمعيات، وأدى هذا التطور إلي بروز إشكالية جديدة حول علاقة الإسلام دينا وعقيدة بهذه التحركات.

وقد نبه جلالة الملك في جواب مسهب إلي تشابك هاته الظاهرة الجديدة وتعقدها فقال جلالته في جواب عن سؤال متعلق بالظروف التي تفضي إلى التطرف الديني :

"إنه سؤال عام في غاية الأهمية ولكنه متشعب، إن التطرف الديني ظاهرة سوسيولوجية ولا أقول اجتماعية، بل سوسيولوجية تتطلب خليطا من العوامل الإقتصادية والسياسية وحتى الثورية إلى حد ما، فهناك

---

(10) حديث جلالة الملك للقناة التلفزيونية فرانس 2، 4 ربيع الأول 1408(28 أكتوبر 1987) في : خطب وندوات، ج : 9، ص 358.

(11) حديث جلالة الملك للصحفية الإيطالية أولگا بيسيرا. 13 جمادى الأولي 1412 (21 نونبر 1991) في انبعاث أمة، ج : 36، ص : 457.

متطرفـون فـي الديانةاليهوديـة وفـي الديانة المسيحية وفي الإسلام، لكن لمـاذا يجـري الحديـث الآن عـن التطـرف فـي الإسـلام وحـده وليس في الديانـات الأخرى ؟ أولا بالنسبة للمسيحية هناك الآن العلمانية وهي وإن لم تكن ذات طابع رسمي في كل مكان فهي معترف بها في جميع البلدان الأوربيـة وغـير الأوربية.ففي البلدان المسيحية سواء أكانت بروتستانية أو كاثوليكيـة أو غيرهـا لـم يعـد هناك وجود لدين الدولة، إذن فهذه الظاهرة تظهربشـكل محـدود جـدا فـي الكثـير مـن هـذه البلـدان، وعلى كل حال فـالدليل هـو أن البابا الحالي وسلفيه عملوا على إقامة العديد من المجامع الدينيـة : الفاتيكـان الأول، والفاتيكـان الثـاني فـي محاولة لجعل الجميع يسيرون على نفس النهج نوعا ما .كمـا لليهوديـة متطرفوهـا، ونلمس هذا التطـرف فـي الأحـزاب اليمينيـة المتطرفـة المسـماة بـالأحزاب الدينية في الكنيسـت، ولكن هذه الظاهرة لا تتجاوز هذا الإطار الضيق، فهذه الأحزاب ليـس لهـا تأثير على اليهود المنتشرين في العالم.أما فيما يخص المسلمين فـأولا يصـل عددهـم إلى مليار ومئتي مليون مسلم، وهذا عدد هائل وهم مـن مختلـف الأجناس، ويوجدون في كافة البلدان.والمسلم لا يقبل العيش خـارج إطار دينه، لأن ديننا وحياتنا اليومية أمران متلازمان، وهنا بالذات تتدخـل الظـاهرة السوسـيولوجية، فبـالنظر مـن حيـث التقـدم في مجال التعليـم والتطور العلمي والمستوى الاقتصادي ستجدون إما بلدانا تتحلى بالتسـامح ومتفتحـة علـى الخـارج وتقبـل الحـوار وتبـادل الأفكار، وإما مجتمعـا منغلقـا علـي نفسه إن كان المستوى التعليمي ضعيفا، وهذا ينتج عنـه عـدم التسـامح وانعـدام الحـوار ونـوع مـن التعصب، وسيكون من الصعـب أن نحدثكـم عـن التطـرف والأصوليـة، لأن الأمـر يتطلـب الكثير من الوقت "[12]

(12) حديث جلالة الملك لوكالة رويتر، 26 رجب 1412 (1 فبراير1992)،فـي : انبعـاث أمـة، ج : 37، ص :50

في إطار عمل فكري دؤوب، يعمل جلالة الملك على النفوذ إلي صميم المشكلة عبر عدة تحليلات، وهكذا نجد جلالته يربط بين مواجهة التطرف وبين التربية والتعليم. يقول جلالة الملك :«فكلما ذهب سكان العالم وسكان البلدان الإسلامية على الخصوص إلي المدرسة والجامعة وانفتحوا علي عالمهم الخاص وعلى العالم الخارجي، أصبحوا واعين بحقوقهم العامة وحقوقهم الفردية، وإذاك تصبح هيمنة الظلامية أمرا لايمكن تصوره لأن الظلامية ما هي إلا شكل من أشكال الدكتاتورية الإرهابية" ويؤكد جلالته نفس الفكرة، فيقول : "إن الوسيلة الأولى التي تجعلنا في مأمن من هذا كله هي عدم الخلط بين الدين والسياسة، أي ألا نجعل الإسلام مطية لأطماعنا التوسعية [..] وهذا يقتضي على ما أظن محاربة الأمية أولا وقبل كل شيء، سواء عند العرب أنفسهم أو عند المسلمين حتى نمحو من طريق كل مسلم وجود الرهبانية، سواء الصغيرة أو المتوسطة أو الكبيرة"[14]

كما يربط جلالة الملك بين الحرية والديموقراطية وبين مواجهة التطرف، فيقول : "المقلق بالنسبة للتطرف، كيف ما كان نوعه، سواء كان يساريا أي ماركسيا لينينيا، أو كان تعصبا يأخذ شكلا دينيا هي أن تنعدم الحرية. لأن أحسن مبيد لهذه الطفيليات هو الحرية ولا أقول الترخيص، بل الحرية المستوعبة جيدا والمتحكم فيها والممارسة بشكل جيد. فما دامت حرية في هذا البلد، وما دامت هناك ديموقراطية، فأنا لا أخشى التطرف بكل أشكاله "[15]

(13) حديث جلالة الملك للتلفزة الإيطالية راي أونو، 17 جمادى الأولى 1412 (26 نونبر 1991) في : انبعاث أمة، ج : 36، ص : 477.

(14) حديث جلالة الملك لمركز تلفزيون الشرق الأوسط، 18 ذي القعدة 1412 (23 ماي 1992) في : انبعاث أمة، ج : 37، ص : 172.

(15) حديث جلالة الملك للقناة الثانية للتلفزة الفرنسية، 4ربيع الأول 1413 (2 شتنبر 1992) في : انبعاث أمة، ج : 37، ص : 295.

ويعـود جلالتـــه إلـى فكـرة الديموقراطيـة فـي علاقتهـا بمجابهـة التطـرف، فيقـول : "إن الحزب الوحيد يؤدي في غالب الأحيان إلى بروز التطـرف الدينـي، وينبغـي توضيـح شـيء، وهـو أن الأحـزاب السياسية الأوروبيـة التقليديـة – بغـض النظـر عن الاديولوجيا التي فقدتها منذ أن اندثـرت الماركسـية وأصبـح لهـا برنـامج – لم تعد تعترف بالإيديولوجيا داخـل الأحـزاب، فـي حـين أن الإسلام بالنسبة للمسلمين يشكل برنامجا إيديولوجيـا رائعـا، لكن بمجرد ما مزجوه بالسياسة ظهر التطرف الديني، إذن فـالحزب الوحيد هو أحد الأسباب الرئيسية والأكثر خطورة في بروز التطرف الديني"[16]

ومـن جهـة ثالثة، يلح جلالة الملك على عنصر القيم المثالية كعنصر لمواجهـة التطـرف. يقـول جلالتـه : "إن موجـات التطـرف هاتـه لا تبرز تلقائيـا، فسـبب بروزها يرجع إلى المغالاة في تجاهل القيم الروحية. فمنذ إطـلاق فكـرة العلمانيـة بأوروبا من طرف فرنسا، تم التشكيك في بعض القيـم التـي كـانت خـالدة. وقد ترتب عن هذا التشكيك نوع من التراخي، ممـا تسـبب فـي بروز التطرف. كما أن بعض مظاهر التقدم أخذت شكلا مفرطا يبعث على الإثارة"[17]

إن موضـوع التطـرف الديني موضوع متشابك المعطيات والعناصر، كمـا أشرنا إلى ذلك من قبل، لكن جلالة الملك في تحليل علمي دقيق، يعيد الأمـور إلـى نصابهـا ويعتـــبر أن مـا يسمى بالتطرف الديني ما هو إلا انعكـاس لمشاكل خاصة بكل مجتمع، يعرف هذا النوع من المشاكل يقول جلالـة الملـك : "يجـب أن نفـرق بـين ما هو إيديولوجي وبـــين ما هو

(16) حديث جلالة الملك للتلفزة الفرنسية، 24 ذي القعـدة 1413 (16مـاي 1993) فـي : انبعـاث أمـة، ج : 3 ، ص : 202.

(17) حديث جلالة الملك للأسبوعية الفرنسية بوان دوفي، 15 ربيع الأول 1414 (3 شتنبر 1993) فـي : انبعاث أمة، ج : 38، ص : 324.

خـاص بكـل بلـد بلـد، مثـلا لمـا كـانت الإيديولوجيـة الشـيوعية، كـانت إيديولوجيـة واحـدة ودينـا واحدا وتعاملا واحدا موحدا، أما عن العنف في الـدول التـي ذكرتها (سؤال الصحفي يهم الجزائر ومصر) فهو ليس عنفا إيديولوجيـا يسـير بنفـس الطريقـة ومبنيـا علـى نفس التركيبة ويستعمل نفـس الأجهـزة. إذن هي ظاهرة لاصقة بكل بلد بلد. أما ما يعتقده البعض مـن أن هـذا العنـف هـو عنف إسلامي أو عنف تطرف إسلامي فهذا غير صحيـح، فلـو كـان عنفـا منحدرا من الدين الإسلامي – الدين الإسلامي بـراء مـن العنـف – لكانت بنيته متماثلة في جميع البلدان التي نرى فيها هذا العنف، ولكنه عنف يترجم مشاكل كل دولة دولة "[18]

ينـبري جلالـة الملـك مدافعـا صادقا عن الإسلام، فلا يقبل أبدا أن يرتبـط الإسـلام بـالعنف أو بالإرهـاب، فعـن سؤال حول رد فعل جلالته علـى الربط بين الإسلام والإرهاب، يجيب جلالة الملك : "أنا أرفض بشدة هـذا الخلـط. لأن الإسلام لو كان كما يصفه البعض حاليا أو كما يريدون وصفـه، لكـان على هذه الحال منذ قرون. وعليه – فكما قلت ذلك وكررته مـرارا – فـإن هـذه الظاهرة لم تبرز إلا في السنوات العشر الأخيرة. إنها ظـاهرة سياسـية، والاعتـداءات التـي تقـع هي اعتداءات سياسية وليست دينيـة. أمـا عـن الجهـات التي تقف وراءها، فسنتعرف عليها في يوم من الأيـام، وسـنعرف بـدون شـك أن المتورطين في هذه الإعتداءات – بالرغم مـن ادعـائهم أنهم مسلمون، لا يعرفون شيئا عن دينهم – وإني واثق من ذلـك، وعلـى يقـين مـن أن أغلبهـم أو بعضهم على الأقل لا يحفظـون عشـر آيـات قرآنيـة، [..] وعليـه، فـإني لا أقبـل بتاتـا الخلـط بـين لإسلام والإرهاب "[19]

---

(18) حـديث جلالة الملك لتلفـزيـون الشـرق الأوسـط ومجلـة "المجلـة"، 4 جمـادى الثانية 1415 (8 نونبر 1994) في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 516.

(19) حديث جلالة الملك للتلفزيون الأوروبي تي في 5. 21 ربيع الثاني 1416 (17 شتنبر 1995) فـي : انبعاث أمة، ج : 40، ص : 443.

ويؤكد جلالة الملك نفس الفكرة مع تعمق أكبر في التحليل، فيقول : "إن أشكال التطرف تختلف، لأن مصدرها ليس واحدا. فليس لأشكال التطرف نفس المبررات أونفس الأسباب. فالدافع إلى التطرف عند البعض هو المغالاة في العلمانية والإباحية وعند آخرين هو المشكلة الاقتصادية والاجتماعية، وعند فئة ثالثة هو الحرمان من الحرية بسبب ممارسة السلطة من طرف حزب واحد لمدة طويلة، لكن ليس للتطرف دوما أساس ديني "[20]

هذه بعض ملامح أوجه مجابهة التطرف الديني. ولكن ما هي آفاق المستقبل ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ؟ كيف نحدد خطة عمل لمجابهة هذه الظاهرة في المستقبل، وما هي خلاصة آراء جلالة الملك في هذا الباب ؟

يقلل جلالة الملك من الأهمية التي أعطيت لهذه الظاهرة، ويقول : "إن التطرف الديني بالشكل الذي تتصورونه، وبالبشاعة التي أراه بها والتي يمكن أن أدعوه بالظلامية لا يمكن أن يؤخذ مأخذ الجد، لأن العالم يتطور باستمرار "[21]

والمستقبل في اعتبار جلالة الملك هو في سيادة روح التسامح والتساكن، يقول جلالته :"إذا أردنا نحن المسلمين أن نؤكد أن رسولنا صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيئين وأرسل للعالمين كافة، فعلينا ألا نكون متزمتين [..] ولكن إذا أردنا أن نجعل من الإسلام دين قطرمن الأقطار أو تعبد محل من المحلات فلن نجعل من الديانة الإسلامية تلك

---

(20) حديث جلالة الملك لأذاعة فرانس أنتير الفرنسية، 6 محرم 1414(27 يونيه 1993)، في انبعاث أمة، ج : 38، ص : 269

(21) حديث جلالة الملك للتلفزة الإيطالية "راي أونو" 17 جمادى الأولى 1412 (25 نونبر 1991) في : انبعاث أمة، ج : 36، ص : 477.

الديانة العالمية، وأن نجعل من النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي بعث للناس كافة "[22]

واعتبارا لما سبق، واعتمادا على أصول الدين الإسلامي المتينة، يقول جلالة الملك : "إنه لا أحد ولا سلطة يستطيعان أن يخولا لأنفسهما ما لم يخول الدين لهما من سلوك سبيل التطرف واللجوء إلى العدوانية في التفكير والممارسة، والانتصاب لإصدار أحكام تكفير المسلمين وإبعادهم عن حظيرة الدين، والفتوى بالجهاد فيهم. فهذه أحكام لا يقبل الإسلام أن تصدر من بشر ضد بشر [..] ومن القواعد المسلم بها عند علمائنا أنه لا يجوز أن يكفر أحد من أهل القبلة بذنب "[23]

هذه بعض السمات العامة لمستقبل التطرف الديني عبر العالم. ولم يكتف جلالة الملك بهذه التحليلات والتفسيرات بل توجه بالنصح والتوجيه إلى مختلف المعنيين. فيتوجه بالخطاب لخبراء منظمة المؤتمر الإسلامي قائلا : "ولست بحاجة إلى التذكير بأن على مجموعتكم أن تأخذ بعين الاعتبار خصوصية الموضوع الذي أنتم مدعوون لمعالجته من جوانبه كلها، برصد الأسباب الموضوعية التي تساهم في تشويه الإسلام، سواء كانت بفعل المسلمين أو من صنع خصومهم، وبضبط التقنيات والآليات التي تساعد على تقديمه في صورته الحق [..] واعتبارا لهذه العوامل الذاتية منها والخارجية، تبلور لدى القادة المسلمين الوعي بضرورة التصدي بخطاب عقلاني جديد للمحاولات التي تسعى إلى تحميل الإسلام وحده ما هو مشين "[24]

---

(22) حديث جلالة الملك لتلفزيون الشرق الأوسط 18ذي القعدة 1412(23ماي 1992) في : انبعاث أمة، ج : 37، ص : 172.

(23) كلمة جلالة الملك في افتتاح أشغال مؤتمر القمة الإسلامي السابع، 10 رجب 1415 (13 دجنبر 1994)، في : انبعاث أمة، ج : 39، ص : 581.

(24) رسالة جلالة الملك إلى أشغال مجموعة خبراء منظمة المؤتمر الإسلامي حول "صورة الإسلام في العالم الخارجي" 8 محرم 1416(7يونيو 1995)، في : انبعاث أمة، ج : 40، ص : 312.

بم عسى أن يختتم الباحث في الفكر الحسني محاولة تقصر عن استقصاء كل درر هذا الفكر وتعجز عن الإلمام بكل جوانبه، بعد أن استعرضت الملامح الكبرى لهذا الفكر؟ لكن الإنطباع العام المترتب عن قراءة خطب وكلمات جلالة الملك المتعلقة بموضوع الدين الإسلامي يبقى هو الإنطباع بكون جلالته وقف جهده ووقته لخدمة هذا الدين وترسيخه والسهر الدائم على أن يظل المغربي متشبثا بمقومات دينه الحنيف كما أراده له الخالق سبحانه، دين توسط وتسامح وتعايش، لا يفرط في شيء من مقومات ذلك الدين الأساسية، ولا يغالي في شيء منها. أما على مستوى دفاع جلالة الملك في المحافل الدولية فحدث ولا حرج. إن هذا العمل المتواضع لا يهدف إلا إلى إيقاظ الهمم لتناول هذا الجانب بكل ما يستحق من تعمق وإسهاب، ويبقى أحسن ما نختمه به التوجه إلى العالي جلت قدرته أن يجازي أحسن الجراء جنديا من جنوده، منافحا عن دينه، وأن يكون ثواب عمله محتسبا في حسناته.

فهرس المحتويات

ـ تقديم	3
1 ـ مرسى الوليدية	5
2 ـ مفهوم الحدود في الدولة الإسلامية	33
3 ـ يوم من أيام كفاح محمد الخامس	43
4 ـ مرسى أسفي في العصر الحديث	53
5 ـ بين الجبرتي والناصري	63
6 ـ مساهمة في التعريف بتاريخ فضالة	77
7 ـ أبو محمد صالح بن ينصارن الماجري	93
8 ـ مخطوطات عربية في مكتبات سوفيتية	109
9 ـ رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ملوك وقته	137
10 ـ تأملات في منهجية كتابة تاريخ المقاومة	143
11 ـ مغزى تقديم وثيقة الاستقلال	149
12 ـ ملامح من شخصية السلطان سيدي محمد ابن عبد الله	155
13 ـ المسألة الدينية في الفكر الحسني	173

رقم الإيداع القانوني: 1998/429

مطبعة فضالة
زنقة ابن زيدون - المحمدية (المغرب)
الهاتف: 32.46.45 (03) الفاكس: 32.46.43 (03)